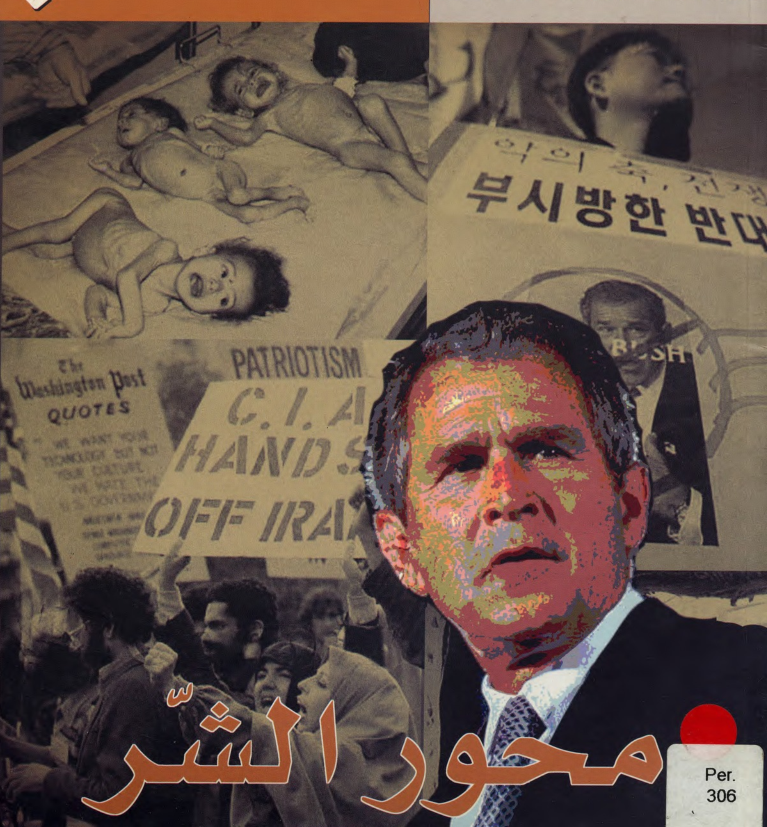
الآداب

50 years

AL ADAB 2002

العدد ٣/٤ آذار (مارس) - نيسان (أبريل) ٢٠٠٢ - السنة ٥٠

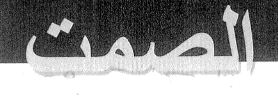
Al-Adab vol.50# 3-4/2002



محورُ الشّر

ياسمينة صالح



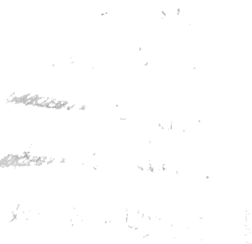




بحر الصمت

رواية

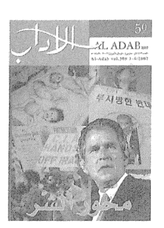








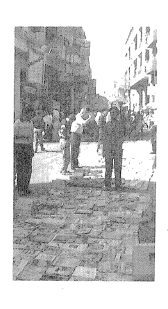
دار الآداب



الفهـــرس ٢٠٠٢

العــدد ٣/٤ آذار (مــارس) ـ نيـســان (أبريل) ٢٠٠٢ ـ السنة ٥٠

Al - Adab vol. 50 # 3-4/2002



الافتتاحية

المقالات

القصائد

رحلة

القصص

الملف «محور الشرّ»



قرأت الملف الماضي من الآداب

أبواب متفرّقة

المملكة المضطربة

التعاطف والجحود في تحالف آل سعود

. أسعد أبو خليل* .

«حتى متى لا نرى عدلاً نُسرّ به
ولا نرى لولاةِ الحقّ أعوانا
مستمسكين بحقٍ قائمين به
إذا تَلَوّن أهلُ الجورِ ألوانا
يا لَلرجالِ لداءٍ لا دواءَ لهُ
وقائدٍ ذي عمى يقتاد عميانا
مسلم بن يزيد العدوي

تقديم: ماذا يحدث لآل سعود؟

ماذا حلّ بآل سعود؟ ماذا أقْلق راحةَ العائلة المالكة السعوديّة وقضّ مضاجعَها؟ لماذا تعتري أوصالَ العائلة أشجانٌ وهواجسُ لم تعرفْها من قبل؟ وماذا حدث لعلاقة الحبّ والهيام بين الحكومة الأميركيّة والحكومة السعوديّة؟ يبدو أنّ بنيانَ ما كان يُعرف بالتحالف الوثيق بين الطرفيْن، والذي دعا الولايات المتّحدةَ إلى التغاضي عن خروقات حقوق الإنسان في المملكة، يتداعى باستمرار. ووفقًا لاستطلاع أجرته شركةُ غالوب ونُشر في شهر شباط (فبراير)، يحتفظ الرأيُ العامُّ الأميركيُّ بصورة سلبيّة جداً عن السعوديّة (بنسبة ٥٣٪). ولا تتوقّف الصحافة الأميركيّة عن نشر مقالات تَنْتقد الحكم السعوديّ، الذي كان ـ ولأشهر خلت ـ نموذجًا يُحتذى للاعتدال والاتّزان.

إنّ الخلافات بين أجنحة العائلة المالكة الذكوريّة مستعرة. وقد سارع وليُّ العهد إلى إرضاءِ مَنْ عبّرَ عن غضبه على نظامه؛ وهذا ما يفسّر مبادرةَ الأمير عبد الله (الانسحاب مقابل التطبيع) في عزّ احتدام القمع والقتل الإسرائيليّيْن. فهل يصبح الأمير عبد الله خيرَ منقذٍ لأرييل شارون وللحكومة الأميركيّة في آن؟ ولكنّ تحليل مبادرة الأمير عبد الله في الإعلام العربيّ مصابٌ بتلوُّث أموال النفط السعوديّ، التي أحكمتْ سيطرتَها على معظم مصادر هذا الإعلام منذ حرب العراق، باستثناءات قليلة أبرزُها جريدةُ **القدس العربيّ** ومحطةُ الجزيرة التي تتعرّض لضغوطٍ أميركيّة لا تتوقّف.

لقد تغيّرت العلاقاتُ الأميركيّةُ ـ السعوديّةُ منذ أحداث أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١. فمَنْ كان يتوقّع أن تتصدّر قوائمَ «الإرهابيّين» الأميركيّة أسماءٌ سعوديّةٌ في العام ٢٠٠٢؟ بل نحن بدورنا، في المشرق العربيّ، لم نأخذْ على محمل الجدّ عمقَ الالتزام السياسيّ في السعوديّة، فكانت لنا نظرةٌ عنصريّةٌ إلى أهل الخليج، حتى ظننّا أنّهم كلّهم على شاكلة بعض أمراء النفط .. في حين كانت المجتمعات الخليجيّة دائمًا تغلي تحت السّطح، وكانت حركاتُ المعارضة السعوديّة اليساريّة والقوميّة والإسلاميّة ناشطةً منذ الستينيّات،[1] بل وجريئةً إلى حدّ التهوُّر. وناصر السعيد (مؤلّفُ كتاب **تاريخ آل سعود**، وهو كتابٌ من دون دار نشر إذ قلّةٌ من دُور النشر تجرؤ على نشر نقدٍ لآل سعود) انتهى سجينًا في أقبية رعاع عصابة أبو الزعيم في بيروت، الذي سلّمه إلى المخابرات السعوديّة. لكنّ ياسر عرفات قد يكون استفاد من هذا التسليم، فلنعذرْه؛ فهو مصابٌ بضعفٍ شديدٍ تجاه أنظمة الخليج، ولا يضاهيه أحدٌ في ممالأة حكّام تلك الأنظمة وتملّقهم.

العلاقات السعوديّة الأميركيّة: خلفيّة تاريخيّة

بدأت العلاقاتُ السعوديّةُ ـ الأميركيّةُ في التطوُّر السريع بعد الحرب العالميّة الثانية. فالولايات المتحدة بدأتْ حينها عمليّةَ تسلّم إرث الإمبراطوريّة البريطانيّة.

* ـ أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة ولاية كاليفورنيا ـ ستانسلاس، وباحث في مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. مؤلّف كتاب **بن لادن والإسلام والحرب الأميركيّة ضدّ «الإرهاب»** الصادر حديثًا عن دار نشر سڤن كورنرز.

١ ـ انظر كتاب فردْ هاليداي **Arabia Without Sultans**، الصادر عن دار پنغوين عام ١٩٧٥.

كما أنّ الحرب الباردة عزّزتْ من مكانة المملكة، التي اعتنقتْ ولاتزال تعتنق العقيدةَ الرجعيّةَ بكلّ عناصرها، ولاسيّما في ما يختصّ بمقتِ كلِّ ما هو تقدُّميٌّ ومتنوِّر، وكلِّ ما هو شيوعيٌّ طبعًا. صحيح أنّ تقارير المخابرات الأميركيّة تشير باستمرار إلى ضعف بعض أفراد العائلة الحاكمة أمام الملذّات،[1] ولكنّ الملك فهد هو «خادم الحرمين،» وهو نفسُه الذي صنَعَ في بداية الثمانينيّات مشروع أول اعترافٍ عربيّ رسميّ بإسرائيل ـ وفي هذا ما يسرّ الحكومةَ الأميركيّةَ.

كان عاملُ النفط هامّاً جداً في سيرورة هذه العلاقات. فالمخزون السعوديّ يفوق أيَّ مخزون نفطيّ آخر، كما أنّ نوعيّة الخام السعوديّ لا يضاهيها خامٌ آخر.[2] وتحوّلتْ شركة آرامكو إلى هيئة استعماريّة داخل المملكة تسيِّر أمورًا تُعنَى بالنفط وغيرِ النفط؛ ولم تَنْفكّ عائلةُ سعود من هيمنة تلك الشركة إلاّ بعد عقود، حين تحوّلتْ سيطرةُ آرامكو إلى مسألة سياسيّة محرجة. وارتاح الحكّام في المملكة إلى الإدارة الأميركيّة لشؤونهم ما داموا قادرين على الإنفاق المبذّر في شتّى أمور الحياة.

أثناء الحرب الباردة استطاع الحُكّم في السعوديّة إدراجَ المملكة في الأخطبوط الأميركيّ على أساس معادلة حسابيّة بسيطة، حصلت العائلةُ المالكةُ بموجبها على تعهُّد بحماية أميركا لأمنها (لا لأمن المملكة) مقابل خدماتٍ اقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ جمّة. واستطاعت الحكومة السعوديّة أن تنْخرط في معركة أميركا ضدّ الأنظمة الشيوعيّة، مخافةَ أن تطول الثوراتُ أرضَ المملكة. واستعانت الولاياتُ المتحدة بـ «إسلام» المملكة القابل للتصدير كي تُبْرز بديلاً محليّاً «أصيلاً،» مقابلَ الإيديولوجيّات السياسيّة السائدة آنذاك. واستطاعت حكومةُ المملكة أن تشكّل تنظيماتٍ ومؤتمراتٍ وهيئاتٍ تروِّج إسلامَها رسميّاً، كي تُجْهِضَ تصاعُدَ الحركات اليساريّة والقوميّة التي شكّلتْ تهديدًا مباشرًا لحكم الملوك والأمراء في منطقة الخليج. فقد كان تنامي المدّ القوميّ واليساريّ كبيرًا إلى درجة أنّ الأمير طلال بن عبد العزيز (وهو والدُ الأمير الوليد بن طلال) انشقّ عن عائلته وانضمَّ إلى الحكم الناصريّ في القاهرة، مع أنّ هذا الأمير يحاول اليوم أن يتناسى تلك المرحلةَ أو أن يَزْعمَ أنّه كان مسيَّرًا ضدّ إرادته من قِبل نظام عبد الناصر.[3]

واستمرّ التعاونُ السعوديّ ـ الأميركيُّ طيلةَ المرحلة الحرجة أثناء المدّ القوميّ الناصريّ الذي زعزع غيرَ عرشٍ عربيّ. لكنّ عبد الناصر كان مُثْخنًا بالجراح بعد حرب ١٩٦٧ (التي سمّاها خِفّةً «النّكسةَ»)، فمالأ النظامَ السعوديّ وطالبه بمساعدات ماليّة مقابلَ توقُّف الحملات المصريّة الإعلاميّة ضدّ «الرجعيّة» و«رموز الاستعمار الغربيّ.» كما أنّ التعاون السعوديّ ـ المصريّ كان موجَّهًا أيضًا ضدّ المقاومة الفلسطينيّة الصاعدة التي نظّرتْ لنمط «التوريط،» أيْ لجرّ الأنظمة العربيّة إلى حربٍ لا تريدها مع إسرائيل، بغية تعبئة الشعوب العربيّة وتجييشها. وهذا المنطق يعارض لامنطقَ الأنظمة التي تصرّ منذ عقود على «اختيار زمانٍ ومكانٍ» المعركة ـ والشعوب منتظرة؛ ولا ندري لماذا يصبح مكانُ المعركة موضعَ تساؤل، إلاّ إذا كانت الأنظمةُ الموهوبةُ تحضِّر لحربٍ ضدّ إسرائيل من... الصين!

استفادت العلاقاتُ السعوديّةُ ـ الأميركيّةُ من وفاة عبد الناصر، التي تلتها ما سمّاه

---

١ ـ Bob Woodward, **Veil : The Secret Wars of the CIA, 1981 - 1987** (New York : Simon & Schuster, 1993).

٢ ـ Daniel Yergin, **The Prize: The Epic Quest for Oil, Money, and Power** (New York: Simon and Schuster, 1991).

٣ ـ انظرْ حديثه إلى محطّة الجزيرة، وهو مدرَجٌ على موقع الإنترنت التابع لها.

صادق جلال العظم «الحقبة السعوديّة.»[1] وتعاونت المخابراتُ السعوديّة أيّامَ كمال أدهم مع النظام المصريّ. ولانزال جاهلين (وجاهلات) بحقيقة الدور السعوديّ في التحضير لزيارة السادات إلى إسرائيل، وهي الزيارة التي لم ننتهِ من معاناة ويلاتها إلى اليوم.

تركي وبندر والدور السعوديّ المتجدّد

في عهد رونالد ريغان تغيّرت العلاقاتُ الأميركيّةُ ـ السعوديّةُ، خصوصًا بعد الاجتياح السوفياتيّ لأفغانستان. فالحكومة السعوديّة ارتأت يومها ـ بعد أن تخلّصتْ (إلى غير رجعة؟) من إزعاج الحركات اليساريّة والأنظمة المسمّاة زُورًا بالتقدُّميّة ـ أن تتجاوز الخلافَ العابرَ مع الولايات المتحدة بعد حرب ١٩٧٣، وما تخلّلها من قطع سعوديٍّ رمزيٍّ للنفط لتهدئة أعصاب الجمهور العربيّ الغاضب. وتمكّن هنري كيسنجر، بعد زيارة واحدة إلى المملكة، من الحصول على إعادة ضخّ النفط السعوديّ الخام، مذكّرًا العائلةَ باتّفاقها مع الرئيس فرانكلين روزفلت، وهو اتفاقُ تقديم الحماية الأميركيّة مقابل النفط والولاء السعوديَّيْن ـ بل الكثير من الاثنين الأخيرَيْن.

وجاء حكمُ الرئيس ريغان في وقته، من منظور العائلة المالكة. فكلامُ سلفه جيمي كارتر (الفارغُ) عن حقوق الإنسان، وهو الذي لم يَسْعَ إلى حمايتها إلاّ في الأنظمة التي يَسْهل التهجُّمُ عليها مثلِ نظام كوبا، لم يُثِرِ الارتياحَ في قلوب آل سعود. ذلك أنّ عبارة «حقوق الإنسان» تتناقض مع البنيان الإيديولوجيّ للنظام السعوديّ. وكيف يمكن الحديثُ عن حقوق الإنسان في مكانٍ لا يُسمح فيه للنساء بحريّاتٍ دنيا؟ هذا مع العلم أنّ رجال السعوديّة هم أيضًا محرومون من أبسط الحقوق ـ واسألوا ناصر السعيد عن ذلك، هذا لو كان حيّاً يُرزق.

كان رونالد ريغان مصابًا بهوس الخطر السوفياتيّ و«إمبراطوريّة الشرّ» (ما الذي يُفسِّر هوسَ أكثر من رئيس أميركيّ بـ «الشرّ»؟). وكانت السعوديّة يومها في طور إنشاء جهاز مخابراتٍ متطوّر بعد أن كان الرئيسُ السابقُ لجهاز المخابرات يتعامل معه كرديف لشخصه الكريم. أما خليفتُه الأمير تركي الفيصل (حاملُ شهادة العلاقات الدوليّة وسياسة الشرق الأوسط من جامعة جورجتاون) فكان جدّيّاً في بنائه جهازَ مخابراتٍ حديثًا يَعْتمد على التحليل والتجسُّس، على غرار أنظمة الاستخبارات الغربيّة.[2] وبموازاة الأمير تركي وإصلاحاته، كان للسعوديّة يومها سفيرٌ جديدٌ في الولايات المتحدة هو الأمير بندر بن سلطان. والأمير بندر خرّيج المعاهد العسكريّة الأميركيّة، وحاملُ شهادة في العلاقات الدوليّة من جامعة جونز هوبكنز.

وسرعان ما عيّن رونالد ريغان شخصًا غريبَ الأطوار هو ويليام كايسي، الذي كان سبّاقًا في إعلانه حربًا عالميّةً ضدّ الإرهاب، مديرًا لوكالة الاستخبارات الأميركيّة. ووليام كايسي، هذا اليمينيّ المتطرّف، لم يُعِرْ حقوقَ الإنسان أيَّ اهتمام؛ على العكس: كان مثله مثل صديقته السفيرة السابقة جين كيركپاترك، التي قالت إنّ الديكتاتوريّات اليمينيّة مؤاتية جداً للمصالح الأميركيّة، وإنّ علينا التعامل معها من موقع الحليف.[3]

---

١ ـ صادق جلال العظم، **سياسة كارتر ومنظّرو الحقبة السعوديّة** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٧).

٢ ـ من الغاز أحداث ١١ أيلول التي لم تُحلّ، والتي ستزيد من خصب نظريّات المؤامرة، أنّ الأمير المذكور استقال، أو أُقيل، من منصبه قبل أيام فقط من الأحداث.

٣ ـ Jeanne J. Kirkpatrick, **Dictatorships and Double Standards: Rationalism and Reason in Politics** (New York: Simon and Schuster, 1982).

في هذه الحقبة بالذات كانت السعوديّة عبر الأمير بندر تخوض غمارَ معارك طاحنة في الكونغرس من أجل الحصول على كميّات هائلة من الأسلحة، وبمبالغ طائلة لم يُستَشَر الشعبُ السعوديُّ في شأنها. وقاد الحملةَ السعوديّةَ الدبلوماسيّةَ في أروقة الكونغرس الأميرُ بندر، الذي اضطُرَّ إلى مواجهة معارضةٍ عتيّةٍ من اللوبي الصهيونيّ، ومن إعلامٍ موالٍ لإسرائيل لم يتورّعْ عن الحديث المسهَب عما اعتبره فسادًا في أوساط آل سعود. ونَشَرَ كاتبٌ كان مجهولاً يومها ويُدعى ستيفن أمرسون كتابًا عنوانُه **The American House of Saud** فصّل فيه الحملةَ النفطيّةَ الإعلاميّةَ المواليةَ للنظام السعوديّ في الولايات المتحدة بالتعاون مع شركات النفط العملاقة.(١)

وفي مواجهة حملةٍ معارضةٍ للسعوديّة ركّزتْ يومها على حالة عدم الاستقرار في الخليج، وعلى ديمومة الاعتماد الأميركيّ على إسرائيل قوةً استراتيجيّةً في منطقة الشرق الأوسط، بدأ الأمير بندر بالترويج للدور السعوديّ حليفًا استراتيجيّاً للولايات المتحدة، لا بائعَ نفطٍ لها فحسب. وشارك في هذا الترويج الأميرُ تركي بن فيصل الذي أنشأ وموّل وجنّدَ ما نسمّيه اليوم «الأفغانَ العربَ.» وكان حليفَه آنذاك ثريٌّ سعوديٌّ شابٌّ اسمُه أسامة بن لادن. وقد التقى الأمير تركي الشابَّ بن لادن مرّاتٍ عدّةً، بشهادة تركي نفسِه.

أقام الأمير بندر علاقاتٍ خاصّةً بالنخبة السياسيّة الأميركيّة، وأقْنع عمَّه الملكَ فهدًا (الموالي دومًا للولايات المتحدة) بفائدة تمويل المغامرات والمشاريع الأميركيّة السريّة ـ الأمرُ الذي أدخلَ السعوديّةَ في عمليّة تمويل عصابات «الكونترا» اليمينيّة في نيكاراغوا،(٢) بالإضافة إلى مشاريع مشتركة في الشرق الأوسط. وهذا لا يعني أنّ الولايات المتحدة غيّرتْ من نظرتها إلى مصالحها في الشرق الأوسط، التي على أساسها تنال إسرائيلُ حظْوةً لا مثيلَ لها. وها إنّ بيع الأسلحة الأميركيّة إلى السعوديّة تأتي مشروطةً دومًا، بل هي ـ في عرف الأميركيّين على الأقلّ ـ ضمانةٌ لإسرائيل لأنّها رسميّاً مبتغاةٌ ضدّ أعداء عرب ومسلمين فقط. كما أنّ «المستشارين» العسكريّين الأميركيّين يأتون مع شحنات الأسلحة بهدف إعارة الخبرات وإعطاء «المشورة...»

السعوديّة بعد حرب الخليج الثانية

عادت حربُ الخليج الثانية على الولايات المتحدة بفوائد جمّة. فبالإضافة إلى نشر قوات أميركيّة في طول منطقة الخليج وعرضها، وبالإضافة إلى فرض خوّةٍ باهظةٍ على أنظمة الخليج التي اضطُرّت تحت طائلة التهديد والوعيد إلى تحمّل كلّ نفقات الحرب الأميركيّة، حوّلت الولاياتُ المتحدة علاقاتِها بدول الخليج إلى علاقةٍ بمحميّات، على غرار الوضع الذي كان سائدًا قبل فترة «الاستقلال» الشكليّ.

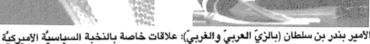
وفرضت الحكومةُ الأميركيّةُ على الحكومة السعوديّة عقب غزو العراق للكويت إصدارَ دعوةٍ رسميّةٍ للقوات الأميركيّة للقدوم إلى المملكة، بعد عمليّة تخويف أرعدتْ مفاصلَ العائلة المالكة.(٣) ثمّ شابَ العلاقاتِ بين البلديْن التوتُّرُ،

١ ـ عاد الكاتب أمرسون نفسُه إلى الظهور في التسعينيّات خبيرًا مرموقًا لـ «الإرهاب،» ناشرًا سمومَه ضدّ الإسلام والمسلمين والمسلمات في كتاب صدر مؤخّرًا تحت عنوان **American Jihad**.

٢ ـ أعْلم السفير السعوديّ في الولايات المتحدة مستشارَ الأمن القوميّ الأميركيّ السيد ماكفرلن أنّ المملكة ستخصّص مليون دولار شهريّاً لدعم الكونترا. وهذا ما حصل. راجع: http://www.webcom.com/pinknoiz/convert/stip.html

٣ ـ Bob Woodward, **The Commanders** (New York: Simon and Schuster, 1991).





الأمير بندر بن سلطان (بالزيّ العربيّ والغربيّ): علاقات خاصة بالنخبة السياسيّة الأميركيّة

وذلك بعد ظهور خلاف في أوساط العائلة المالكة حول مدى التورُّط الأميركيّ في شؤون البلاد والعباد. ووَجدت العائلةُ المالكةُ نفسَها في ورطة زادت، بدلاً من أن تقلّل، من مشاكلها الداخليّة. فقد أصبح الملك فهد موضعَ انتقادات وتهجُّم لإباحته أرضَ الجزيرة لقوات تُعتبر من منظور المذهب الرسميّ للبلاد قواتٍ كافرةً وجائرةً. وازدادت حدّةُ المعارضة الشعبيّة (وهي إسلاميّة في منحاها) بعد أن تدهور الاقتصادُ السعوديُّ، وازداد العجزُ في الموازنة، وتفشّت البطالةُ، في الوقت الذي لم يتقلّص فيه حجمُ الفساد. ووجدت العائلةُ المالكةُ أنّ العائدين من أفغانستان (وهم خرّيجو «معهد» الأمير تركي لخدمة مصالح الولايات المتحدة في الحرب الباردة) اكتشفوا عدوّاً جديدًا لهم كامنًا بين ظهرانيهم. والعدوّ الأميركيّ هذا وقِحٌ معهم: فهو لا يكتفي بالتعامل مع أرض المملكة كأنّها عقارٌ مباح، بل يَفْرض على ضيفه شروطًا سياسيّةً، ويحاول دفعَ حكّام المملكة إلى سلام مع إسرائيل. وبالطبع وجدت العائلةُ المالكةُ نفسَها في مأزق: فهي تحاول إرضاءَ الولايات المتحدة من دون إغضاب الجمهور السعوديّ.

العلاقات السعوديّة ـ الأميركيّة قبل أحداث ١١ أيلول

لم يكن أسامة بن لادن غريبًا عن حكّام المملكة. فهو بنى علاقةً خاصةً ورسميّةً بالكثير من أفرادها. وكانت علاقتُه بالأمير تركي تحديدًا علاقةَ النِّدّ للنِّدّ أثناء محاربة السوفيات. كما أنّ صلته بالعائلة المالكة قويّة، حتى إنّ الأمير عبدالله أقرّ بأنّه التقى بن لادن مرّةً على الأقل.(١) وكانت من الشدّة بحيث استطاع الاجتماعَ بوزير الدفاع الأمير سلطان إثر الاجتياح العراقيّ للكويت. وفي هذا اللقاء عَرَضَ بن لادن على سلطان تشكيلَ جيشٍ من المتطوّعين المسلمين لدحر الجيش العراقيّ، من دون الاستعانة بقوات «الكفر» الأجنبيّة. طبعًا لم يكن هذا اللّقاءُ مثمرًا، لكنّه أرّخ لبدء الشرخ في علاقة بن لادن بآل سعود، ولبدء حرب جديدة يشنّها بن لادن ضدّ الولايات المتحدة وضدّ آل سعود أنفسهم في داخل المملكة. وهناك في السعوديّة أوصالٌ لحركات معارضة متعدِّدة، لكنْ يبدو أنّ أسامة بن لادن استطاع تشكيلَ عناصر سريّةٍ تمكّنتْ من ضرب مواقع عسكريّة أميركيّة وسعوديّة هناك.

لقد كانت العلاقات السعوديّة ـ الأميركيّة في الظاهر حسنةً قبل تفجيرات نيويورك وواشنطن. لكنّ قياداتٍ أمنيّةً وعسكريّةً أميركيّةً لم تُخْفِ امتعاضَها من السريّة التي تتعامل معها السعوديّة في تحقيقاتها الأمنيّة، خصوصًا إزاء انفجار الخُبَر في السعوديّة عام ١٩٩٦، الذي تصرّ الولاياتُ المتحدةُ على أنّه من صنع إيرانيّ، وبتوقيع من حزب اللّه السعوديّ. ويبدو أنّ المملكة كانت خائفةً آنذاك من الغوص بعيدًا (في العلن على الأقلّ) في التحقيقات الأمنيّة خشيةَ التصريح بمشاكل أمنيّة واجتماعيّة وسياسيّة في البلاد. لكنّ الإدارة الأميركيّة كانت قلقةً من تنامي القدرة العسكريّة لبن لادن، ولم تجد تعاونًا «كافيًا» من طرف السلطات السعوديّة. والتعاون الكافي في المفهوم الأميركيّ لا يأخذ في الاعتبار مقاييسَ السيادة الوطنيّة؛ فقد أرادت الحكومة الأميركيّة، مثلاً، التحقيقَ بنفسها مع معتقلين سعوديّين، غيرَ مكتفيةٍ بالتقارير الوافية التي كانت تمدّها بها السلطاتُ الأمنيّةُ في المملكة.

العلاقات بين البلدين بعد أحداث ١١ أيلول

وجاءت تفجيرات ١١ أيلول (سبتمبر) لتَقْلب الأمورَ رأسًا على عقب. وذكرت الصحافةُ أنّ مدير وكالة الاستخبارات المركزيّة جورج تينيت توصّل إلى جنسيّة خاطفي الطائرات الأميركيّة الأربع في ١١ أيلول بعد ساعات فقط من حدوث هذه

١ ـ ABCNEWS.com, "Walters Interviews Saudi Crown Prince," http://abcnews.go.com.

التفجيرات، وأنّه اتّصل بسفير السعوديّة الأمير بندر «لزفّ» النبإ. طبعًا، هناك في العالم العربيّ والإسلاميّ مَنْ لايزال يشكّك في الرواية الأميركيّة حول هويّة الخاطفين. كما أنّ وزير الداخليّة في المملكة، الأمير نايف، أصرّ طوال أسابيع على أنْ ليس ثمّة دليلٌ إطلاقًا على تورُّط مَنْ زُعم أنّ هويّتهم إسلاميّة.

ولم تمضِ أيامٌ على أحداث ١١ أيلول حتى أدلى الأعلامُ الأميركيُّ بدلوه، وبدأتْ حملةٌ إعلاميّةٌ وسياسيّةٌ أميركيّةٌ لا مثيل لها ضدّ السعوديّة. صحيح أنّ الإدارة الأميركيّة تنصلّتْ رسميّاً من الحملة السلبيّة ضدّ آل سعود، لكنّ «مصادر رسميّة» لم تتوقّف عن تسريبِ ما اعتبرتْه معلوماتٍ شخصيّةً عن الحياة الخاصة لأفراد في العائلة الحاكمة. ونشرتْ مجلّة **ذا نيويوركر** في أعدادها في شهريْ أيلول (سبتمبر) وتشرين الأول (أكتوبر) مقالاتٍ لسيمون هِرْش الوثيقِ الصلةِ بمصادر داخل وكالة الاستخبارات المركزيّة. وكانت المجلة نفسُها قد نشرتْ قبل أكثر من سنة مقالةً تضمّنتْ هجومًا شديدًا، من قبل «مصادر» في مكتب التحقيقات الفدراليّ، على سوء إدارة الحكومة السعوديّة للتحقيقات في انفجار الخُبَر.

والحقّ أنّ الحملات الإعلاميّة ضدّ السعوديّة لا يُمْكن فصلُها (وبصرف النظر عن موقفنا من الحكومة السعوديّة) عن موجة البغض والعداء لكلّ ما هو عربيّ وإسلاميّ. وتناغمتْ أبواقُ اللوبي الصهيونيّ مع الحملات الإعلاميّة لتَشْمل أعضاء نافذين (ونافذات) في مجلسَي الشيوخ والنوّاب في أميركا. وشملت الحَمْلةُ في ما شملتْ تدخُّلاً سافرًا في شؤونٍ تُعتبر خاصّةً بكل دين وكلّ دولة. حتى إنّ رئيس لجنة العلاقات الخارجيّة في مجلس الشيوخ السناتور جو بايدن تحدّث وبدون حرج عن ضرورة تغيير مناهج التدريس في المدارس الإسلاميّة، مع أنّه لا يمكن تصوُّرُ يوم يتحدّث فيه أعضاء في الكونغرس عن تغيير مناهج التدريس في مدارس يهوديّة أو مسيحيّة. والحال أنّ هناك صلةً وثيقةً بين العداء العنصريّ للإسلام من جهة، والأصواتِ التي تَدْعو إلى تغيير المناهج من جهة ثانية. وهذا بالطبع لا ينتقص من صوابيّة العلمنة في المجتمعات العربيّة والإسلاميّة، لا العلمنةِ الانتقائيّةِ التي ترى ضررًا وتخلُّفًا في الإسلام في الوقت الذي تَصُول فيه وتجول الأصوليّاتُ المسيحيّةُ واليهوديّةُ في العالم بأسره من دون أن تَصْدُر أصواتُ العلمنة المزعومة.[1] لكنّ أصحابَ الحملة الأميركيّة، كعادتهم، يقيسون بمقياسيْن وبمعايير الانحياز الطائفيّ والسياسيّ الصارخ.

خشيت الحكومةُ السعوديّةُ من تنامي هذه الأصوات، خصوصًا وأنّ صحيفتيْ **نيويورك تايمز وواشنطن بوست** أفردتا صفحاتٍ وافرةً للتهجُّم على النظام السعوديّ ـ وهو نظامٌ يستحقّ النقدَ طبعًا، لكنّ كلامَ الغرب هذه الأيامَ يَدْخل في خانة ما قاله عليّ بنُ أبي طالب عن شعار الخوارج: «كلامُ حقٍّ يراد به باطل.» وشنّ توماس فريدمان، وهو معلِّقٌ سطحيٌّ حظي بشعبيّة كبيرة في كتابيْه عن الشرق الأوسط والعولمة لأنّ كليْهما سطحيّ ومبسَّط ومليء بالشعارات التي تدغدغ المشاعر، حملةً شعواءَ ضدّ السعوديّة، لا بل ضدّ العرب والإسلام أيضًا.[2] ودعا فريدمان إلى حربٍ «لا ضدّ الإسلام بل داخلَ الإسلام» على حدّ قوله غيرَ مرّة. وهو يَعْلم أنّه مقروء من قبل الساسة والعامة على حدّ سواء.

استُنفرتْ أجهزةُ الأعلام الدعائيّ التابعة للمملكة. حتى إنّ الأمير بندر، وهو بعيد عن

١ ـ إنّ دور المؤسّسات الرسميّة المسيحيّة، بل والسدّة البابويّة نفسها، موثّقٌ ومعروف إزاء أحداث وحروب عبر التاريخ. وقد وثّق كتابُ **بابا هتلر** تعاطُفَ البابا بيوس الثاني عشر مع النازيّة. انظر: John Cornwell, **Hitler's Pope: The Secret History of Pius XII** (New York: Viking, 1999).

٢ ـ إشارةٌ إلى أنّ محطة «الهوى بالغرب» LBC تستضيف هذا الرجلَ مرارًا، للاستفادة من فُصُوص حِكَمِه!

. أســـــعـــد أبو خـلـيـل .

الأضواء عادةً، تحدّث إلى وسائل الإعلام للتعبير عن الاستنكار السعوديّ الرسميّ للإرهاب ضدّ أميركا وللتأكيد على الغضب السعوديّ على بن لادن. وبعث الأميرُ عبد الله بمستشاره للأمن القوميّ، عادل الجبير ذي النجم الصاعد، الذي لم يتوقّف يومًا عن الدفاع المستميت عن مصالح العائلة المالكة منذ أيام دراسته الجامعيّة في واشنطن (وقد كان زميلاً لي). ويمثّل الجبير الجناحَ الأكثرَ مناصرةً للولايات المتحدة في المؤسّسات السياسيّة السعوديّة، وهو ما يساعد على تجميل صورة الأمير عبد الله الذي يُصوَّر على أنّه قوميٌّ عربيٌّ ومعادٍ للولايات المتحدة (وكأنّ معارضته الولاياتِ المتحدةَ مسموحٌ بها في داخل العائلةِ المالكة). وقد رضخت السعوديّةُ، في محاولةٍ لتلميع صورتها، للضغوط الأميركيّة أو انصاعت للأوامر الأميركيّة ـ لا فرق. وبقدرة قادر، انقلبت المواقفُ السعوديّةُ الرسميّةُ: فالأمير سلطان، مثلاً، وهو وزيرُ الدفاع في المملكة، كان قد صرّح في شهر أكتوبر (تشرين الأول) بأنّ أراضي المملكة وقواعدَها لن تُستعمل لضرب أيّ دولة. وكانت الولايات المتحدة الأميركيّة قد سرّبتْ إلى وسائل الإعلام الأميركيّة خبرَ معارضة الحكومة السعوديّة للاستخدام الأميركيّ لقاعدة الأمير سلطان الجويّة في حربها ضدّ أفغانستان. وسارعت الصحافة الأميركيّةُ إلى اتّهام العائلة المالكة بالجحود والتحدّي وإهانةِ المشاعر الأميركيّة. وهو ما أدّى إلى الاستخدامِ الأميركيِّ للقاعدة المذكورة... هكذا، من دونِ إعلان، ومن دون طنّة ورنّة!

في مواجهة الحملة الأميركيّة لم تدرِ الحكومةُ السعوديّةُ ما تفعل سوى استخدام شركات العلاقات العامّة العملاقة التي تُنْفق عليها السفارةُ السعوديّةُ في واشنطن مبالغ طائلة. فابتاعت هذه الشركاتُ مساحاتٍ واسعةً من الصحف الأميركيّة، الشعبيّةِ والنخبويّةِ، وبكلفة باهظة تقدَّر بعشرات الآلاف من الدولارات. وأدْرجتْ إحصاءاتٍ عن تطوّر المملكة الاقتصاديّ، وعن متانة تحالفها مع الولايات المتحدة، وعن اعتدالها، وعن حكمة الملك فهد. وكان قد سبق للأمير خالد بن سلطان قبل أكثر من عشر سنوات أنْ جال على الدول العربيّة والغربيّة عند التحضير للحرب ضدّ العراق، حتى تسنّى للسعوديّة السيطرةُ على معظم الدوريّات العربيّة.[1] ومن الصعوبة بمكانِ الحصولُ على صحيفة عربيّة تتضمَّن انتقاداتٍ ضدّ السعوديّة أو مجرّد معلوماتٍ عنها. ولكنّ الحكومةَ السعوديّةَ لم تستطع، بالطبع، ابتياعَ الصحف الأميركيّة.

واستمرّت الحكومةُ السعوديّةُ في محاولة إرضاء الولايات المتحدة عبر عدم السماح لأيّ انتقاد للحرب الأميركيّة ضدّ أفغانستان، وإسكاتِ مَنْ تجرّأ على انتقاد الدور الأميركيّ. وحاولتْ في مسألة المناهج نفسها إرضاءَ الحكومة الأميركيّة، إذ فجأةً أعْلن وزيرُ المعارف السعوديّ محمد بن أحمد الرشيد أنّ حكومته قرّرتْ تغييرَ المناهج الدراسيّة، لكنّه جزم أنّ هذا التغيير غيرُ مرتبطٍ البتّةَ بالضغوط الأميركيّة![2]

مبادرة الأمير عبد الله: نحو مزيد من الانبطاح

ولم تكتفِ السعوديّةُ بهذا القدْر من الانبطاح بل دعت ـ هكذا ومن دون مقدِّمات ـ الصحافيَّ توماس فريدمان. وفريدمان هذا قد يكون أكثرَ الكتّاب صفاقةً ووقاحةً في الحديث عن العرب والإسلام، وهو

١ ـ تشمل السيطرةُ معظمَ الدوريّات الصادرة في المهجر. بل إنّ إحدى المجلات التي تصدر في باريس، وكانت ثابتةً في ولائها المدمّر لحُكْم صدّام حسين في العراق، تحوّلتْ بسحر المال إلى بوقٍ سعوديّ. وتمّ «استئجار» بعض الجرائد من مالكيها لكي تعبّر عن وجهة النظر السعوديّة. وبقيتْ جريدةُ **القدس العربيّ** اللندنيّة ـ بين قلّة قليلة من الدوريّات ـ في منأى عن سيطرة مال النفط السعوديّ.

٢ ـ جريدة **الحياة**، ٥ آذار (مارس) ٢٠٠٢.

مـعـروفٌ بإلقـائه اللومَ على الفلسطينيّين (وحدهم) لما يجري في أرض فلسطين من قتلٍ ودمار. وحظي السيد فريدمان بعشاء خاصّ مع الأمير عبد الله. وبعد العشاء، وفي لقاء خاصّ أيضًا مع وليّ العهد، اقتَرَحَ السيِّد فريدمان ـ فهو أكبرُ مِنْ أن يوجِّه أسئلةً كسائر الصحفيِّين ـ أن يبادر العربُ إلى تقديم عرضٍ بالسلام والتطبيع الكاملَيْن مقابل انسحابٍ إسرائيليّ من الأراضي المحتلّة عام ١٩٦٧. وجوابًا على هذا الاقتراح ذَكَرَ وليُّ العهد السعوديّ أنّ فريدمان يبدو وكأنّه يقرأ ما في ذهنه: فقد كان الأميرُ قد وضع في «دُرْجِه» اقتراحًا مطابقًا لاقتراح فريدمان، ويا للعجب! وأضاف الأمير أنّه كان يُزْمع التقدّمَ بالاقتراح السعوديّ إلى القمّة العربيّة في بيروت، قبل مجيء شارون إلى الحكم.

ونجحتْ هذه الخطّةُ السعوديّةُ إلى حدٍّ ما؛ ذلك لأنّ الكونغرس الأميركيّ يقوِّم علاقاته بالأنظمة العربيّة على أساس استعدادها لإرضاء التعنُّت الإسرائيليّ. ولم يكن غريبًا، نتيجةً للنفوذ السعوديّ في العالم العربيّ، ونتيجةً للسطوة السعوديّة بين الأنظمة العربيّة، أن راحت الألسنةُ العربيّةُ الرسميّةُ والإعلاميّةُ على حدٍّ سواء تَلْهج بالثناء على الأمير عبد الله وحكمته.

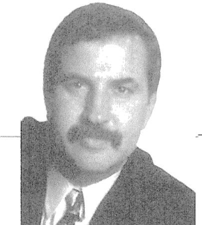
غير أنّ أيّ تقويم موضوعيٍّ لهذه المبادرة يجب أن يأخذ في الحسبان توقيتَها، الذي جاء ليقدِّم ـ كما ذكرنا ـ خدمةً جليّةً إلى الحكومة الإسرائيليّة التي تواجه اليومَ أكبرَ مأزق أخلاقيّ وسياسيّ منذ احتلالها الضفّةَ والقطاعَ عام ٦٧. ذلك أنّ المبادرة السعوديّة أتت لتكرّس اللامنطقَ الإسرائيليّ الذي يُلْقي باللّوم على العرب لما يجري من عنف في المنطقة. أيْ أنّ خطّة الأمير عبد الله تتماشى مع الزعم الإسرائيليّ بأنّ الحكومات الإسرائيليّة فعلتْ كلَّ ما في وسعها من أجل السلام والاستقرار، وأنّ الوقت قد حان ليقدِّم العربُ مبادرةً ما من أجل هذا «السلام.» وهذا بالفعل ما أَقْدم عليه سموُّه، بالاتفاق مع السيد فريدمان الذي لا يريد للعرب والمسلمين إلاّ كل خير.

لكنّ هناك أمرًا مهمًّا في هذه المبادرة تتغاضى عنه أجهزةُ الإعلام، الأميركيّةُ والعربيّةُ على حدّ سواء. فمن حقّ الحكومات العربيّة (قانونيًا لا أخلاقيًا) أن تَعِدَ إسرائيلَ باتفاقيّات سلام، بل وأن توقِّع على هذه الاتفاقيّات كما فعل عددٌ من الدول العربيّة، وكما يتمنّى أن يفعل عددٌ آخر. فاتفاقيّاتُ السلام تُعْقَدُ بين دول، ونحن في العالم العربيّ لا يدَ لنا في ما تَفْعله حكوماتُنا لأنّنا لا نختارها، بل هي تختار نفسَها بنفسها ـ ما شاء الله ـ وتبايع لنفسها أيضًا في استفتاءات باتت مضحكةً عالميًا.

لكنّ مسألة التطبيع شيءٌ آخر تمامًا. فالتطبيع يَعْني مرحلةً ما بعد السلام، وهي مَرْتبةٌ أعلى من مرتبة السلام: إنّها تَعْني الهيامَ والحبَّ والغرامَ بإسرائيل. ومن حقّ حكوماتنا أن تقع في غرام إسرائيل، لكنْ لا حقَّ (ولا قدرةَ لها أصلاً) على تقرير عواطفنا ومشاعرنا. فالشعبُ الأردنيُّ يغلي ويتظاهر ويَرْفض التطبيع. والحكومة المصريّة فشلتْ فشلاً ذريعًا في إحداث حالة تطبيع مع إسرائيل، بالرُّغم من الضغوطات الأميركيّة والمحاولاتِ الصهيونيّة التي لا تتوقّف. والنقابات والاتّحادات والشخصيّات المصريّة عبّرتْ عن تضامن باهر مع الشعب الفلسطينيّ (والعربيّ عمومًا) في رفضها القاطع للتطبيع.(١)

أهناك مَنْ يعتقد أنّ الأمير عبد الله وأموالَه تستطيع فعلاً أن تغيِّر من مواقفنا الرافضة للتطبيع؟ أهناك مَنْ يعتقد فعلاً أنّ أموال النفط قادرةٌ على تغيير المواقف المبدئيّة لدوريّات مثل الآداب أو **السفير** أو **المستقبل العربي**؟ يُمْكنهم أن يَحْلموا وأن يتوهّموا، لكنّ رجال مخابراتنا وزبانية

١ ـ هناك كاتبٌ مسرحيٌ واحد (هو علي سالم) يجاهر بسلامه وتطبيعه مع إسرائيل، وهو شبهُ منبوذ في المجتمع المصريّ، وإنْ كان يحظى بثناء وتأييد في المطبوعات الإسرائيليّة والأميركيّة. انظر مجلّة **Middle East Quarterly**، شتاء ٢٠٠٢.

اقترح توماس فريدمان على الأمير عبد الله أن يبادر العرب إلى تقديم عرض بالسلام والتطبيع مقابل الانسحاب

حكوماتنا يَجْهلون واقعَ السيطرة السيكولوجيَّة. صحيح أنَّ لديهم القدرة على اقتحام منازلنا، وعلى إجهاض حقوقنا، وعلى استخدام التعذيب ضدّنا. لكنّ كلَّ وسائل القتل والتعذيب الحديثة لا تستطيع أن تحتلّ مكانًا في قلوبنا؛ فهذه دائمًا حيِّزٌ حرٌّ: لا تَدْخله أجهزةُ المخابرات ولا توفِّر فيه. ولقد أثْبتتِ السجونُ العربيَّةُ فشلَها في تغيير مبادئ المعتقَلين ومواقفِهم، وإنْ نجحتْ في خلقِ حالةِ خوف شاملة ورادعة.

من المتوقَّع أن تنبري أجهزةُ الإعلام الموالية للسعوديَّة للدفاع عن مبادرة الأمير عبد الله وتصويرها قابَ قوسيْن أو أدنى من فلسطين. وسيُسال حبرٌ غزيرٌ للحديث عن حكمة القيادات النفطيَّة والخليجيَّة. والأقلام الصحافيَّة اللبنانيَّة سبّاقة في هذا المضمار: فلا يموتُ أميرٌ من أمراء النفط إلاّ وتُجْمِعُ أقلامُ الصحافة اللبنانيَّة على عبقريّة المرحوم، وعلى إعداده خطةً مُحْكَمةً لتحرير فلسطين لو لم توافِهِ المنيَّة... هذا بصرف النظر عن أسباب الوفاة.

خاتمة: مستقبلُ آل سعود

ليس من المصادفة أن تُسرِّبَ وكالةُ الاستخبارات المركزيَّة الأميركيَّة تقريرًا غايةً في السريَّة تشكِّك فيه في قدرة العائلة المالكة على تجنُّب الصعاب في المستقبل.[1] فالضغوط على الحكم السعوديّ تأتي في هذه الأيام من كل حَدْب وصَوْب. والعائلةُ في حيرة من أمرها: فكيف تحافظ على شرعيّتها السياسيَّة (وهي دينيَّة مذهبيَّة) من دون أن تعمِّق الشرخَ في علاقاتها بالولايات المتحدة؟ وكيف يُمْكن أن تَمْنع القلاقلَ والاضطرابَ السياسيَّ والاقتصاديَّ في الوقت الذي يستمرّ فيه العجزُ في الميزانيَّة، وتتدنّى عائداتُ النفط (وجلُّها لايزال مسبَّبًا في فساد أو صفقاتِ أسلحة)؟ وكيف يمكن أن يستمرّ حكمُ الوراثة، وأواصرُ الأمراء مفكّكة؟ وهل تستطيع العائلةُ أن تستمرّ في قبول الشروط الأميركيَّة من دون أن تُزَعزع التحالفَ بين تلك العائلة والعلماء الوهابيِّين، وهو التحالف الذي أنشأ المؤسِّسُ مملكتَه على أساسه؟

كلُّ هذه الأسئلة مطروحةٌ بفعل الصدمة التي نتجتْ عن تفجيرات أيلول، التي أضرّت بالمصالح السعوديَّة مثلما أضرّت بالمصالح الأميركيَّة (وإنْ كانت الولايات المتحدة نجحتْ أخيرًا في الاستفادة من المأساة المروّعة عبر نشر سيطرتها العسكريَّة حول العالم). ذلك أنَّ النظام السعوديَّ نظامٌ يعتمد على نفقات حكوميَّة مفرطة في كرمها بغيةَ شراء الولاء والطاعة. وقد سَخَّرتْ أجهزةُ الدولة السعوديَّة كثيرًا من رجال الدين لخدمتها وخدمةِ مصالح العائلة (ألم يحذِّر جعفر الصادق من أنْ: «لا دين لمن دان بولايةِ إمامٍ جائر»؟)، فكافأت العلماءَ الموالين لها، وأقْصت العلماءَ المعارضين لها أوْ زجَّتْ بهم في غياهب السجون. ومعركةُ تحرير المرأة تخوضُها نساءُ السعوديَّة ومناصروهنّ بصمت من دون اهتمام العالم الذي يُسمّي نفسَه «حرّاً.»

قد تكون سياساتُ هذه المملكة مضرّةً بمصالحنا نحن العربَ، وبمصالح مَنْ يودّ تحريرَ الرجل العربيّ والمرأة العربيَّة من قيود التقليد والحكومة والأحوال الشخصيَّة. والحقّ أنَّ شيئًا لم يُضِرَّ بمصالح العلمنة في عالمنا العربيّ مثلما أضرَّت بها إيديولوجيَّةُ الدولة المصدِّرة والمعلَّبة، والتي لسطوتها فعلُ الإرادة لدى المراجع الدينيَّة في غير دولة عربيَّة ـ حتى إنَّ هذه المراجع لا ترى هلالَ شهر رمضان إلاَّ عندما تراه حدقةُ السلطة في السعوديَّة!

لكنَّ الانتفاضة لن تتوقَّف، والتطبيع مستحيل. وسيبقى تحذيرُ أمل دنقل ضدّ التصالح مع العدوّ أفعلَ في نفوسنا من مبادراتٍ جاءت لتحافظ على عروش من ذهب.

كاليفورنيا

1 ـ **Boston Globe**, March 5, 2002.

المشروع القوميّ العربيّ في مواجهة الصهيونيّة

«الملفّ» الذي يجب أن لا يُغلق

. عبد اللّه عبد الدائم* .

I ـ مدخل

عندما يُقْبل المرء على التصدّي للصراع بين القوميّة العربيّة والقوميّة الصهيونيّة، تزدحم المعاني في صَدْره، فلا يدري أيُّها يختار. ومع ذلك ففي وسعنا أن نُوجز الموقفَ بالقول إنّ على القوميّة العربيّة أن تنطلق في صراعها مع القوميّة الصهيونيّة من حقيقة أساسيّة هي الآتية: القوميّة الصهيونيّة منذ نشأتْ، وعبر مراحل تطوُّرها جميعها، قوميّةٌ أسطوريّةٌ خرافيّة، وقوميّةٌ مصطنعة زائفة، وقوميّةٌ عنصريّة إثنيّة، وقوميّةٌ عدوانيّة.

ومن هنا كان من العبث أن نتوقّع من إسرائيل، ربيبةِ الصهيونيّة، أن تتخلّى ولو عن جانب من مطامعها العدوانيّة المرسومة... إلاّ إذا استطاعت القوميّةُ العربيّةُ أن تَمْلك من القوّة والوحدة والتأثير ما يَحْمل إسرائيلَ على إعادة النظر في منطلقات الصهيونيّة، وما يجعلها تُدْرك من خلال المعاناة الواقعيّة أنّ هذه المنطلقات مستحيلة التطبيق، وأنّها سوف تعاني جرائرَ هذه «الخطيئة الأوليّة» إذا هي لم تتخلّ عنها نهائيّاً.

غير أنّ تقرّي الأحداث يَكْشف عن أنّ سلوك إسرائيل كان ومايزال عكسَ ذلك. فكلّما عصفتْ بها الأزماتُ ازدادت خوفًا على مصيرها، وازدادت من ثمّ عدوانًا. ولن يأتي اليومُ الذي تتخلّى فيه عن عدوانها، وتعيدُ الحقّ لأصحابه، إلاّ إذا أدركتْ إدراكًا عمليّاً أنّ العرب لن يستسلموا وإنْ غُلِبوا على أمرهم إلى حين، وأنّ الزخم القوميّ العربيّ في تصاعُد.

ولعلّ من البدهيّ أن نقول إنّ الذي أوصلَ القضيّةَ الفلسطينيّةَ إلى هذا المصير الذي نَشْهده، كما أوصل الأمّةَ العربيّةَ الى الحيرة والاضطراب، هو أنّ الحركة القوميّة العربيّة لم تكن في شتّى مراحل نموّها وعملها في المستوى الذي تَسْتلزمه مواجهةُ رزءِ الصهيونيّة وأطماعها. ومن المؤلم أن نقول إنّ الصهيونيّة استطاعت، بدأبها وعملها المنظَّم، أن تُقلّب خرافتها، خرافةَ الكيان الصهيونيّ، إلى حقيقة، ولاسيّما في نظر العالم؛ وإنّ الأمّة العربيّة، بسبب عجزها وقعودها وتشتُّتِ أبنائها، هبطتْ بحقيقتها إلى مستوى الخرافة. وإذا استمرأت الدولُ العربيّة تقوقعَها القُطْريّ، وإذا عجزت القوميّة العربيّةُ عن إعادة صياغة أهدافها ووسائلها ـ وعلى رأسها بناءُ الإنسان العربيّ المصمِّم على النضال، والمالكِ لوسائله، والقادر على الارتفاع ببنية الأمّة العربيّة إلى مستوى العصر ـ فلن تُفْلح محاولاتُ السلام نفسُها مع إسرائيل. ولا أدلَّ على ذلك من أنّ عقليّة العدوان، الراسخةَ في نفوس أبناء إسرائيل، قد فرضتْ نفسَها على عمليّة السلام. بل تكْشف مفاوضاتُ السلام بين الفلسطينيّين والإسرائيليّين كلّما تقدّم الزمنُ عن عودة مطّردة إلى منطلقات اليمين الصهيونيّ المتطرّف، وعن بروزٍ جديدٍ لأكثر اتّجاهات الصهيونيّة عدوانيّةً منذ نشأتها ـ نعني الاتّجاهَ الذي مثّله منذ البداية الزعيمُ الصهيونيُّ جابوتنسكي، وعاد فمثّله مَنْ بعده ورثتُه من أمثال بيغن وشامير ونتانياهو وأخيرًا لا آخرًا شارون. بل إنّ الجناح الإسرائيليّ الذي يدّعي أنّه جناح السلام، وعلى رأسه شيمون بيرس فضلاً عن باراك، يزداد مع الأيام جنوحًا إلى المواقف العدوانيّة والتصاقًا بمقولات اليمين المتطرّف. ولكي ندرك هذا كلّه، لا بدّ من العودة إلى منطلقات الصهيونيّة الأولى منذ نشأتها.

II ـ معالم السياسة الإسرائيليّة من خلال منطلقاتها الصهيونيّة

١ ـ القوميّة الصهيونيّة قوميّة أسطوريّة خرافيّة. قامت الصهيونيّة على جملة من الأساطير التي حاولتْ من خلالها تزويرَ التاريخ اليهوديّ، وعلى رأسها أسطورةُ «الأرض الموعودة.» وهنا نحرص على الإشارة إلى الحقيقتين اللتين كشفت عنهما أحدثُ الدراسات التاريخيّة

* ـ مربٍّ، ومفكّر قوميّ، ووزير سابق. والبحث أعلاه نصُّ المحاضرة التي ألقاها في المركز الثقافيّ بحلب.

. عبد الله عبد الدائم .

بهذا الشأن. الأولى تؤكّد أنّ التوراة ـ على نحوِ ما صاغها اليهودُ بعد حوالى خمسمائة عام من نزولها على موسى ـ لا يمكن أن تُعَدّ كتابًا ذا قيمة تاريخيّة، وأنّ ما جاء فيها لا يعدو أن يكون أساطيرَ الأوّلين. والثانية تؤكّد تهافُتَ ما ورد في التوراة المزيّفة عن دولةٍ اسمُها إسرائيل وَضَعَها المؤرِّخون الصهاينة في مرحلة الانتقال بين العصر البرونزيّ المتأخّر والعصر الحديديّ (أيْ حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد). ويشير كيث وايتلام إلى أنّ أورشليم في القرن العاشر قبل الميلاد لم تكن أكثر من مرتفعات صغيرة، وكانت أبعدَ ما تكون عن عاصمةٍ لمَلَكيّة موحّدة شاسعة على نحوِ ما ورد في النصوص التوراتيّة المزيّفة. وهذا يعني «أنّ ما كان يُعتبر تقليديّاً أوجَ التطوُّر السياسيّ في المنطقة، ونَعني دولةَ داودَ وسليمانَ القوميّة، يختفي من الوجود نهائيّاً.»[1] ويبيِّن الكاتب أيضًا كيف أدّى هذا التزييفُ إلى إقصاء تاريخ فلسطين القديمة وسكّانِها الأصليِّين، وكيف تقدِّم المعطياتُ الآثاريّةُ معلوماتٍ قيِّمةً حول الوضع السكانيّ والاقتصاد والتنظيم الاجتماعيّ لدى السكّان الأصليِّين لتلك البلاد (أي الفلسطينيِّين)، بالإضافة إلى أنّ هذه المعلومات لا تَذْكر شيئًا عن كيانٍ اسمُه «إسرائيل.» ومن هنا يرى الكاتب أنّ الفلسطينيِّين اليوم قد تَناسَوا التاريخَ الفلسطينيَّ القديمَ وتركوه لإسرائيل والغرب، وأنّ من اللازم استردادَ ذلك التاريخ بعد أن تمّ إقصاؤه خلال القرنين الماضيَيْن «نتيجةً للقبضة الخانقة التي أظهرها المتخصِّصون والمؤرِّخون والآثاريُّون الكتابيُّون، والتي تتحكّم في دراسة فلسطين والشرق الأدنى القديم.»[2] فقد بحث الباحثون الكتابيُّون (التوراتيُّون) دائبين عن وجود إسرائيل الماديّ بين خرائب الأرض وآثارها، ولكنّ «ما عثروا عليه هو ما كانوا قد قرَّروا مسبّقًا أن يعثروا عليه، نعني إسرائيلَ شبيهةً بالدول القوميّة اليوم.»[3] وهكذا تمّ تقديمُ إسرائيل إلى العالم بوصفها دولةً قوميّةً بديئةً تَبْحث عن وطن تعبِّر فيه عن وعيها القوميّ التليد والجديد.[4]

٢ ـ القوميّة الصهيونيّة قوميّة قسريّة مصطنعة زائفة. لعلّ أبرز ما تتّصف به القوميّة الصهيونيّةُ أنّها وُلِدتْ ولادةً قيصريّة، بل أكْرهت الشعبَ اليهوديَّ نفسَه على غيرِ ما كانت تريده أكثريّتُه الساحقة. وإنّ المرء ليعجب ما الذي دعا الفئةَ الصهيونيّةَ القليلةَ العدد إلى ركوب هذا المركب الذي لم يكن يهودُ الشتات في حاجة إليه، ولا يَحْمل لهم سوى الآلام والصراعات والحروب.

أ ـ اليهوديّة والصهيونيّة. ولا شكّ أنّ أول تساؤل يَخْطر على البال في هذا السياق هو عن دور الدين اليهوديّ في تيسير هذه المهمّة. وحسبنا أن نقول إنّ رجال الدين اليهوديّ (باستثناء قلّة نادرة) قد أنْكروا الحركةَ الصهيونيّةَ إنكارًا حاسمًا يوم ظهرتْ على يد هرتزل عام ١٨٩٦ ـ ١٨٩٧؛ واعتبروا الدعوةَ إلى عودة اليهود إلى أرض الميعاد، بإرادة بشريّة لا إلهيّة، كفرًا وهرطقة؛ ورأوا في الصهيونيّة ثورةً ضدّ الإله ونفيًا لليهوديّة واستعجالاً «مسيحانيّاً» أو مشيحانيّاً قبل أن تَظْهر الإشاراتُ الإلهيّةُ الدّالةُ على ذلك.[5] ومن هنا الموقفُ السلبيُّ الحاسمُ الذي واجه به اليهودُ وحاخاماتُهم في ألمانيا رغبةَ هرتزل في أن يَعْقد المؤتمرَ الصهيونيَّ الأولَ في مدينة ميونيخ الألمانيّة، فاضطُرّ إلى عقده في مدينة بازل في سويسرا.

يضاف إلى هذا كلِّه أنّ الصهيونيّة كانت حركةً علمانيّةً لا تتّخذ من الدين اليهوديّ

١ ـ ٢ ـ ٣ ـ كيث وايتلام، **تلفيق إسرائيل التوراتيّة: طمس التاريخ الفلسطينيّ**، ترجمة ممدوح عدوان (دمشق: دار قدمس)، ص ١٧، ٣٠٠، ٣٠٣.

٤ ـ تُراجع كتابات توماس طومسون الذي طُرد من الجامعة الأميركيّة التي يَعْمل فيها بسبب كتابه **التاريخ المبكّر للشعب الإسرائيليّ**.

٥ ـ من أجل مزيد من التفصيل، انظر كتابنا: **إسرائيل وهويّتها الممزّقة** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ١٩٩٦).

مقوِّمًا لها ومنطلقًا، وأنَّ زعماءها البارزين ـ من أمثال هرتزل وجابوتنسكي ووايزمان وبن غوريون ـ كانوا مُلْحدين ولم يُخْفوا إلحادَهم. فممّا نقرأه في مذكرات هرتزل: «لقد قلتُ للحاخام الأكبر في لندن، كما قلتُ للحاخام الأكبر في باريس، إنّي لا أَخْضع في مشروعي الصهيونيّ لأيّ دافع دينيّ.»(١) وممّا يقوله في مكان آخر من تلك المذكّرات: «لقد سألني آشر مايرز: ما هي علاقتك بالتوراة؟ فأجبته: إنّني مفكّر حرّ.» على أنّه ناقَضَ نفسَه بعد ذلك وتبنّى مواقفَ مزدوجةً وملتبسةً، لأسباب عمليّة. هكذا نجده في خطابه الذي افتتح به المؤتمرَ الصهيونيَّ الأوّل في بازل عام ١٨٩٧ يقول بصريح العبارة: «إنَّ الصهيونيّة تعني العودةَ إلى الديانة اليهوديّة حتى قبل العودة إلى أرض اليهود.» ومثله وأكثر منه فعله بن غوريون، مؤسِّسُ دولة إسرائيل. والقول الفصل في هذا هو أنَّ الدين أصبح على يد الحركة الصهيونيّة مجرَّدَ أداةٍ للحركة القوميّة، تتلاعب بها وفقًا للظروف والأحداث. ولا شكّ أنَّ هذه اللُّغة المزدوجة قد ساعدتْ تدريجيًّا على تكاثر أعداد المؤيِّدين للصهيونيّة لدى المتديِّنين من اليهود.

غير أنَّ علينا أن نضيف إلى هذا العامل الذي ساعد على المزج بين الصهيونيّة والديانة اليهوديّة عاملاً آخر، وهو ظهور محاولات فكريّة حاولتْ أن تفلسف الصلةَ بينهما. وحسبُنا الإشارةُ إلى المحاولة التي قام بها أبراهام إسحق كُوك (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥). ونحن إذ نتوقّف قليلاً عند أفكار هذا الحاخام اليهوديّ الشهير فإنّما نفعل ذلك لهدفيْن متكامليْن: الأوّل أن نبيِّن كيف أدّت أفكارُه وأفكارُ أمثاله من رجال الدين إلى تخفيف العداء الذي نَشَبَ في البداية بين دعاة الصهيونيّة وممثلي المذاهب اليهوديّة الكبرى؛ والثاني أن نبيِّن التزييفَ الذي مارسته الصهيونيّةُ على اليهود أنفسهم.

ب ـ كُوك وتزييف العلاقة بين الصهيونيّة واليهوديّة. لقد قام كوك، الذي أصبح أولَ حاخامٍ أشكنازيّ في فلسطين، بتقديم تفسيرٍ جديد جذريّ وشامل للتاريخ اليهوديّ من أجل تحويل الأمل المسيحانيّ السلبيّ إلى أداة فعّالة لتحقيق التعاون بين هذه النزعة الدينيّة من جهة، والحركة السياسيّة المناضلة والعلمانيّة التي تمثّلها الصهيونيّةُ من جهة ثانية. وكان منطلقه في ذلك هو التوحيدُ بين الديانة اليهوديّة وأرض إسرائيل، وتأكيدُه أنَّ أرض إسرائيل جزء جوهريّ من كيان اليهود القوميّ ومن رسالتهم الروحيّة إلى العالم. على أنَّ أهمّ ما جاء به هو هجمته الحاسمة على حَمَلة التقاليد الدينيّة اليهوديّة الذين استمرأوا الحياةَ في المنفى؛ ذلك أنَّ شعبَ إسرائيل والتوراةَ وأرضَ إسرائيل كلٌّ لا يتجزّأ، فيما يرى، وقَطْعُ الصلّة بين اليهوديّة وإسرائيل يعني قطعَ جذور اليهوديّة. بل إنّه يَعْجب ممن يتّهمون ويَحْتقرون اليهودَ الذين يُضحُّون بحياتهم من أجل العيش في فلسطين لا لشيء إلاّ لأنّهم لا يمارسون الطقوسَ الدينيّة.

وهنا يلجأ كوك إلى حيلة من الحيل الدينيّة التي يعجّ بها تاريخُ اليهوديّة، وقوامُها قولُه إنَّ الدافع الحقيقيّ لأفعال الإنسان قد يَخْفى عن فاعلها. وهذا الأمر ينطبق في نظره على الروّاد الأوائل للصهيونيّة: فقد يظنُّون أنّهم مدفوعون بدوافع سياسيّة علمانيّة، في حين أنّهم في حقيقة الأمر يَعْملون من خلال الإطار الكونيّ للإرادة الإلهيّة لكون أعمالهم جزءًا من حركة الخلاص الإلهيّ. وعنده أنَّ هؤلاء الأشخاص يُمْكن أن يُسْهموا في ظهور المسيح، حتى ولو لم يكونوا يؤمنون به.

وهكذا يَمْضي كوك في هذا التزييف، على الرُّغم من أنّه يَرْبط بينه وبين بعض أفكار هيجل حول «حِيَل العقل،» كي يَخْلص إلى أنَّ معارضةَ القوميّة الصهيونيّة والحطَّ من قيمها أمران غير جائزيْن لأنَّ روح الله وروحَ إسرائيل (يعني القوميّة الصهيونيّة) شيء واحد. وجملة القول عنده أنَّ

١ ـ الجزء الأول من الطبعة الإنكليزيّة، ص ٢٧٠.




أصبح الدين على يد الصهيونيّة وممثّليها - أمثال هرتزل وجابوتنسكي - مجرّد أداة للحركة القوميّة

الصهيونيّة العلمانيّة اللادينيّة هي جزءٌ لا يتجزّأ من الديانة اليهوديّة (وإنْ جهلتْ ذلك)؛ كما أنّ أرض إسرائيل تعبّر عن المعنى الكونيّ المركزيّ للوجود اليهوديّ؛ وأنّ الخلاص اليهوديّ جزء من عمليّة عالميّة شاملة؛ وأنّ العالم كلّه يعاني ما يعاني من الفوضى لأنّ الشعب اليهوديّ لا يَشْغل المكانَ الذي منحته إيّاه البنْيةُ الغائيّةُ للكون.

ج - الصهيونيّة المفتعلة. أشدُّ ما يَفْضح ما في الصهيونيّة من افتعال أنّ الدعوة إليها جاءت في غير أوانها، أيْ بعد أن زالت المبرّراتُ المتّصلةُ بالمشاعر اللاساميّة ضدّ اليهود في أوروبا وسواها. ومن هنا حقُّ للكثير من الباحثين - ومنهم يهود - أن يقولوا إنّ الصهيونيّة بُنيتْ من خلال مفارقة عجيبة: فالحركة الصهيونيّة التي تَهْدف إلى عودة اليهود إلى فلسطين لم تَظْهر قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وكانت أوروبا قبل ذلك قد شهدتْ بعد الثورة الفرنسيّة بشكل خاصّ (عام ١٧٨٩) حركةَ تحرُّرٍ أدّت إلى معاملة اليهود فيها على قدم المساواة مع سائر المواطنين. وإذا نحن قارنّا بوجهٍ خاصّ بدايةَ القرن التاسع عشر مع بداية القرن العشرين وجدنا أنّ حياة اليهود لم تَشْهد من قَبْلُ مثلَ ما شهدتْه هذه الفترةُ من انطلاقة إيجابيّة في ميدان الاقتصاد أو السياسة أو الفكر. ومنذ ذلك الحين أصبح اليهود يسكنون المدنَ والعواصمَ الكبرى في أوروبا، بل أصبحوا إلى حدٍّ كبيرٍ سادتَها وأصحابَ الحظوة فيها. ومن هنا يسأل المرء: ما الذي دفع إلى ولادة الصهيونيّة في هذه الفترة بالذات؟

لا شكَّ أنّ تحليل هذه المفارقة يحتاج إلى صفحات. وأهمُّ ما في هذا التحليل هو أنّ اليهود أنفسَهم، وقد فُتحتْ لهم أبوابُ الاندماج الكامل بالقوميّات الوطنيّة التي كانت سائدةً في أوروبا، ظلّوا يشعرون أنّهم لا ينتمون إليها حقّاً، وأنّ عليهم أن تكون لهم قوميّتُهم الخاصّة. وهكذا نستطيع أن نقول إنّ حركة التحرير والتنوير في أوروبا ولّدتْ لدى اليهود في تلك الفترة البذورَ الأولى لوعيٍ جديدٍ لا يصحّ أن نعتبره دينيّاً، وإنّما هو وعيٌ مقابلٌ لصعود القوميّات الحديثة العلمانيّة في أوروبا. من هنا نستخلص أنّ الصهيونيّة تمثّل ظاهرةً أعقبتْ حركةَ التحرير في أوروبا، وأنّها - حين أكّدتْ على الصلة التاريخيّة بينها وبين بلد الأجداد في إسرائيل - حوّلتْ مشاعرَ اليهود التي ظلّتْ نائمةً طوال قرون إلى طاقة محرّكة، وجعلتْ من القوميّة اليهوديّة انعكاساً للأفكار التي ولّدتها الثورةُ الفرنسيّةُ والحداثةُ والنزعةُ القوميّة.

ويعنينا من هذا كلّه أن ندرك كيف كانت الصهيونيّة حركةً مفتعلةً تسير في عكس اتّجاه التطوُّر الذي حدث في العصر - ولاسيّما بعد الثورة الفرنسيّة، وبوجه خاصّ بعد نابليون وقوانينه الجديدة التي مَنَحَ فيها اليهودَ امتيازاتٍ خاصّة. وهو تطوُّرٌ فَتَحَ البابَ واسعًا أمام اليهود للحياة حياةً كريمةً في المجتمعات الغربيّة التي كانوا فيها. وهذا شاهد آخر على ما في الصهيونيّة من عنصريّة تجعلها عاجزةً عن التعايش مع سواها، بل تجعلها تَبْحث عن السيطرة على سواها وعلى العالم.

ولا حاجة إلى القول إنّ ما آل إليه وضعُ اليهود بعد خلق دولة إسرائيل يبيِّن أنّ الصهيونيّة - نتيجةً لحلمها هذا - جعلت الشعبَ اليهوديَّ اليوم في مأزق، سواء في داخل إسرائيل أو خارجها، وأنّ حلمها لم يتحقّق ولن يتحقّق، وحلّت محلّه الكوابيسُ المنغّصةُ لحياة اليهود أنّى كانوا.

٣ - القوميّة الصهيونيّة قوميّة عنصريّة إثنيّة متعالية. وهذا ما نجده واضحًا في الأدب الصهيونيّ منذ تباشيره الأولى. وقد رافق هذا الشعورُ الحركةَ الصهيونيّةَ في شتّى مراحلها ومايزال دائمًا حتى اليوم. وحسبُنا أن نشير إلى أفكار زعيمَيْن صهيونيَّيْن شهيرَيْن: أوّلهما هو جابوتنسكي وثانيهم أوري تزيفي غرينبرغ (١٨٩٧ - ١٩٨١)، الذي أقام في فلسطين منذ عام ١٩٢٤، وأسْهم في صحيفة **دافار** التي تمثّل اتّحادَ الهستدروت العمّاليّ.

أمّا جابوتنسكي، رأسُ الفريق الصهيونيّ اليمينيّ المتطرّف وأكبرُ الدعاة إلى اللُّجوء إلى القـــوّة من أجل توليــــد الكيــــان الصهيونيّ، فقد وضع نظريّةً متكاملةً حول دور العِرْق في تاريخ الإنسانيّة. وصَدَرَ له أولُ تحليلٍ مــفـصّلٍ في هذا المجــال في مـقـال كـتـبـه عـام ١٩١٣، عنوانُه «حـول العِرْق.» وفيه يقول إنّه ليس من المهمّ أن يوجد عِرْقٌ صافٍ أو ألا يوجد، والأهمّ هو الفرق القائم بين مختلف الجماعات الإثنيّة التي يميّزها نَسَبُها العرقيُّ. وبهذا المعنى وحده يغدو مفهومُ الأمّة ومفهومُ العِرْق مـتكامليْن. وهكذا يريد جابوتنسكي في مـقـالـه هذا أن يضع مكانَ الحـتـمـيّـة الماركـسـيّـة حـتـمـيّـةً يـحـدّدها العِـرْق. ويستخلص من ذلك أنّ جوهرَ الأمّة ومقوّمَ وحدتها يَكْمنان في الصـفـات الجسديّة المميِّزة لها، وفي العناصر المقوّمة لتكوينها العِرْقيّ. وهذا يؤدِّي به الى القول بتـفـوُّق الأمّة اليهوديّة على سواها من الأمم.

أمّا الشـاعر الروسيّ غرينبرغ فقد كان يَنْظم القصائدَ الملتهبة ضدّ الآخر، كاتّهام المسيحيِّين بمعاداة السّاميّة، واتّهام العرب بتـعطُّشـهـم للحـقـد، ولاتّـهـام اليـسـار الصـهـيـونيّ نفسِه بالاضطراب الخلقيّ، والنساءِ بالغرور. أمّا جوهر الانتساب إلى اليـهـود عنده فـتـحـدِّده صـفـتـان: الدم والأرض. والوحـدة البـيـولوجـيّـة الكاملة والثابتة لدى الشعب اليـهوديّ تقيم بينه وبين الشـعـوب غـيـر اليـهـوديّة اخـتـلافًا وفارقًا مطلقًا. ومن هنا فـالحـوار مع غـيـر اليهود هو قعقعة السلاح، وعن طريق الدم ـ كما يقول ـ سوف يكون البعث. واليهود سـوف يـحـقِّـقـون وجـودهـم في أرض إسرائيل باللجـوء إلى حـرب لا تبـقي ولا تَذَر ضـدّ أولئك الذين يقـفـون في وجـه تحـقيق مشروعهم. ويبكي شاعرُنا بكاءً مرّاً على ما أصاب القدسَ، مدينةَ داوود التي هـجـرها الأنبيـاءُ، والتي مـلأها أبناءُ العمومة العربُ بنهيق الحمير، ودنّسوها بروثْ الأغنام والبشر. ويدعـو في خـاتمة المطاف إلى تحرير إسرائيل بحدّ السيف، وإلى بناء ملكوت إسـرائيل بالقـوّة، وإلى إقامة دكتاتوريّة إيديولوجيّة مهمّتُها تحقيقُ الرؤية المسيحانيّة لملكوت إسرائيل.

٤ ـ القـومـيّـة الصـهـيـونـيّـة قـومـيّـة عدوانـيّـة. ولسنا في حاجة إلى البراهين: فنحن نعيش مأساةَ هذا العنف الإسرائيليّ اليوم، كما عشناه منذ نشأة الصهيونيّة. ونمضـي توّاً إلى أفكار جـــابوتنسكي (١٨٨٠ ــ ١٩٤٠) الذي كـان له ومـايـزال الدورُ الأولُ في مجرى الحياة السياسيّة قبل ولادة إسـرائيل وبعدها، وقبل طرح مـشـروع السـلام مع العـرب وبعده. وقد هزئ منذ البداية بمبادئ الحرية والعدالة، بل تهكّمَ على مـا ورد في بعض المواضع في التـوراة نفسـهـا من دعـوةٍ إلى عـدم اضطهاد الآخرين. ومن أقواله في معـاداة الإنسـان والإنسـانيّـة: «لا تأمنَنّ لأحد، وكنْ دوماً فطنًا حذرًا وسيِّئَ الظنّ. واحملْ دومًا عصاك معك. وبذلك فقط تستطيع أن تعيش في قلب هذه الحرب التي لا هوادة فيـهـا، حربِ الإنسان للإنسان أنَّى كان.»

وليس المجال مـجـال الحـديث عن دوره العمليّ في الحـركـة الصـهـيـونيّـة، وفي تكوين حزبه المتطرّف، وفي تكوينه للفرقة اليــهــوديّة في فلسطين أيّامَ الانـتـداب البـريطانيّ، ثم لحـركة إرغون الإرهابيّة. وإنّـمــا نمضـي إلى أفكاره العــدوانيّـــة المؤمنة بالقوّة، التي نكاد نجدها مجتمعةً في مقاليْن هاميْن له نشرهما عام ١٩٢٣ وعنوانُ أوّلـهـمـا: «الجـدار الحـديديّ والعـرب.» في هذا المقال ينتهي به تحليلُه لموقف العـرب إلى إصـدار حكم قـاطع يقـول فـيـه: «الاتفـاق الطوعيّ بيننا وبين عرب فلسطين أمرٌ لا يمكن أن نتصـوّره اليومَ أو في المستقبل المنظور.» فكما بيّن معظمُ الصـهـيونيّين، ليس هنالك ولو حظٌّ يـسـيـرٌ للحـصـول على مـوافـقـة العـرب الفلسطينيِّين على قلب فلسطين إلى دولةٍ أكـثـريّـتُـهـا من اليـهـود. وبعد أن يَشْـرح المنطقَ الذي يدفع العـرب الفلسطينيِّين إلى كـراهية الصـهـيونيّة، يحـدّد الموقفَ السـيــاسيّ الذي يَفْـرضـه هذا المنطق، وخلاصتُه أنّه ليس ثمّة إلاّ أحدُ أمرين: أن نوقف حـركـةَ الاسـتـيـطان، أو أن نسـتـمـرّ فـيـهـا دون أن نأبه لمزاج أهل

• عبد الله عبد الدائم •

البلاد. وليس أمامنا إذن إلاّ أن نتابع حركة الاستيطان عن طريق القوّة، وأن نقيم بيننا وبين أهل البلاد «جدارًا حديديًا» لا يستطيعون أن يهدموه. وعندما انتقد بعضُ مَنْ يسمّون المعتدلين من الصهاينة موقفه هذا لأسباب إنسانيّة وأخلاقيّة، كتب مقالاً آخر عنوانُه «الأخلاق والجدار الحديدي،» وخلاصتُه أنّ ثمّة أمريْن ممكنيْن: أحدهما أن تكون الصهيونيّةُ ظاهرةً إيجابيّةً، والثاني أن تكون ظاهرةً سلبيّةً. والجواب على هذا السؤال كان يَنْبغي أن يتمّ **قبل** ولادة الصهيونيّة. أما وقد وُلدت الصهيونيّة وأقرّ دعاتُها كلُّهم بأنّها ظاهرة إيجابيّة وحركةٌ خلقيّةٌ وإنسانيّة، فلم يعد ثمّة مجال لطرح هذا السؤال، بل علينا الآن أن نقول: «ما دامت القضيّة عادلة، فلا بدّ أن تَنْتصر العدالة، سواء وافق الآخرون على ذلك أو لم يوافقوا. فالحقيقة المقدّسة التي يَسْتلزم تحقيقُها استخدامَ القوّة تظلّ حقيقة مقدّسة.»

أصبح «الجدارُ الحديديُّ» توراةَ الحركة الصهيونيّة التي سُميتْ باسم «الصهيونيّة التصحيحيّة،» وتوراةَ متطرّفي الصهاينة من اليمين وسواه، وعلى رأسهم اليوم شارون. وقد حاول جابوتنسكي أمام الرأي العالميّ، كما يحاول شارون اليوم، أن يزيّف الحقائقَ وأن يقول إنّ الجدار الحديديّ ليس غايةً في حدّ ذاته بل وسيلة لكسر مقاومة العرب لمسيرة الحركة الصهيونيّة، وإنّه عندما تتحطّم هذه المقاومة فمن الممكن أن تأتي قيادة فلسطينيّة معتدلة، وعند ذلك فقط يمكن أن تبدأ المفاوضات الجادة مع الفلسطينيّين ــ وهي مفاوضات يقدّم الإسرائيليُّون خلالها للفلسطينيّين حقوقًا مدنيّةً وقوميّةً. ولم يحدّد جابوتنسكي في هذا المقال ما يَقْصده بعبارة «الحقوق الفلسطينيّة،» ولكنّه بيّن في كتابات أخرى أنّه يقصد بذلك مَنْحَ الفلسطينيّين بعضَ الاستقلال السياسيّ داخل دولة يهوديّة.

ومن الجدير بالذكر أنّ ناتانياهو قد تأثّر بمقالة جابوتنسكي وجداره الحديديّ تأثُّرًا كبيرًا. وكتابه **مكان تحت الشمس** فيه أوجهُ شبهٍ كثيرة مع أفكار ذلك الزعيم ــ الذي هو من أتباعه بل من أقربائه ــ لاسيّما فيما يتّصل بالموقف من العرب. وهكذا نجد في كتاب ناتانياهو هذا «تأكيدًا على أنّ فرص السلام مع العرب تشتدّ وتقوى كلّما بدت إسرائيلُ أقوى.» كما نقرأ فيه أنّ «السلام الحقّ والباقي هو السلام المبنيّ على الردع الإسرائيليّ.»[1]

III ـ خاتمة

استطاعت القوميّة الصهيونيّة أن تحقّق بعضَ أهدافها، على الرُّغم من هذه العلل والعورات جميعها، بل بفضل هذه العلل والعورات. فلقد لجأتْ ومازال إلى تزييف الحقائق أمام العالم، ولم توفّرْ أيّ أسلوب من أساليب الكذب والضغط والعدوان من أجل إنفاذ مآربها. وقد يَسّرَ لها مهمّتَها هذه إدراكُها الواضحُ منذ البداية أنّ كسب تأييد الدول الكبرى بشتى الوسائل هو السبيل الجَدّد لبلوغ ما تريد، ولو بدا ما تريده أمرًا معجزًا في البداية. ومع ذلك هيهات أن تكون قادرةً على الوصول إلى نهاية الدرب. وممّا يجعلنا نستبشر ببداية نهاية الصهيونيّة حقيقتان: **أولاهما** أنّ ما تمّ من لجوء الصهيونيّة إلى الكذب والخداع والترغيب والترهيب بدأ يتكشّف جليّـًا أمام الرأي العامّ العالميّ، وسوف يتبدّى أوضحَ فأوضحَ بسبب وسائل الإعلام والاتّصال الحديثة بوجه خاص. ولا أدلّ على ذلك من أنّ كثيرًا من يهود العالم ــ ولاسيّما في الشتات ــ أخذوا ينفضّون عن الصهيونيّة وآفاتها ومجانبتها للمبادئ الخلقيّة والإنسانيّة. فعلى سبيل المثال نشر جاك أتالي، الكاتبُ الفرنسيُّ اليهوديُّ الشهير والمستشارُ السابق للرئيس ميتران، على

[1] ـ بنيامين نتانياهو، **مكان تحت الشمس**، ترجمة محمد عودة الدويري (عمان: دار الجيل للنشر، ١٩٩٥).

أثر أحداث القدس بعد زيارة شارون، مقالاً أثار ضجّة كبرى عنوانُه: «إلى أين تمضي إسرائيل؟» وممّا جاء في مطلعه: «لم تكن إسرائيل معزولةً كما هي اليوم. ولم تكن يومًا مهدَّدةً بالزوال كما هي اليوم.» وفيه يقول: «وفي الجملة، إنّ إسرائيل مهدَّدةٌ بالزوال عن طريق الحرب، ومهدَّدةٌ بالزوال عن طريق السِّلْم، أو عن طريق هجرة النخبة منها خوفاً من الحرب والسلم.»[1]

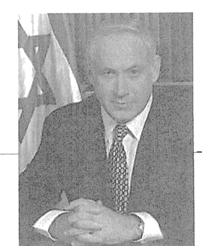
أمّا الحقيقة **الثانية** التي تبشِّر بنهاية الصهيونيّة فواضحة في بنية المجتمع الإسرائيليّ المتداعية الى حدٍّ كبير. فالصراعات في إسرائيل قائمة على قدم وساق بين العرب والإسرائيليّين، وبين المتديِّنين والعلمانيِّين، وبين الإشكنازيم والسوفارديم، وبين الصبرا وغيرهم، وبين الفلاشا وسواهم، وبين اليهود الروس ومَنْ عداهم، وبين الأحزاب الدينيّة المتنافرة، وسوى ذلك كثير. وقد كشَفَت انتخاباتُ الكنيست الخامسة عشرة في ١٧ أيار ١٩٩٩ بوجه خاص عن تفتُّت المجتمع الإسرائيليّ، الذي بدا خلال تلك الانتخابات مجموعةً من القبائل تبحث كلُّ قبيلة منها عن مصالحها الخاصة غيرَ آبهةٍ بسواها. وقد بدا هذا التشتُّت واضحًا حين حاول باراك جاهدًا أن يؤلِّف وزارتَه، ولم يصلْ إلى ذلك إلاَّ بشقّ الأنفس، ومن خلال صيغة تشلّ الحياةَ السياسيّة. وهذا التشتُّت الذي وصلتْ إليه هويّةُ إسرائيل، وهذا الدركُ الذي انحدرتْ إليه اللُّعبةُ البرلمانيّةُ فيها، لا يمكن أن يُفسَّرا إلاّ بكونهما نتيجةً من نتائج فشل الإيديولوجيا الصهيونيّة بعد أربعة أجيال وستّ حروب مع العرب، ويعبِّران عن عجز اللُّغة العبريّة وأساطيرِ التوراة والخروج والسبي والاضطهادِ المسيحيّ الأوروبيّ والغيتو والمحرقة. ويَشْهد على هذا العجز بوضوح سقوطُ باراك نفسه، ونتائجُ الانتخاباتِ الأخيرة التي كشفتْ عن ذعر سكّان إسرائيل أمام زخم الانتفاضة الفلسطينيّة - وهو ذعرٌ حملهم على أن يعودوا إلى أقسى أشكال سياسة العنف، على الرُّغم ممّا جرّته عليهم من ويلات.

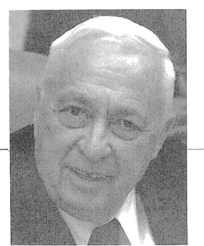
وإلى جانب التمزُّق الإسرائيليّ الذي يعبّر عن فشل المشروع الصهيونيّ، ثمّة بعضُ الظواهر الفكريّة الجديدة التي تدلّ على أنّ الفكرة الصهيونيّة تواجه اليوم مواقفَ جديدةً تدعو إلى إعادة النظر فيها بل إلى النكوص عنها. وهذا ما نجده لدى أصحاب التيّار الذي يُعرف بتيّار «ما بعد الصهيونيّة،» والذي يرى ناتانياهو أنّه أشدّ خطرًا على إسرائيل من إسرائيل نفسها. وهذا ما نجده على نحو أوضح لدى «المؤرِّخين اليهود الجدد» من أمثال إيلان پابي وبني موريس وسِمْحا فلاپان وآڤي شلايم. وقد ذاع صيتُ هؤلاء المؤرِّخين منذ منتصف الثمانينيّات، بعد أن اطّلعوا على وثائق وزارة الخارجيّة ووزارة الدفاع في إسرائيل، التي تمّ الكشفُ عنها بعد ثلاثين عامًا من ولادة دولة إسرائيل. ولقد بيّن هؤلاء المؤرِّخون بوجه خاص أنّ الفلسطينيِّين لم يَهْجروا فلسطين طوعًا عام ١٩٤٨، كما تقول المصادرُ الإسرائيليّةُ الرسميّةُ، بل طُردوا منها أبشعَ طردة، وتعرَّضوا أثناء ذلك لمذابح مذهلة مقصودة (في دير ياسين وسواها) من أجل إكراههم على ترك ديارهم. وقد لقيتْ أفكارُ المؤرِّخين الجدد صدى واسعًا في إسرائيل، كما لقيتْ تجاوبًا كبيرًا في الأوساط العالميّة. وليس المجال مجال الحديث عن هؤلاء المؤرِّخين، وجلُّ قصدنا أن نشير إلى أنّ صورة إسرائيل الصهيونيّة بدأتْ تهتزّ أمام أعين أبنائها وأمام أعين العالم، وأنّها مُقْبلة لا محالة - بحكم بنيتها الزائفة المصطنعة - على مشكلات داخليّة وخارجيّة جمّة تضع الصهيونيّةَ نفسَها ومنطلقاتِها موضعَ التساؤل.

ويلخِّص محمد حسنين هيكل أزمةَ إسرائيل اليوم وبالأمس ووصولها إلى طريق مسدود بسبب الصهيونيّة، فيقول:

---

١ - مجلة **الاكسپرس**، عدد ١٢ - ١٨ أكتوبر ٢٠٠٠.





تكشف مفاوضات السلام كلّما تقدّم الزمن عن عودة مطرّدة إلى منطلقات اليمين الصهيونيّ كما يمثّلها نتانياهو وشارون

«أزمةُ المشروع اليهوديّ أنّه حاول اختراعَ ذاكرةٍ من الأوهام يؤسِّس عليها مشروعَ دولة أو مشروعَ إمبراطوريّةٍ مستحيلةِ التحقيق وإنْ كانت باهظةَ التكاليف بسبب المحاولة.»(١)

ولكنْ حذار أن تَدْفعنا هذه الصورةُ المهتزّةُ للكيان الإسرائيليّ إلى الاطمئنان إلى المستقبل. فجلُّ هدفنا من وراء الإشارة إلى بعض معالم العجز الإسرائيليّ والقصور الصهيونيّ أن نبيِّن أنّ أمام العرب فرصةً نادرةً لتضييق الخناق على إسرائيل وفضح أهدافها الصهيونيّة التليدة والجديدة. وما ينبغي أن نعيَه هو أنّ إسرائيل تستطيع أن تبقى مهما تكاثرتْ أزماتُها الداخليّة، وأنّ ثمّة بلدانًا كثيرة في العالم استمرّت في البقاء على الرُّغم من مشكلاتها الداخليّة العميقة مادامت لم تتعرَّض لخطر خارجيّ. ولا ييسِّر انفجارَ إسرائيل من داخلها إلاّ توافرُ قوّةٍ خارجيّةٍ معادية. ولا شكّ أنّ تصميم الأمّة العربيّة، ومعها الأمّة الإسلاميّة، على تطويق إسرائيل والتضييقِ عليها ومنعِها من أن تَخْرج من زنزانتها إلى رحاب الوطن العربيّ الفسيح يأتي على رأس العوامل التي تعجّل في تداعيها وانهيارها. بل إنّ جيش إسرائيل الذي هو درعُها ورمزُ بقائها لن يستطيع أن يقوم بمهمّته في حماية إسرائيل من جيرانها، وسوف يَفْقد بريقه وشأنه يومًا بعد يوم في أعين الإسرائيليّين أنفسهم، لاسيّما عندما يَنْقلب إلى جيش حقير يرابط في المدن العربيّة المحتلّة، ويَسْهر على منع التجوُّل في مناطق السلطة وفي المستوطنات، ويلاحق أطفالَ الحجارة، ويَقْتل الأبرياءَ من الكبار والصغار والأطفال الرضّع. وها نحن نرى الكثير من الجنود الإسرائيليّين يَرْفضون الالتحاقَ بوحداتهم العسكريّة أثناء الانتفاضة الأخيرة، كما رفض أترابٌ عديدون لهم من قَبْلُ الخدمةَ في صفوف الجيش الإسرائيليّ أيامَ معركة لبنان.

وجملة القول إنّ إسرائيل، التي تملك القوّةَ العسكريّةَ وسواها، لا تَمْلك القوّةَ المعنويّةَ والبواعثَ الإيديولوجيّة التي تشدّ أزْرَ تلك القوّة. وما دامت حربُها مع الفلسطينيّين والعرب حربَ المغتصِب المعتدي، فلن تستطيع أن تفلّ العزيمةَ العربيّةَ، وسوف يظلّ جيشُها المدجّج بأحدث الأسلحة مضطربًا قلقًا. والأمّةُ العربيّة، وإلى جانبها الأمّةُ الإسلاميّةُ، تَمْلك الإمكانات البشريّةَ والماديّةَ والجغرافيّةَ الهائلة. وإذا هي استطاعت أن تَجْمع أمرها، وأن تَعْزم على أن تمارسَ بشتى الوسائل حقَّها في استرداد ما اغتُصِبَ منها، فسوف تكون المنتصرةَ لا محالة، طال الزمنُ أو قصر.

وبعد، فإنّ نظام الأپارتايد العنصريّ لن يدوم طويلاً، إلاّ إذا وافق العربُ على بقائه على حساب وجودهم ووحدتهم القوميّة ومستقبلهم. ومن هنا يَنْبغي أن يكون مفتاحَ الموقف العربيّ اليوم تركُ الباب مفتوحًا وعدمُ إغلاق «الملفّ» مهما تكن التسوياتُ الموقّتة. فالأيام حبلى بالأحداث، وإرادةُ الشعوب لا بدّ أن تَنْتصر في عالمنا على الرُّغم ممّا يتخبّط فيه اليومَ من بحران وفوضى وابتعاد عن القيم الخلقيّة والإنسانيّة.

ومعركة العرب ضدّ الصهيونيّة لها، بالإضافة الى أهدافها القوميّة، أهدافٌ إنسانيّةٌ وخلقيّةٌ طالما أوقدتْ شعلتَها الحضارةُ العربيّةُ الإسلاميّةُ في شتى مراحل تاريخها. ومن هنا فمقارعةُ الصهيونيّة مقارعةٌ للشرّ في هذا العصر الذي كان يُطْلَقُ عليه اسمُ العصر الصهيونيّ. أوَلَيست مثلُ هذه المهمّة الكبرى جديرةً بأن يعبَّأ لها الوجودُ العربيُّ كلُّه؟ ونَخْتم كلمتنا بقول الشاعر القرويّ: «أمّا السلامُ فإنّنا أعداؤه/حتى يَدينَ بحبِّه أقوانا.» ونذكّر بالبيت الذي تحدَّث فيه عن الاستعمار الفرنسيّ آنذاك: «أتيناهم بإنجيل المسيح / فجاءونا بآياتِ الفتوح!»

باريس

---

١ - جريدة **السفير**، ١ آذار (مارس) ٢٠٠١.

الصومال بين البنتاغون وهوليوود

ومتى يكذبون بصريّاً عن بيروت؟

. كيرستن شايد* .

وضع الأمور في نصابها؟

فيلم **سقوط الصقر الأسود** حلّ مؤخّرًا في بيروت. لم تحظَ الصومالُ بشرف الدخول إلى «محور الشرّ» ولكنّ هناك كلامًا كثيرًا على خطط أميركيّة لقصفها لدواعٍ أخرى. ويبدو أنّ هذا الفيلم، الذي يتحدّث عن التدخُّل الأميركيّ في الصومال، هو الثمرةُ الأولى للقاءٍ مشؤومٍ عُقد في تشرين الثاني من العام الماضي بين ٤٧ مديرًا مهماً في هوليوود من جهة، وكارل بوف وهو المستشار الرفيع للرئيس بوش من جهة ثانية. وجاءت المعونة لإنتاج الفيلم من طرف البنتاغون، الذي انتهز الفرصةَ من أجل «وضع الأمور في نصابها.»[1] ولهذا تستحقّ هذه الأمور أن نتأمّلها ههنا بعضَ الشيء.

كان أحد المخاوف التي واجهتها أميركا استعدادًا لحربها الأخيرة على أفغانستان هو ما يسمّى «أعراضَ الصومال»، التي شلّت القدرةَ الهجوميّةَ لإدارة كلينتون آنذاك. فقد تفشّتْ هذه الأعراضُ كالحمّى في أوساط الشعب الأميركيّ بعد أن قُتل ١٨ جنديّاً من أفراد القوات الأميركيّة الخاصّة في مقديشو، وبُثّتْ في كافّة أنحاء العالم صُوَرُ جنديَّيْن أميركيَّيْن قتيلَيْن «يَسْحلهما» في الشوارع صوماليُّون متهلّلون. وكان أنْ أمَرَ كلينتون بانسحاب القوات الأميركيّة من الصومال فورًا: فقد مُنيتْ بهزيمةٍ مذلّةٍ، بل بهزيمةٍ مؤلمةٍ في وضوحها للعيان.

هنا دَخَلَ على الخطّ المنتجُ الأميركيُّ جيري براكهايمر (منتج **بيرل هاربور**)، والمخرجُ البريطانيّ ريدلي سكوت (مُخرجُ **هنيبعل**). وبحسب الإعلان الذي سبق عرضَ الفيلم، فإنّ الهدف المعلن لـ **سقوط الصقر الأسود** هو إظهارُ أنّ العمليّةَ العسكريّةَ الأميركيّةَ في الصومال «لم تكن أحلكَ لحظات أميركا، بل أبهرَها.»[2] في الدقائق الخمس الأولى من الفيلم، وهو الوقت الوحيد المخصَّص لسرد الأحداث التاريخيّة، ثمّة جثث أفريقيّة رماديّة مبعثرةٌ على امتداد رمال مُقْفرة، وليس مَنْ يَنْدبها إلاّ لحنٌ عربيٌّ صاعدٌ من ناي حزين. وعلى هذه الخلفيّة القاسية تَظْهر على الشاشة مقاطعُ تَشْرح للمشاهدين أنّ المجاعةَ خلّفتْ ثلاثمئة ألف قتيل في الصومال، وأنّ أمراء الحرب الصوماليِّين سَرقوا شحناتِ المعونات الغذائيّة، وأنّ رجالَ البحريّة الأميركيّة قد أُرسلوا إلى هناك ـ منتدَبِين «عن العالم» بأسره ـ لإتاحة الفرصة لعودة هذه المعونات. ولكنّ معونات الغذاء التي قدّمها الأميركيُّون هنا، كتلك التي سيُقدّمونها إلى أفغانستان (وجاءت في رُزَم لا يُمْكن تمييزُها ـ لونًا وحجمًا ـ من القنيْبلات المقذوفة من علٍ)، احتوت الصالحَ والطالحَ معًا. فقد أورد الصحافيّ مارك باوْدِن الذي يَعْمل لحساب جريدة **فيلادلفيا انكوايرر** في تقريره (المؤيِّدِ للتدخُّل) ما يلي:

«لم يكن هدفُ حملة الراينجرز في مقديشو إطعامَ الجائعين. فطوال ستة أسابيع، من آخر آب إلى ٣ تشرين الأول، قامت بستّ عمليّات، مُغيرَةً على أماكن ظُنّ أنّ [محمد فرح] عيديد أو ضبّاطَه فيها... وأدّى هجومٌ واحدٌ... إلى مقتلِ ما يتراوح بين الخمسين والسبعين من مُسنّي العشيرة ومثقّفيها، وكثيرٌ منهم معتدلون يحاولون الوصولَ إلى تسوية سلميّة مع الأمم المتحدة. بعد ذلك الهجوم الصاروخيّ في ١٢ تموز باتت عشيرةُ عيديد في حربٍ رسميّة مع أميركا ـ وهذه حقيقةٌ لم يدركْها أميركيُّون كثيرون قطّ.»[3]

---

* ـ أميركيّة مقيمة في بيروت. تنال بعد شهور قليلة شهادةَ الدكتوراه في الأنثروبولوجيا من جامعة برنستون عن دور الفنّ التشكيليّ في المجتمع اللبنانيّ. وهذا المقال هو تطويرٌ لنسخةٍ صدرتْ في جريدة **النهار** في ٢٠٠٢/٣/١٨.

١ ـ Quoted by Larry Chin, "*Black Hawk Down* - Hollywood Drags Bloody Corpse of Truth Across Movie Screens...," **Online Journal**, January 8, 2002, http//www.onlinejournal.com.

٢ ـ من الإعلان الذي سبق العرض.

٣ ـ Quoted by Chin, ibid.

. كـيـرستن شـايد .

«دعاية سياسيَّة مدفوعة»

غير أنَّ الصحف لم تتحدَّث عن الحرب بين الجنرال عيديد والولايات المتحدة لأنَّ ذلك سيَدفع إلى الحديث عن كيف أنَّه صار قويّاً بفضل الدعم الأميركيّ السابق له. ولئن بدا عيديد في هذا شبيهًا بأسامة بن لادن، فلن يكون مستغربًا أن تفوح رائحةُ النفط من الرواية الأميركيَّة الرسميَّة عن أحداث الصومال مثلما ستفوح من الرواية الأميركيَّة الرسميَّة عن أحداث أفغانستان... علمًا أنَّ الولايات المتحدة حَدَّدتْ قبل أيام من وصول رجال البحريَّة مَوْقعًا لسفارتها في مجمّع شركة كونوكو، وهي إحدى أربع شركات أميركيَّة كان عيديد قد أَبْطل امتيازاتِها المقدَّرة بملايين الدولارات في استخراج النفط الصوماليّ. وكان كولِنْ پاول نفسَه، بصفته آنذاك رئيسًا لهيئة الأركان المشتركة التابعة للبنتاغون، قد وصفَ الغزوَ الأميركيّ بـ «الدعاية السياسيَّة المدفوعة»[1] لصالح البنتاغون، في وقتٍ دَفَعَتْ فيه نهايةُ الحرب الباردة بعضَ الأميركيِّين إلى الضغط على الكونغرس من أجل تقليص الميزانيَّة المخصَّصة للحرب. هنا برز دورٌ جديدٌ / قديمٌ لمؤسّسة البنتاغون الخَربة، هو: «حمايةُ رجال النفط الأميركيِّين ونزعُ سلاح الشعب [الصوماليّ] الجامح.»[2]

هذا وقد وثّق نوم تشومسكي الحصيلةَ النهائيَّةَ للقتلى كالتالي: «كان التقرير الرسميّ [الأميركيّ] هو سقوطَ ما بين ستة آلاف إلى عشرة آلاف صوماليّ في صيف ١٩٩٣ وحده؛ وثُلُثا هذا الرقم من النساء والأطفال.» أمّا الجنرال أنطوني زيني (ويا للمفاجأة!)، وكان قائدَ الحملة آنذاك، فقد أَعْلم الصحافة: «أنا لا أَعدّ الجثث... هذا لا يهمّني!»[3]

والحال أنَّ تصريح زيني الرواقيّ قد انعكس في سيناريو **سقوط الصقر الأسود** في جملة اشتُهرتْ بفضل الإعلان عن الفيلم، وتأتي من أحد الجنود الأميركيِّين الذين حَجَّرت الحربُ قلوبَهم: «حين تمرّ الطلقةُ الأُولى قرب رأسكَ، تطير السياسةُ وكلُّ ذلك الهراءِ من النافذة.» أو كما اكتشف باودِن لاحقًا من مقابلات مع جنودٍ شاركوا في الحرب، فإنَّ معظم الجنود «قالوا إنَّهم خلال أكثر فترات القتال كانوا يُطْلقون النارَ على الناس، بل عمليّاً على أيِّ كان أو أيّ شيء رأوه.»[4]

وكانت عدوانيَّةُ الراينجرز من الانفلات بحيث قال قائدُ الحملة اللواء ويليام ف. غاريسون في شهادةٍ قدَّمها إلى مجلس الشيوخ: «لو زاد رجالي أيَّ قَدْر ولو ضئيلٍ من الذخيرة في المدينة لكنّا أغرقناها.»[5] وهكذا يبدو أنَّ الأخلاق قد خرجتْ هي أيضًا من النافذة، أو أنَّها ـ كما هو واضح من عبارة زيني ـ لم تكن هناك أصلاً. ولكن اختارت هوليوود أن تَنْزع الكلماتِ من فم اللواء لتضعها في فم جنديٍّ شابّ، جاعلةً من إطلاق النار على المدنيِّين دونما اعتبارٍ للتبعات مصادفةً بحتةً لا جزءًا أساسيّاً من السياسة الأميركيَّة.

إعادةُ كتابة ما حدث... بصريّاً

يضع سيناريو الفيلم «الأمورَ في نصابها» من خلال أشكال متوقَّعة أخرى. فالتاريخ يَذْكر أنَّ وحشيّة الصوماليِّين تجاه الجنود الأميركيِّين وتجاه جثثهم جاءت ردّاً على الوحشية التي أنزلها الجنودُ الأميركيُّون بهم من قبل. وفي هذا الصدد أَوْرد ريتشارد داوِنْ في الـ **إندپندنت** بعضَ المشاهد من بدء الحملة الأميركيَّة: «في

١ ـ Quoted by Noam Chomsky, **The New Military Humanism** (Monroe, ME: Common Courage, 1999), p.69.
٢ ـ Alexander Cox, "*Black Hawk Down*: Shoot First, Don't Ask Questions Afterwards," http://www.flora.org.
٣ ـ John Balzar, "Marines Firing as UN Leaves Somalia," in **Boston Globe**, March 4, 1995.
٤ ـ Quoted by Chin, op. cit.
٥ ـ Ibid.

إحـدى الحـوادث أخـذ الجنودُ عـائلةً [صـومـاليّـة] رهينةً. وحين بدأتْ امـرأةٌ بالصراخ على الأميركيِّين أُطلِق عليها النارُ فقُتلتْ. وفي حادثة أخرى ذُكِرَ أنَّ سجينًا صـومـاليّاً قُتل بالرصـاص حين رَفَض أن يكفَّ عن الصلاة في الخارج. وثمّة سجينٌ آخـر قُـتل ضـربًا بالهـراوات، ولـم يُعْـرفِ القـاتل.»[١] غـير أنَّ هذه الحـوادث ليست موجودةً في الفيلم، وما يراه المشاهدون هو عكسُ ذلك تمامًا. بل إنَّ احـتجـاز الجنديّ الأمـيـركيِّ للرهائن الصـومـاليّـة، بهـدف اسـتـخدامـهم دروعًا بشريّةً كـما يبدو،[٢] تَتْـرك المشـاهدين أمـام لحظة من لحظات الصمت والقداسة في الفيلم: فالموسيقى الصاخبة تختفي حين يَعْبر جنديٌّ أميركيٌّ مذعورٌ على رؤوس قدميْه أمام أمٍّ جاثمة مع سرب من الأطفال الجاحظي العيون، ثم يلوِّح طفلٌ للجنديِّ (وللمشـاهدين الذين لا شكَّ أن يتـمـاهَوْا مـعـه). وها قـد تعـزَّزتْ إنسـانيَّتُنا، نحن الأميركيِّين! لاحقًا، قرب نهاية الفيلم، نشاهد امرأةً مدنيّةً تُردى عن كثبٍ برصـاص أمـيركيِّين منسـحـبين من أرض المعـركة، ولكنَّها كانت قد خدعتـهم بالتظاهر بأنَّها تَنْدب زوجَها القتيلَ في حين أنَّهـا كـانت تنحني لتلتـقط سلاحَـه: إذن، موتُها مبرَّر![٣] وأخيرًا، ليس هناك ضربٌ بالهراوات في الفيلم إلاَّ في مشهدٍ واحدٍ، وهو مشـهـد صـومـاليِّين يَضْـربون جنديّاً أميركيّاً جريحًا يتأمَّل صورةَ زوجته وولده. حقّاً: لقد وُضعت الأمورُ في نصابها!

وبهذا، لم يعد التاريخُ الحقيقيُّ أمرًا مهمّاً بالنسـبـة إلى عـدد كـبـيـر من المعلِّقين في الصحافة الأميركيّة السائدة، واقتصر همُّهم على تطوُّر الشخصيّات السينمائيّة. فـقـد اعـتـرفـوا بأنَّ الجنود لا يَعْـدُون أن يكونوا «كليشيهاتٍ من أفلام حربيَّة لجون وين» لم يوضَعْ فيـهم إلاَّ «القليلُ جـدّاً من الشحنة العاطفيّة،» فغدوا «تنميطاتٍ بدائيّةً بدلاً من بشر.»[٤] ولكنْ برغم الاعترافات فإنَّ هذه الكليشيهات نابضةٌ بالحياة إذا قـارنّاها بالصـومـاليِّين في هذا الفـيلم. فـمـقـابل كلِّ سـربٍ من الصـومـاليِّين أميركيّان رائعان: يتوقَّفان بين الطَّلقات ليتأكد واحدُهما من سلامة الآخر، بل يتصـافـحـان قبل أن يَشْـرعا بعـمليّات الإنقاذ. ومقابلَ كل وجهٍ أميركيٍّ تحوَّل لوحةً معبِّرةً بفضل توقُّف الكاميرا طويلاً أمامه، ثمّة مئاتٌ من الصوماليِّين الغوغاء المتجمهرين، لا يُمْكن تمييزُهم - بل يُمْكن إبدالُ واحـدهـم من الآخـر! وفي حين أنَّ في الفـيلم حـوالى أربعين أمـيـركـيّـاً لكلٍّ منهم صـوتٌ مـسـتـقـلّ، فـإنَّ مـعظم الصـومـاليِّين يَنْخـرون أو يطرشـقـون شعاراتٍ فارغةً. إنَّ الصوماليِّين كتلة من «الوحـوش السـمـراء المزمـجـرة» الذين «لا يُبْدون أيَّ عـاطفـة سـوى عـاطفـة الجشع والتـعطُّش إلى الدمـاء.»[٥] وهُم لا منطقَ لديهم؛ فبعد أن أخرستْهم الكاميرا لم يعد في مـقـدورهم أن يَشْـرحـوا سـببَ عـدوانيّـتـهم وبات كلُّ مـا يفـعلونه هو

١ - Richard Dowden, **Independent**, Dec 13, 1998.

٢ - George Monbiot, "Both Savior & Victim," **The Guardian**, January 29, 2002.

٣ - جدير بالذكر أنَّه على رغم أنَّ الفيلم أوضح الصلة بين المحارب الصوماليِّ القتيل والمرأة المذكورة، فإنَّ بعض الكتّاب تجاهلوا عاملَ الثأر الذي دفعها إلى إطلاق النار على الأميركيِّين. وهكذا كتب أندروماننغ أنَّ ردّة فعل الجمهور على المشهد: «نعم. هذا ما تستحقينه حين ترفعين سلاحًا في وجه أميركا، يا كلبة.» Andrew Manning, January 2002, http://www.movies.radiofree.com.

٤ - Quotes from Jeffrey Anderson, "*Black Hawk Down*," **The San Francisco Examiner**, January 18, 2002, http://www.sfexaminer.com; J. Hoberman, "*Black Hawk Down*," **The Village Voice**, Dec. 26, 2001 - January 1, 2002, http://www.villagevoice.com; Andrew Manning, op. cit.

٥ - Elvis Mitchell, "Mission of Mercy Goes Bad," **The New York Times**, Dec. 28, 2001; Monbiot, op. cit.





الجنود الأميركيُّون: بين اللوحات المعبِّرة والمظاهرات المعارضة

الهجوم والهجوم والهجوم.[١] ومن هنا كان ملائمًا أن يُورد الفيلمُ في نهايته لائحةً بأسماء الأميركيِّين القتلى الثمانية عشر، من غير أن يَذْكر سوى جملةٍ واحدة فقط عن الضحايا الصوماليِّين تقول إنّ ألف صوماليّ (لا أسماء لهم) قُتِلوا أيضًا.

بين مئات الجثث التي تُفْتتح الفيلمَ، والقتلى الغُفْلِ الذين يَخْتمونه، هناك مجموعةٌ من العناصر الجماليَّة التي لا يُمْكن أن تأتي في نشرات الأخبار المسائيَّة ــ وهي التنسيق اللونيّ، والتأليفُ التصويريّ، والتوزيعُ الموسيقيّ. **أولاً**، الأميركيُّون في الفيلم بيضٌ كلُّهم (والاستثناءُ الوحيدُ لا يعدو أن يذكّر المشاهدين بأنّ هناك أيضًا بشرةً غيرَ بيضاء في أميركا) في حين أنّ الصوماليِّين سودٌ كالأبنوس. ولهذا يبدو صراعُ الطرفين «أشبهَ بحربٍ بين الأعراق.»[٢] **ثانيًا**، يُشير التقسيمُ الهندسيّ للمدينة الأفريقيّة في هذا الفيلم إلى الفوضى (إذ البيوت المختلطة تتداخل، والسوقُ «مخزنٌ هائلٌ للأسلحة الأوتوماتيكيّة،»)[٣] والأمرُ الوحيد الذي يُتْقنونه هو أن يَسْقطوا أمواتًا. وفي المقابل فإنّ الدقّة الخطّيّة لكلّ حركةٍ أميركيّة (الجنود يتحرّكون مثلَ الآلات حين يتناولون عتادَهم، ومثلَ الساعات حين يُطلقون النار) تَكْشف عن منهجيّة وانضباط مذهلَيْن ــ والنتيجة: أنّ الوجود الصوماليّ لا يتماشى والوجودَ الأميركيّ. **وأخيرًا**، فإنّ التوزيع الموسيقيّ نفسَه يؤكّد التباينَ بين هذَيْن الوجودَيْن. فالصوماليُّون يمشون على إيقاع الطقاطيق العربيّة الهوجاء، المعتمدةِ على الطبل اعتمادًا هائلاً؛ وأمّا الأميركيُّون فتُرافقهم مختلفُ أنواع الموسيقى الأميركيّة من الروك أند رول زمنَ الخمسينيّات إلى الراپ والبيانو الشجيّة. والصمتُ الوحيد الذي يَقْطع الموسيقى التصويريّةَ هو حين يُقتل جنديٌّ أميركيّ: فهذه لحظةُ صمتٍ إلزاميّةٌ للمشاهدين.

عبر هذه التناقضات الجماليّة يصل الفيلمُ إلى عِبْرته المحتومة، وهي أنّ أفضلَ ما يَفْعله المرءُ، في صراع الحضارات الواضح كعين الشمس، حيث كلُّ ما يُحَسُّ ويُلْمَسُ يواجِهُ نقيضَه، هو أن يحميَ نفسَه ويحميَ أصدقاءه. ولكنّ المعلّقين عادةً نَظَروا إلى الجوانب التقنيّة والجماليّة من الفيلم على مبعدةٍ من الجوانب السرديّة، فعَدّوا الأُولى باهرةً والثانيةَ غَيرَ مُقْنِعة ولا مركّزة. وهكذا اعتُبرت المشكلةُ الأصليّةُ في المهمّة الأميركيّة في الصومال مسألةً تتعلّق بنقصٍ في موهبة كاتب السيناريو فقط. غير أنّ هذا تحليلٌ في غيرِ محلّه: ذلك أنّ **سقوط الصقر الأسود** ليس فيلمًا رديئًا من الناحية السينمائيّة، بل هو مشهديّة ممتازة. إنّه، شأن المصارعة في تحليل رولان بارت، يُضخِّم ــ بالمعنى الحَرْفيّ ــ كلَّ عنصرٍ، واضعًا إيّاه إلى جانب الآخر على نحوٍ متناغمٍ بما يَحْفظ زَخْمَه، ويصل في النهاية إلى «الصورة المأثورة عن الواقع بوصفه شيئًا قابلاً للفهم تمامًا.»[٤]

١ ــ إنّ انعدام التمييز بين الصوماليِّين يَدْعم الفكرةَ التي رسّخها الفيلمُ وكثيرٌ من المعلّقين، وهي أنّ «المدينة بكاملها» اصطفّت وراء عيديد وراحت تقاتل الأميركيِّين، لكي تفسّر ضخامة حشود المقاتلين الصوماليِّين المُفزعة. وهكذا تضيع المفارقةُ اللاذعةُ البهيّة الماثلة في أنّ هذه الحشود الهائلة إنّما جاءت من خارج المدينة ومن صفوف عشائر وَجَدتْ جميعُها الفرصةَ سانحةً للثأر للصوماليِّين الذين كان الأميركيُّون قد قتلوهم زمن دعم الولايات المتحدة لعيديد! (انظرْ: Monbiot, op.cit.)

٢ ــ Danny Schecter, "Review of *Black Hawk Down*," **Z Magazine** (Jan. 8, 2002) http://www.zmag.org.

٣ ــ Robin Clifford, "*Black Hawk Down*," at **Reeling Reviews**, http://www.reelingreviews.com.

٤ ــ Roland Barthes, "The World of Wrestling," in **Mythologies**, Trans. Annette Lavers (New York: Hill & Wang, 1972), p.25.

سقوط الصقر الأسود في أميركا

كيف عملتْ أحداثُ ١١ أيلول، والمعونةُ التي قدَّمها البنتاغون، على خلق هذه المشهديّة الفعّالة؟ يؤكّد الممثِّل برَنْدَن سكستون أنّ الأسئلة التي أُثيرتْ في السيناريو الأصليّ، الذي عُرض عليه منذ سنتين، حول آليّات عمل القوات المسلّحة الأميركيّة وأسبابِ تدخُّلها في العالم، شُطِب معظمها في فترةٍ لاحقة،[١] وأُعيد توجيهُ التركيز إلى ما سمّته كاثلين روس، وهي الناطقةُ الرسميّةُ باسم دائرة الشؤون العامّة في الجيش، «رؤيةٍ إلى ما يصادفه الجنودُ في الحرب الحديثة، سواءً في الصومال أو أفغانستان.»[٢] وما يعنيه كلامُها هو أنّه مادام الجنودُ يجسّدون فضائلَ حضارتنا فإنّ ما يَفْعلونه في تلك المواجهة العسكريّة «يَخْرج من نافذة» الاعتبار.

هنا نشير إلى أنّه بعد التعجيل في إطلاق **سقوط الصقر الأسود** في اثر اجتماع البيت الأبيض بهوليوود، قدّمتْ جمعيّةُ «موشن بكتشر» في أميركا لمستشاري البيت الأبيض الرفيعين عرضًا خاصًّا للفيلم، وأتاحتْ لهم أن يُدخلوا تعديلاتٍ عليه! وقد حَضَر وزيرُ الدفاع دونالد رامسفلْد، وأوليفر نورث (وهو العقلُ المدبِّر لفضيحة إيران - كونترا)، من بين آخرين، العرضَ الأوّلَ للفيلم في العاصمة واشنطن دي سي. والحال أنّ الفيلم لا بدّ أن يؤدِّي إلى نتائج واضحة بالنسبة إلى جمهور أميركيّ يَشْهد، عقب أحداث ١١ أيلول، مشاهدَ مثيرةً كهذه، وبكلّ الإتقان التكنولوجيّ الذي يُمْكن البنتاغون أن يقدِّمه. وقد عبّر عن هذه النتائج لاري شن بالقول:

«في المناخ السياسيّ الحاليّ، حيث يُعتبر الغضبُ التستيرونيُّ [الذَّكَريُّ]، وعقليّةُ الغوغاء، وحبُّ الحرب، تصرفاتٍ طبيعيّةً (في حين يُعتبر العقلُ، والتفكيرُ النقديُّ، والتسامحُ، أمورًا خوّانةً)، سيروق هذا الفيلمُ أكثرَ عناصر المجتمع الأميركيّ عنفًا. فقد أوْرد عددٌ كبير ممّن شاهدوا الفيلم أنّهم غادروا القاعةَ وهم يَشْعرون بالغضب، ويتحفّزون لـ 'رَكْل أقفيةِ أناسٍ ما.' وباختصار، فإنّ هذا الفيلم خَطِرٌ. وأولئك الذين 'يحبّونه' خطرون هم أيضًا.»[٣]

ولكيْ لا يظنّ المرءُ أنّ شن كان مبالِغًا في وصفه، تأمّلْ كيف شجّع آندروماننغ قرّاءَه على مشاهدةِ الفيلم. فقد وصف إيجابيّاته بالقول إنّه «وحشيّ: عنفٌ وأكشنٌ متواصلان؛ الوطنيّةُ تتصاعد فيما تَرْكل أميركا الأقفيةَ ببسالة؛ ليس ثمّة أنسنةٌ ناجحةٌ للعدوّ [!]»[٤]

متى يَكْذبون - بصريّاً - عن المارينز في بيروت؟

ولكنْ ماذا عن الجمهور في لبنان أو في أيّ بلد مازال يَلْعق جراحًا خلّفتها نزعةُ التدخُّل الأميركيّة؟ الواقع أنّ هذا الفيلم يصوِّر مشاهدَ وحبكةً قصصيّةً تذكِّر بالتدخُّل الأميركيّ في لبنان، فتجعلُكَ تتساءل: متى سيُنْتَجُ فيلمٌ عن الجنود الأميركيّين حين كانوا في بيروت، وبمثلِ هذا التشويهِ للتاريخ؟

قد يكون أجدى بنا أن نَمْتنع عن الذهاب إلى السينما لرؤية هذا الفيلم، لمجرّدِ أن نَدْفع هوليوود إلى أن تَشْعر أنْ ليس في إمكانها أن تحقّقَ الأرباحَ في دول العالم الثالث من أفلام تَدْعو إلى قتل شعوب هذه الدول. ولكنْ إذا قرّرتم أن تشاهِدوا هذا الفيلم فثمّة أمران قد تجدون أنّهما جديران بالتأمّل.

---

١ - Brendan Sexton, "An Actor Speaks Out: What's Wrong with *Black Hawk Down*," **Counterpunch,** http://www.counterpunch.org.

٢ - Quoted by Elizabeth Snead, "The Special Operation of *Black Hawk Down*," **The Washington Post,** Jan. 13, 2002, p. G01.

٣ - Chin, op. cit.

٤ - Manning, op. cit.

• كيرستن شايد •

الأمر الأول هو الناحية العِرْقيّة وكيفيّةُ اندراج هذا الفيلم في سياق العنصريّة الأميركيّة التي يُدعى المشاهِدون إلى المشاركة فيها. وقد أكّد كوكس أنّ «قوات النخبة الأميركيّة لم تستطع أن تؤدّي دورَها المركزيّ في الصومال ـ وهو حمايةُ شركات النفط ـ لأنّها من العنصريّين البيض غيرِ المتمرِّسين في إيجاد أيّ صلةٍ بأيّ مهمّة إنسانيّة في إفريقيا...»[١] وذكَرَ أنّ لجنةَ الخدمات المسلّحة التابعة لمجلس النوّاب الأميركيّ أوردتْ في تقرير صَدَرَ عام ١٩٩٤ «أنّ العنصريّةَ الفاقعة أمرٌ شائع، وأنّ عدمَ ... الوعي بالاختلافات العِرْقيّةِ مشكلةٌ منتشرةٌ في أوساط الجنود.»[٢] ولكنّ المخطِّطين العسكريّين كانوا يَعْلمون ذلك حين أَرْسلوا الأفواجَ المسلّحةَ من الجنود البيض الأقحاح إلى الصومال؛ وها هو دايفيد هالبرستام يُورد في كتابٍ عنوانُه **الحربُ في زمن السلام** أنّ وزيرَ الدفاع أَخْبرَ أحدَ زملائه: «سنُرْسل قواتِ الرابنجرز إلى الصومال. لن يكون في مقدورنا أن نُسيطر عليهم. فهم أشبهُ بكلابٍ أُفرِط في تدريبها على القتال. لا أحد يسيطر عليهم.»[٣] ولمّا كانت فرقةُ الرابنجرز «يعود تاريخُها إلى الحروب التي شاركتْ في التطهير العرقيّ ضدّ الأميركيّين الأصليّين، وإلى مآثرها في الحرب الأهليّة لصالح الجنوب»؛ ولمّا كانت أيضًا مؤخّرًا «قد استُخدِمتْ في مختلف أنواع التدخُّل ـ من لبنان إلى غرانادا وپاناما، والصومال طبعًا،»[٤] فإنّه مما تَجْدر ملاحظتُه أنّ حفل افتتاح هذا الفيلم عُقِدَ في يوم ميلاد مارتن لوثر كِنْغ الابن، وهو اليومُ الذي يُكرَّس عند مجموعات أخرى للاحتفال بإنجاز خطوات أميركيّة كبيرة **ضدّ** العنصريّة، في حين أنّ البنتاغون وهوليوود يستخدمانه **لترويج** العنصريّة على امتداد العالم بوصفها جزءًا فحسب ممّا «يصادفه الجنودُ في الحرب الحديثة» إذا اقتبسنا الكلامَ من روس.

وأمّا الأمر الثاني فهو إنسانيّة الإدارة الأميركيّة. فبينما يتناول الفيلم كيف تمّ إفشالُ مهمّةٍ إنسانيّةٍ «رائعة» لإطعام الصوماليّين، اتّخذت الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت خطواتٍ متعمَّدةً لمنع الصوماليّين من إطعام أنفسهم. ففي تشرين الثاني من العام الماضي، أغْلقت الحكومةُ الأميركيّةُ شركةَ «البركات» الصوماليّة التي وفّرت السبيلَ الأوحدَ لكي يحوّل الصوماليّون في الخارج أموالَهم إلى داخل البلاد. وحوالى ٨٠٪ من الصوماليّين يعتمدون على مثل هذه الأموال للبقاء على قيد الحياة.

«الأكشن» والجمهور العربيّ

أمّا بالنسبة إلى الجمهور الصوماليّ فقد ذكرتْ محطّةُ CNN أنّهم «ابتهجوا بمشاهدِ هزيمةِ الولايات المتحدة. وكلّما سقطتْ طائرةُ هيليكوبتر أميركيّة في الفيلم كان الجمهورُ يهلّل. وكلّما قُتل عسكريٌّ أميركيٌّ كان الجمهورُ يهلّل أيضًا.»[٥] لقد تمكّن الصوماليّون من ملاحظة فشل الفيلم في «وضع الأمور في نصابها،» ولكنْ بالنسبة إلى مشاهدين كُثُر على امتداد العالم قد تكون هذه المشهديّةُ هي السجلَّ الوحيدَ الباقي والأكثرَ محسوسيّةً لما حدث في الصومال. إنّ الواقعيّةَ المفرطة في التقنيّة

١ ـ Cox, op. cit.

٢ ـ "An Assessment of Racial Discrimination in the Military: A Global Perspective," December 30, 1994, US Government Printing Office.

٣ ـ Quoted by Cox, op. cit.

٤ ـ Sexton, op. cit.

٥ ـ Quoted by Johnnie Stevens, "*Black Hawk Down*: Pentagon War Propaganda," **People's Rights Fund**, http://www.peoplesrightsfund.org.

لأفلام على شاكلة **رامبو** مثل الفيلم الذي نَسْتعرضه هنا لا تَحلّ في النهاية مكانَ الذكريات المستندة إلى تقارير الصحفيّين فحسب، «بل قد تُسرِّع أيضًا في موت الصحافة نفسِها.»[1]

ولَمّا كان هذا الفيلم العامر بـ «الأكشن» خلْوًا من حبكة متطوِّرة، فإنّه لا يحاول أن يكون محاضرةً في الجغرافية السياسيّة، وإنّما يكتفي بإعادة رسم إطار لأساس مناقشة تلك السياسات. وتقترح إحدى الكاتبات عبر جريدة **واشنطن بوست** أن «يكون الفهم غير الصحيح» بصدد حملة الراينجرز عام ١٩٩٣ قد ثار «لأنّه لم يكن هناك سوى قليلٍ من المشاهد القويّة عن المعركة في ذاتها.»[2] وها هو **سقوط الصقر الأسود** يقدِّم آلافَ المشاهد القويّة التي تصوِّر الأميركيّين في دور الضحايا البريئة وإن الشجاعة، بدلاً من أن تصوِّرهم في دور المعتدي. «إنَّ ما نَشْهده في **سقوط الصقر الأسود** وفي الحرب الحاليّة على الإرهاب،» على نحو ما يكتب مونبيوت، «هو خلقُ أسطورةٍ جديدةٍ عن القوميّة. فأميركا تَطْرح نفسَها بوصفها مخلِّص العالم وضحيَّته في الوقت ذاته، مسيحًا قربانيّاً في مهمّةٍ لتخليص العالم من الشرّ. وهذه الأسطورة تَنْطوي على مخاطرَ لا حصرَ لها على كل الناس الآخرين في الأرض.»[3] غير أنّ هذه هي حكايةٌ قديمةٌ بالنسبة إلى الجمهور العربيّ. تنحَّي جانبًا يا إسرائيل؛ ها قد جاءت الضحيّةُ الجديدة!

إذا كان الجمهورُ العربيّ يريد بعضَ «الأكشن،» فالأفضل ربّما أن يشاهد الأخبارَ المسائيّة. فثمّة الكثيرُ من الموت الذي ترعاه أميركا ممّا يُمكن أنْ يشاهدوه في كلِّ ليلة. ولا شكَّ أنَّ الضحايا التي سيشاهدونها على التلفزيون، بعكس ما في هذا الفيلم، واقعيّةٌ مئةً في المئة!

لقد قوبل إطلاقُ الفيلم باحتجاجات وبحملاتِ مقاطعةٍ في طول الولايات المتحدة وعرضها، نفَّذ قسمًا كبيرًا منها مجموعاتٌ مواليةٌ للعرب أو معارضةٌ للتدخُّل الأميركيّ، مثلُ «مركز العمل الدوليّ.» وربّما كانت هذه الاحتجاجاتُ وأعمالُ المقاطعة من أسبابِ قلّةِ إقبالِ الجمهور على حضور هذا الفيلم ـ ففي الأسبوع الحادي عشر من عرضه لم يكن قد حَصَدَ إلاّ ثلثَ ما حصده **ملك الخواتم** ولم يكسب إلاّ ٢٠٪ ربحًا صافيًا.[4] ولَمّا كانت هوليوود، شأن المصنِّعين الأميركيّين الآخرين، تَعْتمد على الأسواق الأجنبيّة لتأمين القسم الأعظم من أرباحها، فإنَّ أمام العالم العربيّ دورًا حاسمًا في جعل هذا الفيلم وأفلام أخرى في المستقبل ممكنةً أو غيرَ ممكنة (دون أن ننسى أنَّ المغرب ـ ويا للأسف ـ هو الذي استضاف تصويرَ هذا الفيلم، ولعب البوليسُ المغربيُّ دورَ الصوماليّين المزمجرين!).[5] فلماذا يعوِّض شعبُ العالم العربيّ عن خسائرِ فيلمٍ يبرِّر قتلَ المسلمين والعرب وشعوبٍ فقيرةٍ أخرى؟

بيروت

١ ـ Schecter, op. cit.

٢ ـ Snead, op.cit.

٣ ـ Monbiot, op. cit.

٤ ـ http://www.rottentomatoes.com and http://www.radiofree.com.

٥ ـ Stephen Hunter, "The Battle Is Engaged, and So Is the Audience, in Ferocious *Black Hawk Down*," **The Washington Post**, Jan. 18, 2002, p. C01.

وتذكر Snead أنَّ الادارة الأميركيّة والبنتاغون أجريا مفاوضات مكثَّفة مع وزارة الخارجيّة المغربيّة من أجل تصوير الفيلم في الرباط.

العقل العربيّ وإشكالاته

مسبَقاتُ التفكير النظريّة

. رضوان جودت زيادة* .

كيف فكّر العقلُ العربيُّ في عقله؟

أن نفكّر في العقل معناه أن نفكّر في ذاتنا ووجودنا، بما يَعْنيه هذا الوجودُ من مساءلة الماضي والنظر إلى المستقبل معًا. وهذا هو بالضبط منطوقُ المفكّرين العرب المحْدثين لدى تعاملهم مع العقل؛ يقول أحدُهم: «إنّ قضيّةَ العقل العربيّ هي قضيّتُنا الحضاريّةُ الأولى، لأنها القضية التي تتوقّف عليها مواجهتُنا لجميع قضايانا المصيريّة مواجهةً قويمةً...»[1] يبدو العقل هنا بمثابة المحوّلة التي إنْ عرفنا فكّ رموزها وأسرارها نَقَلَتْنا من التخلّف إلى الحداثة، ومن الرجعيّة إلى التقدّم. ولكنْ مَنْ تراه يَمْلك هذا السرَّ ويستطيع أن يَفضّ هذا اللغز؟ هنا تَطْرح الإيديولوجيا نفسَها مالكةً للحقيقة، وتقدِّم أجوبتَها الجاهزةِ والناجزة؛ ففي اتّباعها صلاحُ الأمّة، وفي الابتعاد عنها الخسرانُ المبين.

ما نَطْمح إلى تحقيق الإجابة عنه هو: كيف فكّر العقلُ العربيُّ في عقله؟ وبلغة لالاند: كيف فكّر العقلُ المكوِّنُ العربيُّ في العقل المكوَّن العربيّ؟ وما هي آليّات التفكير التي حَكَمت المثقفين العربَ عند تفكيرهم في العقل؟

رهان العقل... سحر التغيير

من الممكن القولُ إنّ كلّ الأسئلة التي طرحها المفكّرون العرب، وكلّ الأجوبة التي قدّموها، تَكْمن في الكشف عن السبب القائم وراء استعصاء العرب على النهوض وعدم قدرتهم على التوافق مع العصر. وحين راحوا يتلمّسون أسبابَ تخلّفهم طَرَحوا قضيّةَ الاستعمار. ولكنّ بلدانًا عربيّة عدّة لم يطأْها الاستعمارُ مابرحتْ تراوح مكانَها القائمَ تحت خطّ التقدّم. فأعادوا التفكير في ذاتهم هذه المرّة، فوجدوا إرثًا تاريخيًا كبيرًا لم تقوَ ظهورُهم على حمله، فحَزموا أمرَهم وقرّروا أن يبدأوا بحلّ إشكاليّتهم مع التراث. ودَخَلْنا دوّامةَ الأصالة والمعاصرة والتراث والحداثة، إلى آخر هذه الثنائيّات التي لم تَنْتهِ بعدُ.

سئم العربُ من ذلك، وداخَلَهُمْ شكٌّ كبير في أن يكون عمادُ النهضة لدى غيرهم من الأمم عائقًا لهم دونها. فنشأتْ ظاهرةُ الانتقال من موقفٍ إلى ضدّه لدى عددٍ من المفكّرين العرب، كما حدث مع زكي نجيب محمود في **تجديد الفكر العربيّ** في ما يخصّ مشكلةَ التراث.

ثم حزم المفكّرون العربُ أمرَهم مرّةً أخرى، وقرّروا أن يبدأوا بذاتهم أولاً. لكنّ الذات لا تتعيّن إلاّ بوعي ذاتها، وهذا غير متحقّق إلاّ بعقلها. ولذا وضع المثقفون العقلَ العربيّ على الطاولة وبدأوا بتشريحه من جديد.

أ - أصحاب الإيديولوجيا التقدّميّة.

وهكذا راح بعضُهم يتساءل: «هل العقل العربيّ خرافي؟»[2] دون الوقوف ولو للحظة أمام هذه الإطلاقيّة المخيفة، مع أنّه يعرِّف نفسَه بأنّه يَنْتمي إلى الإيديولوجيّة العلميّة التقدّميّة. ويجيب بكثيرٍ من الثقة: «أنّ المواقف الخرافيّة الكامنة والمغلّفة بقشور رقيقة من التعليم تشكّل جوهر العقليّة الاجتماعيّة لدى المجتمع العربيّ.» لكنّ ما السبب وراء انتشار الخرافة في هذا العقل؟ هنا تجيبنا الإيديولوجيّة العلميّة، وبكثيرٍ من الثقة والحماس أيضًا، بـ «أنّها نابعة من صلب الإيديولوجيا الدينيّة ذاتها، وبسبب انعدام الحريّة الفكريّة والحريّة الاجتماعيّة بالمفهوم التقدّميّ، وبسبب استمرار تحكُّم الفئات المحافظة ذاتِ العقليّة العشائريّة الفرديّة سواءً مباشرة أو عن طريق بيروقراطيّاتٍ

---

* - باحث سوري.

1 - د. حسن صعب: **تحديث العقل العربيّ - دراسات حول الثورة الثقافيّة اللازمة للتقدّم العربيّ في العصر الحديث** (بيروت: دار العلم للملايين، ط ٣، ١٩٨٠)، ص ٣.

2 - د. إبراهيم بدران ود. سلوى الخماش، **دراسات في العقليّة العربيّة: الخرافة** (بيروت: دار الحقيقة، ط ٣، ١٩٨٨)، ص ٨.

وشبهِ برجوازيّاتٍ عسكريّةٍ أو متعسكرة.»[1] فالدين يقف إذًا وراء انتشار الخرافة وانعدام الحريّة ـ لا الحريّة بإطلاق، بل تلك المشروطة بالمفهوم «التقدّميّ» فقط! ومادام السببُ قد عُرف، فما السبيلُ إلى إزالته لتعود الأمورُ إلى مجراها الطبيعيّ وليعودَ العقلُ العربيُّ عقلاً بلا خرافة؟ هنا تُسارعُ الإيديولوجيا بالجواب: إنّه «الثورة» التي تتحقّق من خلال «علمنةِ وتحديثِ العلاقات والمفاهيم الإنتاجيّة والاجتماعيّة عن طريق التغيير الجذريّ المتواصل الواعي.»[2]

قبل أن نَنْتقل إلى نموذج آخر من الرهان على العقل وقدرته السحريّة على التغيير، لا بدّ أن نَهْمس في أذن هذه الإيديولوجيا سؤالاً نراه صعبًا على التفسير لديها: فمن يقوم بهذه الثورة مادام العقلُ العربيُّ سادرًا في الخرافة؟

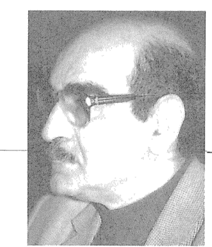
لننْتقلْ إلى نموذج آخر، شقيق للسابق في الإيديولوجيا، ولكنّه مختلفٌ عنه في مقاربة الموضوع. هذا الآخر لا يأْتي العقلَ العربيَّ من قِبَلِ الخرافة وإنّما يَعْتبر أنّ العقل العربيّ **كلّه** في أزمة، ويرى أنّ التردّي العربيّ القائم الآن لا مخرج له سوى التسلّح بالمنهج القائم على الذاتيّ والموضوعيّ. فثمّة منهجان رئيسيّان، في زعمه، لطريقة صنع العرب حياتَهم: النموذج الرأسماليّ، والنموذج الاشتراكيّ. الأوّل أدّى إلى تكوين عقلٍ غيرِ قوميٍّ وغيرِ علميٍّ وغيرِ بنائيّ، ويَعْجز تمامًا عن تخطّي حالة التخلّف الراهنة؛ بينما يؤدّي الثاني إلى تكوين عقلٍ قوميٍّ علميٍّ بنائيٍّ مرتبك، دون مستوى العقل المطلوب للتخطّي المذكور.[3] وهكذا تصنّف الإيديولوجيا العقولَ تنازليّاً: إذ بقَدْر ما يكون العقلُ وفيّاً لها يكون علميّاً وقوميّاً وبنائيّاً ويحتلّ المرتبةَ الأعلى؛ وبقدْر ما يزداد خصومةً لها يكون غيرَ قوميٍّ وغيرَ علميٍّ وغيرَ بنائيّ وتتراجعُ درجاتُه إلى الحضيض. ولكنْ إذا «كانت الرأسماليّةُ في البلاد العربيّة لم تَعْمل على ابتكار قيم جديدة أو وجهةِ نظر جديدة لا عن العالم ولا عن الحياة وإنّما ظلّت قانعةً بجهلها وراضية ببهيميّتها [كذا]... فإنّ العقل الذي أَسْهمت البورجوازيّةُ العربيّةُ في تكوينه لم ينشأْ لا في صراع مع الطبيعة ولا في مواجهة الصناعة المتجدّدة. بل يُمْكن القول إنّ شروطَ تجهيل العقل هي وحدها الشروط المتحقّقة.»[4] وإذا كان هذا هو حالَ العقل البرجوازيّ فما هو حالُ العقل الاشتراكيّ في البلاد العربيّة؟ يقول الكاتب: «لقد خلق النموذجُ الاشتراكيُّ لدى العقل الأوروبيّ نزوعًا قوميّاً متناميًا، فيما يُفْترض أنّه وَجْهٌ لبناء جامعةٍ إنسانيّةٍ شاملة. إلاّ أنّ الرأسماليّةَ حَرَفَتْ مسارَه ليصبح تعصّبًا قوميّاً... أمّا في الأقطار العربيّة فإنّ القوى ذاتَ التوجّه الاشتراكيّ لم تنشأْ على نحوٍ واحد، بل أدّى اختلافُ العوامل الموضوعيّة والذاتيّة بين قطر عربيّ وآخر إلى تكوين أكثرِ من صيغة للتحكّم في تكوين الفكر الاشتراكيّ... وبالتالي أكثر من عامل لتحديد بنية العقل.»[5]

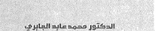
وهكذا يَظْهر مدى هيمنة الإيديولوجيا على العقل بدل أن يكون العقلُ حاكمًا للإيديولوجيا. فالعقل الاشتراكيّ، بحسب هذه الإيديولوجيا، يمثّل المخرجَ الوحيدَ للأزمة التي يعيشها العقلُ العربيّ، وكلُّ خطإٍ أو انحرافٍ ليس ناتجًا حتمًا عن تركيبة هذا العقل (إذ هو براء من الأخطاء) وإنّما تُمْكن إعادتُه وبكثيرٍ من اليسر إلى عوامل خارجيّة وإلى قوى التحكّم الرأسماليّة والرجعيّة التي تتربّص بهذا العقل.

يتساءل هذا العقل عن هيمنة التراث في الساحة الثقافيّة العربيّة، ويَعْتبر أنّ العقل

1 ـ2 ـ المصدر السابق، ص ٨، ٩، ٣١٢.

٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ د. حامد خليل، **أزمة العقل العربيّ** (دمشق: دار كنعان، ط ١، ١٩٩٢)، ص ٥، ٦، ٢٠.





مع محمد عابد الجابري أصبح العقل ونقدُه وتحليلُه مدار اشتغال معظم المفكّرين العرب

العربيّ أصبح مصابًا بحمّى التراث. ويجيب عن سؤال نفسه بنفسه: «إنّ ما حدث لا يَدْعو إلى التفاؤل. بل لن نبالغ إنْ قلنا إنّ حجم التراجع الذي سجّله ذلك العقلُ كان أكبرَ بكثيرٍ ممّا حقّقه من تقدُّم في هذا المجال. فقد وجدت القوى الرجعيّةُ الفرصةَ سانحةً للانقضاض على بقايا الفكر التقدُّميّ التي لم تَسْقط بعد، ونجحتْ إلى حدٍّ كبير في زعزعة ثقة الجماهير به، وحَشْرِه في خانة الدفاع القاتلة.»(١) فعدم قدرة العقل الاشتراكيّ على التغيير لا تعود إلى بنيته الداخليّة، وإنّما إلى الحصار المضروب عليه من قبل القوى الرأسماليّة والبرجوازيّة والرجعيّة، بل من قبل الجماهير أيضًا التي يَجْعل تعليمَها وتثويرَها غايتَه وهدفَه! هنا تثور الإيديولوجيا على نفسها وتُعْلن أنّ أيّ طريقٍ لتحديث العقل العربيّ إنّما «يتطلّب تغيُّراتٍ نوعيّةً وكميّةً سريعةً في الفكر والسلوك. وليس هناك مَنْ يماري اليومَ في ثوريّة التحديث... ولكنّ التساؤل هو حول العلاقة بين الثورة والعنف.» ولا يَتْرك الكاتبُ لنفسه ولقارئه فسحةً لالتقاط الأنفاس، بل يصيح بأعلى صوته: «إنّ الاستقراء التاريخيّ يدلّنا على أنّ الإنسان يواجهُ حالاتٍ تَفْرض عليه اختيارَ العنف طريقًا للحريّة والتقدُّم.»(٢) فالثورة مطلوبة لتحديث هذا العقل العربيّ وجعله عقلاً علميّاً اشتراكيّاً، والعنفُ مبرَّرٌ لتحقيق هذه الثورة.

طبيعيٌّ بعد ذلك أن تَرْفض هذه الإيديولوجيا أيّةَ قراءةٍ أخرى للعقل. وهكذا يَعْتبر أحدُهم أنّ قراءة الجابري للعقل تَحْوي نزعةً مثاليةً صارخة ولكنّها تحاول أن تَسْتر هذه العورةَ بأقوال ماديّة أو شبهِ ماديّةٍ متناقضة(٣) ـ وهذه أحبولة إيديولوجيّة رئيسيّة في فكره، وغالبًا ما يَلْجأ إليها في ستر «عورات» أطروحته.(٤)

ب ـ أصحاب الإيديولوجيا الإسلاميّة. ليست الإيديولوجيا الماركسيّة بدعًا بين الإيديولوجيّات العربيّة التي راهنتْ على العقل باعتباره محرّكَ التغيير وأداتَه. بل إنّ الإيديولوجيا الإسلاميّة اعتبرتْ "أنّ ما أصاب الأمّةَ من تشرذم، وتشتُّتٍ في تعدُّد الأنظمة، واصطناعِ الحدود، إلى جانب فقرٍ وجهلٍ الشعوب العربيّة... شواهدُ واقعيّةٌ تَستوجب التأمُّلَ والتبصُّرَ في واقع العقل العربيّ لأنّه هو الأحرى أن يُلامَ على ما أصاب الأمّة.»(٥) وهكذا يغيب أيُّ سياق سياسيّ أو اجتماعيّ أو اقتصاديّ لتفسير الأزمات المعقّدة والمتشابكة، ويَحْضر فقط «العقلُ العربيُّ» بوصفه علةَ الأزمة ومعلولَها. ومادامت الأزمة قد اختُصِرَتْ إلى هذه الرؤية فحلُولها تُخْتصر أيضًا بالاعتماد على إعادة تشكيل العقل العربيّ؛ يقول الكاتب الإسلاميّ: «إنّ تحليلَ هذا العقل ومعرفةَ إيجابيّاته وسلبيّاته يُعدّ منطلقًا سليمًا ومدخلاً طبيعيّاً لأيّ محاولة من شأنها استعادةُ هذا العقل لرشده ووعيهِ ومن ثم الانطلاقُ نحو مستقبله المشرق.»(٦) علينا إذن، بحسب هذا المنطق، أن نَقْتصر في مناقشتنا للتخلُّف العربيّ الراهن على العقل العربيّ بوصفه علةَ الداء. وبُعْده عن المنهج الإسلاميّ هو سببُ العلة، ولذلك فإنّ تنضيدَه وفق هذا المنهج كفيلٌ بإزالة كلّ هذا التخلُّف عن الواقع العربيّ.(٧)

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٣٣.

٢ ـ د. حسن صعب، مصدر سابق، ص ٢٢٤.

٣ ـ ٤ ـ د. هشام غصيب، **هل هناك عقل عربيّ؟ قراءة نقديّة لمشروع محمد عابد الجابري** (عمّان: دار التنوير العلميّ، ١٩٩٣)، ص ٢٦، ٤٣، ٢٢٦.

٥ ـ ٦ ـ د. عبد الرحمن الطريري، **العقل العربيّ وإعادة التشكيل** (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميّة، ١٩٩٣)، ص ٣١، ٥٤.

٧ ـ المرجع نفسه، ص ٩٠. وانظر أيضًا: د. محمد إبراهيم الفيومي، **تأمُّلات في أزمة العقل العربيّ** (القاهرة: دار الفكر العربيّ، ط ٢، ١٩٩١).

ولا تَكْتفي هذه الإيديولوجيا بذلك، بل تحاول أن تَرْسم ملامحَ للعقل العربيّ **بعد** عمليّة إعادة التشكيل المطلوبة. إذ «من ملامح العقل العربيّ بصورته الجديدة بعد إعادة تشكيله أن يميِّز بين الحقوق والواجبات، وأن يتحوّل من حياة التَّرَفِ والدَّعةِ والسكونِ إلى حياة الجدّ والنشاط والحيويّة. وعليه أن يَكْتسب خاصيّةَ العمل الجماعيّ، وأن يكون دقيقًا في تعامله مع غيره، وألاّ يكون دُمْيةً يوجِّهونه كما يشاءون، وكذلك عليه أن يتميَّز بخصلة المبادرة والمبادأة [!]»(١)

ولكنْ كيف نَنْتقل من المستوى الاجتماعيّ والتجريبيّ إلى المستوى المعرفيّ دون أن نُدْرك أنّ القفز غير مُمْكن قبل عملية إعادةِ تقعيدٍ نظريّ للمعطيات المعرفيّة الموجودة ثم العمل على ربطها بالواقع القائم؟ إلاّ أنّ الإيديولوجيا تَبْدو قادرةً على تجاوز كل ذلك رغم ادِّعائها أنّها تتبنّى المنهج العلميّ. فما وجدناه لدى الإيديولوجيا الماركسيّة أو الإسلاميّة متقاربٌ من حيث الرهانُ على العقل عصًا سحريّةً قادرةً على إخراجنا ممّا نحن فيه ونَقْلِنا إلى ما نريد أن نكون عليه، دون تحرُّجٍ معرفيٍّ يقول بأنّ العقل مشروطٌ بظروفه التاريخيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة التي يعيشها ويتشكّل وفقها ووفق تأثيراته فيها.

ج ـ الجابري وأصحاب الدراسات المعرفيّة. الخروجُ من وحل الإيديولوجيا وتجاوُزُ المسبَّقات النظريّة: هذا هو ما حَلمتِ الدراساتُ المعرفيّةُ بتحقيقه، وعلى رأسها دراسةُ الجابري الأشهر في نقد العقل العربيّ. فالجابري يقرِّر أنّ استخدامه لفظةَ «عقل» بديلاً من «فكر» هو تجنُّبٌ للإيديولوجيا وابتعادٌ عنها، لأنّ ما يهتمّ به ليس الأفكار بذاتها بل الأداةَ المنتجة لهذه الأفكار.(٢)

لم يَكُنْ الجابري مختلفًا عن غيره من أصحاب الإيديولوجيّات في الرهان على العقل لتحقيق سِحْرِ التغيير. بل إنّه يكاد يكون الأكثرَ تعلُّقًا بهذا السحر، إذ إنّه يَفْتتح مشروعَه كالتالي: «إنّ نقد العقل جزءٌ أساسيٌّ وأوّليٌّ من كل مشروع للنهضة. ولكنّ نهضتنا العربيّة الحديثةَ جرتْ فيها الأمورُ على غير هذا المجرى. ولعلّ ذلك من أهمّ عوامل تعثُّرها المستمرّ إلى الآن. وهل يُمْكن بناءُ نهضة بعقلٍ غيرِ ناهض، عقلٍ لم يَقُم بمراجعةٍ شاملة لآلياته ومفاهيمه وتصوُّراته ورؤاه؟»(٣) وهكذا تؤجّل النهضةُ، بحسب هذا الخطاب، إلى حين حَسْمِ قضيةِ نقدِ العقل، وإلى حين انتهاء عمليّة النقد والتفكيك والتشريح.

لا أبالغ في القول إنّ لحظة الجابري في نقد العقل العربيّ كانت حاسمةً في الفكر العربيّ المعاصر. فلقد تمكّن من خلق إشكاليّةٍ جديدة حين كان الفكرُ العربيُّ مايزال يتعيَّش على الإشكاليّات التي خلّفها له «عصرُ النهضة.» وما الردود والتعقيبات المتلاحقةُ عليه إلاّ أكبرُ دليل على مدى تغلغل إشكاليّة نقد العقل في الخطاب العربيّ. بل إنّ مشاريعَ مضادّةً تصدَّتْ لمجابهة هذا المشروع(٤) دون أن تنفي أهميةَ هذا المشروع وحصيلتَه المعرفيّة الهائلة التي خلّفها.

لقد نقل الجابريّ الفكرَ العربيَّ إلى حقلٍ بِكْرٍ لم تطأه قدمٌ بالثِّقل الذي وطأتْه قدماه. فأصبح العقلُ ونقدُه وتحليلُه مدارَ اشتغال معظم المفكّرين العرب، الأمر الذي خلق هالةً من السحر على «العقل» وقدرته العجيبة على التغيير. وها إنّ أحد المثقفين يتابعه فيقول: «ستُفتح الآفاقُ أمام منظوماتنا المعرفيّة لتتابعَ

١ ـ المرجع نفسه، ص ٤٢.

٢ ـ ٣ ـ محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربيّ** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط ٦، ١٩٩٤)، ص ١٢، ٥.

٤ ـ انظرْ جورج طرابيشي، **نظرية العقل** (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٧) **وإشكاليّات العقل العربيّ** (بيروت: دار الساقي، ط ١، ١٩٩٨). وانظرْ أيضًا طه عبد الرحمن، **تجديد المنهج في تقويم التراث** (الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافيّ العربيّ، ط ٢، ١٩٩٦).

. رضـــوان جـــودت زيادة .

تصاعدَها في بنائها الأنتروبولوجيّ المعرفيّ المعاصر المؤكِّد لهويّتنا... وبالتالي ستتوفَّر إمكانياتُ ومقدِّماتُ الإجابة التاريخيَّة عبر إنجاز مشروع نهضويّ عربيّ من خلال دولة وطنيَّة عربيَّة واحدة أداتُها الكتلةُ الوطنيَّة الديموقراطيَّة ذاتُ الأفق الاشتراكيّ وبعموم الساحة العربيَّة، وتحقُّق إمكانيَّةَ فكّ الارتباط والاستقلال عن مراكز العولة الإمبرياليَّة وتُسْقط أداته المشروعَ الصهيونيّ.»[1] على العقل العربيّ إذًا أن يقدِّم الإجابةَ عن المشروع النهضويّ العربيّ وعن الدولة الوطنيَّة العربيَّة الموحّدة وعن الكتلة الوطنيّة الديموقراطيَّة المشروطة بالأفق الاشتراكيّ؛ وعليه تحقيقُ الاستقلال عن العولمة الإمبرياليَّة؛ وعليه ـ فوق ذلك كلّه ـ أن يحقِّق الانتصارَ على المشروع الصهيونيّ. العقل العربيُّ هنا أشبهُ بالعملاق الضخم[2] المأسور الذي ستحرِّره عمليّةُ النقد ليحقِّقَ كلَّ ما نَطْمح إليه. ولا ريب في أنَّ هذه الصورة أشبهُ بأفلام الرسوم المتحرِّكة التي تَنْتَظر لحظةَ وصول البطل ليحقِّق الخيرَ ويَهْزم الشرَّ!

إيديولوجيا العقل والصراع مع الذات

إذا كانت الإيديولوجيا العربيَّة بكلّ تلويناتها قد راهنتْ على العقل بوصفه مفتاحَ التغيير، فإنَّ رهانها هذا لم يكن على العقل بإطلاقٍ بقَدْرِ ما كان على العقل المؤطَّر بالإيديولوجيا. ولذلك نَسْتطيع القول إنَّ الخطاب الإيديولوجيّ هو خطابٌ مضادٌّ للحقيقة لأنَّه لا يروم المعرفةَ بقدْرِ ما يَبْتغي السياسةَ ـ والسياسة هنا ليست علمًا له أصولُه وقواعدُه وإنَّما هي كسبٌ للأنصار والجماهير وتبخيسٌ للخصم والآخر. وهذا بدوره يؤكِّد لنا أنَّ العقلَ العربيَّ هو عقلٌ مصادرٌ ومحكومٌ بمسبَّقات نظريَّة محدَّدة سلفًا. لذلك حقَّ لبرهان غليون أن يقول: «لقد تحوَّلَ مفهومُ العقل حسب حاجات الصراع الإيديولوجيّ فأصبح شعارًا بقَصْد الانتماء إلى معسكر ضدّ آخر، ونَزْع شرعيةِ الكلام عن الخصم.»[3] وهكذا يصبح العقل محطَّ تجاذب التيارات الإيديولوجيَّة كافةً، كلٌّ يدَّعي وصلاً له ونَسَبًا إليه، الأمرُ الذي نَزَعَ عن العقل مفهومَه الاعتباريَّ بوصفه معيارَ الوعي بالذات والواقع وحوَّله أداةً للصراع السياسيّ. وهذا ما أدَّى أيضًا إلى إلغاء وظيفته في المجتمع بوصفه شرطًا من شروط التغيير الاجتماعيّ، ونسقًا مهمًّا من أنساق الفعل السياسيّ والاقتصاديّ.

إنَّنا نحاول الابتعاد ما أمْكن عن طرح مفهوم مثاليّ للعقل يَعْزله عن التلوُّث بالواقع. كما أنَّنا نحاول، وبالمسافة نفسها، أن نُبْعدَه عن أيِّ مفهوم إيديولوجيّ يَعْزله عن الفعل ويُسْقطه في فخّ الصراع مع الآخر. وهذا ما يبرِّر لنا التقسيمَ بين «المعرفيّ» و«الإيديولوجيّ.» ومع أنَّنا لا نُنْكر أنَّ المعرفيَّ نفسَه يتخلَّله الإيديولوجيُّ ويَسْكن فيه، فإنَّنا نَسْتطيع أن نحاكِمَ المعرفيَّ استنادًا إلى الجرعة التي يتلقَّاها من الإيديولوجيّ ـ إذ هناك

١ ـ د. جمال الدين الخضور، **ماساة العقل العربيّ ـ دراسة في البناء الأنثربولوجيّ الثقافيّ المعرفيّ العربيّ المعاصر** (دمشق: دار الحصاد، ط ١، ١٩٩٥)، ص ١٨٧.

٢ ـ يقول أندريه لالاند: «من اليسير أن يشمئزّ المرءُ من العقل عندما يطْلب منه المحال. ذلك أنَّ العقل ليس جانًّا، وليس عليه أن يجدِّد من أجلنا معجزةَ الخلق من العدم. وإنَّما العقلُ قوةُ عَمَلٍ كبرى ذاتُ آثار مرئيَّة، ولكنَّه لا يتكشَّف إلاَّ بعمله فيما يُنْتج وفي نجاح مشروعاته أو إخفاقها.» **العقل والمعايير**، تقديم وتعريب د. عادل العوا (دمشق: مطبعة الشركة العربيَّة، ١٩٦٦)، ص ١٩٦.

٣ ـ د. برهان غليون، **اغتيال العقل ـ محنة الثقافة العربيَّة بين السلفيَّة والتبعيَّة** (بيروت: دار التنوير، ط ٢، ١٩٨٧)، ص ٢٥٠.

إيديولوجيٌّ أقلُّ وأكثرُ، وما يَضْبط ذلك ويوقِّته هو العقلُ نفسُه **بعد** تحريره من مسبَّقاته النظريَّة التي تأْسره. وذلك لا يتأتَّى بمَدْح العقل وذمِّ اللاعقل، على ما نرى لدى الإيديولوجيا القوميَّة التي تقْصد من ذلك تمجيدَ العرب وتفضيلَهم. يقول أحدهم في ذلك: «لقد أنشأ العربُ مذهبًا جديدًا عُرف بالمذهب العربيّ أو الطريقة العربيَّة التي تقوم على جعل العقل المرجعَ والدليلَ والحَكَم... ممّا كان له أكبرُ الأثر في التقدُّم الذي أصاب المعرفةَ الإنسانيَّةَ من طريقتهم هذه...»[1] لكنْ عبثًا نحاول الحصولَ على مفهومٍ واضحٍ للعقل يَسْتدعي هذا السيلَ من المديح، إذ إنَّ كلَّ ما نَجِده لدى الكاتب شواهدُ ليُقْنع قارئه بالمكانة الرفيعة التي احتلَّها العقلُ عند العرب، مبتدئًا بالقرآن وبالأحاديث النبوية، ومعرِّجًا على الصحابة ثم الفقهاء والحكماء، ومنتهيًا بالفلاسفة من مثل إخوان الصفاء وغيرهم.

خاتمة: تحديد مفهوم للعقل

إنَّ الخروج من هذا الصراع على العقل يقْتضي بدءًا تحديدَ مفهومٍ للعقل لا يُخْرجه من تاريخه وزمانه، بل يعيد الاعتبارَ إليهما ركيزتَيْن أساسيَّتَيْن في بناءِ أيِّ نظامٍ للعقل. وهذا النظام هو «خلاصةُ تجربة اجتماعيَّة وإنسانيَّة شاملة في الوقت نفسه. ويجسِّد كلُّ مجتمع في تاريخ تمدّنه هذا النظامَ، ويكرِّر جزئيّاً أو كليّاً تجربةَ المجتمعات كافَّةً. والعقل وفقًا لذلك نظامٌ مركَّب ومكتسب، وهو مرتبطٌ بثقافةٍ تَعْكس الشروطَ الاجتماعيَّةَ والتاريخيَّة التي أنْتجها والإشكاليَّاتِ التي صاغَتْها.»[2] الفعل الاكتسابيّ للعقل يَنْفي عنه المفهومَ الذي شكّلته الدراساتُ البنيويَّةُ والحفريَّات، ومفاده أنَّه عقلٌ سكونيّ تشكَّل وانتهى في الماضي وأنَّنا إنَّما نعيش رواسبَه ونتائجَه. فالحقّ أنَّ «العقل لا يورَّث ولا يُكتَشَف بل يُكْتَسَب بالتجربة المتجدِّدة؛ فعقلُ الفرد هو حصيلةُ تجربة جماعيَّة تتلخَّص في عقليَّة. العقل إذًا عقولٌ، وكلٌّ واحد مرتبط بسلوك جماعيّ.»[3]

وبذلك نأمل أن نكون قد حاولنا نَزْعَ الأسطرة عن العقل وإعادةَ الاعتبار إليه، مع احتفاظنا باستقلاله عن التاريخ واندماجه معه في الوقت نفسه. وبذلك أيضًا نأمل أن يحقِّق العقلُ ما نَطْلبه منه، بَدَلَ أن نعلِّق عليه أحلامًا وأوهامًا زائفة لا تُنْتج إلاّ عكسَها.

دمشق

---

١ ـ قدري حافظ طوقان، **مقام العقل عند العرب** (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ص ١٣.

٢ ـ د. برهان غليون، مصدر سابق، ص ١٥٨.

٣ ـ عبد اللّه العروي، **مفهوم العقل ـ مقال في المفارقات** (الدار البيضاء وبيروت: المركز الثقافيّ العربيّ، ط ١، ١٩٩٦)، ص ٢٤٣.

فزاعة الأقلام والــــــورق

. محمد الهادي بوقرة .

مَا الذي يَسْتحِقُّ البَقَاءْ،
غَيْرُ كُلِّكِ يَهْرُبُ مِنكِ وَيَنْدَسُّ فِيَّ،
وَكُلِّي يَهْرُبُ مِنِّي وَيَنْدَسُّ فِيكِ،
عَلَى وَهْجِ هَذَا اللِّقَاءْ،
فَإِذَا نَحْنُ
وَرْدَةُ مَعْنَى
يَخَافُ تَوَقُّدَنا فِي وُرَيْقَاتِهَا
كُلُّ بَرْدِ الشِّتَاءْ؟
مَا الَّذي يَسْتَحِقُّ البَقَاءْ؟
مُذْ هَرَبْتُ مِنَ الموْتِ ثُمَّ هَرَبْتُ إِلَيْهِ،
تَتَبَّعَنِي فِي الْمَقَاهِي وَفِي لَفتَاتِ النِّسَاءْ.
وَهَرَبْتُ مِنَ الْمَوْتِ ثُمَّ هَرَبْتُ إِلَيْهِ،
وَفِي أَسْفَلِ الْحَبْلِ،
نَحْنُ اكْتَشَفْنَا مَعًا
أَنَّنا، أَنَا وَالْمَوْتُ كُنَّا وَنَمْلُ الْحَيَاةِ،
ثَلاَثَتُنَا أَصْدِقَاءْ
نَرْتَدِي نَفْسَ هَذَا الضَّيَاعِ
وَنَشْرَبُ نَفْسَ الْعَذَابِ
وَنَرْقُدُ فِي نَفْسِ هَذِي الثِّيَابِ
وَفِي نَفْسِ هَذَا الْحِذَاءْ.

❖ ❖

قَهْوَتِي مُرَّةٌ دَائمًا..
وَأَنَا لَسْتُ حَيًّا.. وَلَسْتُ قَتِيلاً.
غَيْرَ أَنَّ الْحَبِيبَاتِ يَذْهَبْنَ قَبْلَ اشْتِعَالِ الْهَوَى،
أَوْ يَجِئْنَ بُعَيْدَ فَوَاتِ الأَوَانِ قَلِيلاً،
وَيُخَلِّفْنَنِي فِي سُدَى الْحَالَتَيْنِ
أُعَضْعِضُ قَلْبِي،
وَأَرْفَعُ وَحْدِي إِلَى قَمَرٍ فِي الْقَصِيدَةِ،
هَذَا العُوَاءْ.

❖ ❖

مُرَّةٌ قَهْوَتِي دَائمًا
غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُ فَمِي،
فِي كَثَافَةِ ذَقْنِي والشَّارِبَيْنِ،
تَهَيَّأَ عُشًّا.
كُلَّمَا قُلْتُ لِي تَوْأَمِي،
تَتَقَاطَعُ فِيَّ الْمَعَانِي عَلَى أَعْظُمِي
والقَصِيدَةُ فَزَّاعَةُ الْوَقْتِ..
عُودَانِ.. شَكْلُ الصَّلِيبِ الْمثَبَّتِ فِي داخلي..
كُسِيَا معطَفًا بَالِيًا مَدَّ كُمَّيْهِ فِي الْجِهَتَيْنِ.
وَرَأْسِي قِدْرٌ مُعَلَّقَةٌ مُلِئَتْ وَجَمِيعُ جُيُوبِي،
.. أَغَانِي.. وَبَيْضًا.. وَقَشًّا..
وأَنا واقِفًا كنتُ أَوْ أَتَمَشَّى
يَهْرَبُ النَّاسُ، أَوْ هَؤُلاَءْ..
يَهْرَبُ الكُلُّ مِنِّي، حَتَّى إِذَا أَمْسَكَتْ بِيَدِي طِفْلَةٌ
وَمَضَتْ بي إلى فرحٍ في الدُّمَى
وَجَدَتْنِي طِفْلاً يَكَادُ يُكَسِّرُنِي الدَّمْعُ، هَشًّا.
وَضَمَمْتُ إِلَيَّ الْمَدَى،
وَفَتَحْتُ لَهَا بَيْنَ جَنْبَيَّ أَجمَلَ مَمْشَى..
وَأَحْلَى سَمَاءْ.

❖ ❖

مُرَّةٌ قَهْوَتِي..
وَأَنَا ذَاهِبٌ فِي القَصِيدِ إِلَى قَلَقِي،
أَمْسَكَتْ بِيَدِي طِفْلَتِي
وَجَرَتْ بِي تُبَعْثِرُ كُلَّ الرَّبِيعِ عَلَى طُرُقِي.
ثُمَّ مَالَتْ عَلَى وَجَعِي..
سَأَلَتْنِي أُعْطِيهَا صُورَتِي،
فَتَقَاطَرَ حَبُّ النَّدَى وَنَبِيذُ السَّمَاءْ
شَجَنًا وَجُمانًا عَلَى أَضْلُعِي.
وَتَرَكْتُ لَهَا دُمْيَةَ الخِرَقِ،
قَلَمَيْنِ وَحِيدَيْنِ كَانَا مَعِي

وَزُجَاجَةَ مِحْبَرَتي
وَبَقِيَّةَ مَا عِشْتُ أَلْبَسُ مِنْ وَرَقِي.
ثُمَّ عُدْتُ إِلَيَّ،
فَوَقَفْتُ عَلَيَّ،
وَمَضَيْتُ، بِغَيْرِ عَزَاءْ.
❖ ❖
مُرَّةٌ دَائِمًا قَهْوَتي..
وَأَنَا طِفْلَتي
بَقِيَتْ طِفْلَةً تُشْتَهَى فِي النِّسَاءْ.
تَتَسَلَّقُ وَجْدَ النَّخِيلِ عَلَى مَا تَكَسَّرَ مِنْ أَضْلُعِي،
وَتُلاعِبُ أَطْيَافَهَا فِي سَرَابي وَفِي قَهْوَةِ الشُّعَرَاءْ،
وَتَعُودُ إِلَى خِرْبَةٍ فِي القَصِيدِ، مَعَ الفُقَرَاءْ..
فَتُقَاسِمُهُمْ حِنْطَتِي،
وَقَدِيدِي،
وَمَا تَرَبَّبَ لِي فِي العِبَارَةِ مِنْ أَدْمُعِي،
وَتُقَاسِمُهُمْ مِزَقِي.
فَإِذَا أَجْدَبَتْ فِي الْمَوَاسِمِ أَهْدَابُنَا،
أَخْرَجَتْ دُمْيَةَ الْخِرَقِ
وَتَعَالَى الحِدَاءْ:
«أُمِّي طَنْبُو بِسْخَابِهَا
طَلبتْ رَبِّي مَا يخَيِّبْهَا»
وَهْيَ عَبْرَ الشَّوَارِعِ تَسْتَنْزِلُ الْغَيْثَ لِلْبُؤَسَاءْ
وَتُعَلِّقُ فِي كُلِّ نَافِذَةٍ،
وَعَلى كُلِّ بَابٍ،
حُزْمَةً مِنْ غِنَاءْ.
❖ ❖

مُرَّةٌ دَائِمًا قَهْوَتي..
مُرَّةٌ دَمْعَتِي..
وَأَنَا العَائِدُ الآنَ لِي،
يَهْرُبُ النَّاسُ، أَوْ هَؤُلاَءْ،
وَيَفِرُّونَ مِنِّي عَلَى طُرُقِي،
مَا عَدَا طِفْلَةٍ وَسَطَ السَّاحَةِ اضْطَجَعَتْ
وَعَلى صَدْرِهَا دُمْيَةُ الْخِرَقِ،
يَتَطَايَرُ مِنْ حَوْلِهَا مَا تَنَاثَرَ مِنْ وَرَقِي،
وَعَلَيْهَا، وَلِي..
حِبْرُ هَذَا الْبُكَاءْ.

قفصة (تونس)

تنويمة الطفل القتيل

• محمد منذر العاني •

دللول.. يا الولد يا بني.. دللول...
تمنّيتُ أنْ أغنّيها لهُ وهو حيّ... ولكنْ بعدَ أنْ قتَلَهُ الحصارُ لمْ يَبْقَ لي إلاّ أنْ أغنّيها لهُ وهو ميّتٌ.

نَمْ في هَناء.
يا أيُّها الطفلُ الذي رَضَعَ العذابَ مِن الولادَةِ للفَناء..
نَمْ في هنَاء.
لا.. ليسَ ذَنبَكَ أنْ مَرضتَ فَلَمْ تَجد بعضَ الدَواء.
لا.. ليسَ ذَنبَكَ أنْ حُرِمتَ مِنَ الحَليبِ.. من الغذاء.
لا.. ليسَ ذَنبَكَ أنْ قُتِلتَ بغيرِ جُرمٍ أو سَبَب.
كَتَبَتْ لَكَ الأيامُ هذا المَوتَ يا وَلَدي.. إلى أينَ الهرَب؟
هوَ رُبَّما ذَنبي لأنِّي ما سَرَقتُ لأُطعِمَك.
هوَ رُبَّما ذَنبي لأنِّي ما نَهَبتُ وما قَتَلتُ وما فَجَرتُ وما.. كَفرتُ لأُطعِمَك..
لكِنْ حَبيبي.. ليسَ ذنبي أنْ دَعَوتُ فَلَمْ تُجِبْ طَلَبي السَماء..
نَمْ في هنَاء.

❖ ❖

نَمْ في هنَاء.
فَلَكَمْ حلمتُ بأنْ أُغَنِّيكَ السعادةَ والسرور..
وَلَكَمْ حلمتُ بأنْ أشيدَ لَكَ القُصور..
وبأنْ تَعضَّ على يَدي أسنانُكَ الأولى..
وبأنْ تَسيرَ إلى غَدي خُطواتكَ الأولى..
أنْ تَحرُسَ الوَطَنَ العَزيزَ كما حَرَستُ حُدودَهُ دَهراً طَويلاً..
أن أرقُصَ «الجوبي» بعُرسِكَ يا حَبيبي.
لكِنْ.. قُتِلتَ.. ولَمْ أُحَرِّكْ ساكِنًا؛ هذا نصيبي..
هذا نصيبي.. أنْ تَموتَ على يَدَيَّ.. ولَستُ أملِكُ أنْ أُعينَكَ بالدواء..
نَمْ في هنَاء.

❖ ❖

نَمْ في هنَاء.
يا مَنْ حَفَرتَ الحُزنَ في قَلبي وأعجَزتَ الرِثاء.
لو أستَطيع..
أُهديكَ عُمري كُلَّهُ.. لو أستَطيع..
أُهديكَ أيّامَ الرَبيع.
لو أستَطيع..
أخرَجتُ خِنجَرَ هذه الدُنيا الذي سَكَنَ الضُلوع.

لو أستَطيع..

أُهديكَ ما تَهوى وما تَحتاجُ يا طِفلي الرَضيع.

لو أستَطيع..

أُهديكَ جِسمًا لا يَجوع..

أُهديكَ عُمراً لا تَرَى مَرَضًا به.. لو أستَطيع..

لو أستَطيع..

أُهديكَ بعضًا مِنْ دواء.

نَمْ في هنَاء.

❖ ❖

نَمْ في هنَاء.

نَمْ يا حَبيبي.. قَدْ شَرِبت المُرَّ مَجبوراً إلى حَدِّ الثماله.

نَمْ يَا حَبيبي..

فمَتى رأيتَ بِهذه الدُنيا عَداله!

نَمْ إنَّ خَيراً ما فَعَلتَ.. فهذه الدُنيا حَقيره

تُعطي الوَضيعَ مُرادَهُ.. وتُعينُ مَنْ يَنْسى ضَميره

وتَدوسُ أحلامًا صغيره..

لِنَذوقَ آلامًا كَبيره.

❖ ❖

يا طائري المَذْبوح.. أتعبَكَ الصِراعُ مَعَ الحياة.

نَمْ.. إنَّ أوجاعَ الحَياة أَمَرُّ مِنْ وَجَعِ المَمات.

نَمْ أنتَ، واترُكْ لي الدُموع..

وامنَعْ عَن الشَمسِ الطُلوع.

إذهَبْ فَقَدْ صَدَعَ النِداء..

وفَتَحتَ بالآلام أبوابَ السَماء.

ما عادَ يَنْفَعُكَ الدواء.

ما عادَ يَنْفَعُكَ الدُعاء.

ما عاد يَنْفَعُكَ البُكاء.

مُتْ في هناء.

دِلِلّول.. يا الوَلَد يا بني.. دِلِلّول...

بغداد

محمد ابراهيم الحاج صالح



كنّا في العراق
رحلة إلى بلاد التاريخ والجغرافيا الممزّقة

دخلْنا بوّابةَ فندق الرشيد الشهير في الساعة الحادية عشرة ليلاً. كان هناك بضعةُ رجالٍ تكفي لمحةٌ من وجوههم كي يَعْلم المرءُ أنّهم رجالُ أمن. صعد واحدٌ منهم باب الحافلة وأدار عينيْه بخجل. تنحنح وأنشأ خطابَ الترحيب، الذي سنلْمس وجودَه الدائمَ على ألسنة العراقيّين أينما ذهبنا: «هَلاً... هَلاً عيوني. هلا ولْلا... هلا بالإخوة السوريِّين.» فيما بعد سنَعْلم أنَّ الأميركيِّين ليسوا وحدَهم الذين استَهْدفوا الفندقَ وإنما جرى فيه تفجيران. وسنرى بعد المدخل مباشرةً معرضًا دائمًا يتضمَّن صورًا فوتوغرافيَّةً لشهداء الفندق، منها صورةٌ لفتاة حلوة تبتسم للكاميرا بروح عذبة.

كانت أمتعتُنا ماتزال على الرصيف، عندما استعجلْنا الدخولَ تشوّقًا للدعس على صورة بوش التي تحتلّ موقعًا لا يُمْكن تجنُّبُه. وكنّا قد تداولْنا عبر الطريق الطويل نقاشاتٍ عن جدوى وطء صورة من رخام للرجل الذي أذاق العراقَ الويلَ: أليس من الأجدى أن يَسْلك العراقُ سلوكًا يُدخله إلى عالم اليوم، حتى لو كان عالمًا من نفاق أكثرَ منه عالمَ صدقٍ وأخلاقيّات؟

بوش الأب يكشّر عن أسنان دراكولا في المرمر. والدمُ الأحمرُ يغطّي جانبيْ فمه. أنا ممن يؤْمنون أنَّ التعقّل سلوكٌ لا بدّ منه لمن يريد انتزاع حقّ، ومع ذلك دُسْتُ على صورة بوش بتشفٍّ غريب! شعرتُ وأنا أضع قدمي على وجهه في المرمر أنّني لا أُخطئ في شيء، وأنّني أمارس نوعًا من التعبير بالحذاء في لحظةٍ لا تُعاد. في اليوم التالي سأراقب رجلاً يابانيّاً يُباعد قدميْه بطريقة مضحكة وهو يخطو كي لا يدوسَ على وجه بوش. فوجدتُني فيما بعد مدفوعًا، ليس من دون شعور باللاجدوى، إلى إثقال قدمي نكايةً كلّما مررتُ عبر الباب.

في الصباح كان لا بدَّ من حضور حفل افتتاح المؤتمر ودفْع رسوم التسجيل، على الرغم من أنّ دافع سفرنا الأول ـ نحن السبعين طبيبًا سوريّاً ـ كان على الغالب رؤيةَ العراق. أليس طبيعيّاً أن يَحْدث هذا بعد قطيعة دامت ثلاثين عامًا؟ لا خَجَلَ إذن في القول إنّ سبب سفرنا إلى مؤتمر علميّ لم يكن علميّاً.

كالعادة دخل وزيرُ الصحة العراقي بثياب عسكريّة. أتَنْفع في شيءٍ ثيابٌ تدلّ على عسكرة الحكومة بينما، مثلاً، شارون بثيابه المدنيّة يعسكر على دماء الفلسطينيِّين؟ مَنْ رأى طارق عزيز يتحدّث وهو يَلْبس البذلة العسكرية؟ أكانت تليق بحديثه الذي كثيرًا ما رغب بوضوح في أن يعطيَه طابعَ الثقافة العميقة؟ وَمَنْ رأى طه ياسين رمضان الذي يحبّ كما يبدو أن تكون بذلتُه ضيّقةً على الرغم من أنّ حديثه بات يتّسم شيئًا فشيئًا بالوسع والراحة؟ لكنْ أليس العراقُ في حالة حرب؟ أفلا يحقّ له إذنْ ممارسةُ سلوك رمزيّ كهذا؟

في قاعة المؤتمر، التي بدتْ لنا أعظمَ من أن تكون في بلدٍ محاصَر، كانت ثمّة مجموعةٌ من الأطفال لا تخطئ العينُ بؤسًا في أحذيتهم، ولكنّهم كانوا في ثياب احتفاليّة. في عيونهم إلحاحاتُ تردُّدٍ ودهشة. سرعان ما علمنا أنهم تلاميذُ مدرسةٍ للصمّ والبُكْم.



بدأ الاحتفال، وأخذت السيّدةُ التي ترعاهم مكانًا في الممرّ بين الجمهور. شرعتْ بالإيماء مع الموسيقى: موسيقى لصمٍّ. عيونُ الأطفال معلّقةٌ بالإشارات: طيرانٌ وتحليقٌ بالأذرع، علاماتُ ضمٍّ نحو الجوانح في الداخل، علاماتٌ برفرفة الشفاه وبالجسد رغبةً في الكلام، ثمّ في النهاية إلحاحٌ في الإشارات المتكررة نحو صورةٍ... لقبّة الصخرة المقدسيّة.

مُستبطئًا الدقائقَ، كنتُ أتحرّق رغبةً في انتهاء الشكليّات، كي أزوغَ هاربًا إلى قلب بغداد، بنيّة الذهاب أوّلاً إلى شارع المتنبي. في الاستراحة، ولأنّني لا أعرف عنوانَ أيّ مثقّف عراقيّ، سألتُ أحد المنظِّمين عن عدد منهم، فلم أحظَ سوى بعنوان الشاعر حميد سعيد، الذي عَلِمتُ أنّه كبيرُ أمناء بيت الحكمة. أعْترف أنّ الاصطلاح هالني: «كبيرُ أمناء بيت الحكمة.» لكنّي بتّ أملك عنوانًا على الأقلّ.

سيّاراتُ الأجرة في بغداد كثيرةٌ كثرةَ النمل، وسائقوها هم الشريحة التي سنحتكّ بها أكثرَ من غيرها. إنّما لا يَعْدم أن تباغتكَ سيّارةٌ خاصةٌ تزاحم للفوز في اقتناصك. نسبة عالية من السائقين حملةُ شهاداتٍ عليا مال بهم الزمانُ مثلما مال بالعراق. بادرتُ السائقَ بتحيّة تعمّدتُ أن تكون بلهجة سوريّة واضحة، فأنشأ السائقُ على الفور مطوّلةَ الترحيب التي سنعتادها. السائق خرّيجُ رياضيّات، وأمثالُه كثر يَقْتلهم الحياءُ كلّما أخْرجنا النّقودَ لدفع الأجرة. فيما بعد سنَشْرع في الهرب بعد إلقاء النقود على المقعد. طبعًا لم يكن جميع السائقين بمثل هذه الروح؛ فالأولاد في البيت ينتظرون اللُّقمةَ.

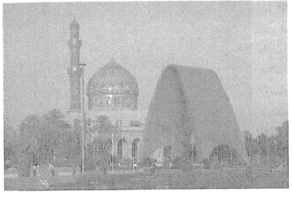
شارع المتنبّي يَعْكس جزءًا من حال الثقافة العراقيّة، ومن حال المثقّفين العراقيّين. مكتباتٌ لها طابعٌ أشبهُ بدكاكين البقالة في الأسواق العربيّة القديمة، تغصّ بالكتب، جلُّها قديمٌ، والحديثُ منها تراثيٌّ وتاريخيٌّ. على الأرصفة باعةُ كتب وأقراص كمبيوتر. أخذتُ الرصيفَ ذهابًا وإيابًا وأنا أسأل عن الطبعة غير المهذّبة لـ **ألف ليلة وليلة**، من طباعة مطبعة بولاق المصريّة وتصوير دار النهضة في بغداد، فأتلقّى إجابةً واحدة: «ما كو!» ثمّ شرعتُ في الدخول إلى المكتبات واحدةً واحدةً، فيرحّبُ بي على الدوام فور أن تُلْتَقَطَ لهجتي. هنا أيضًا لم أستطع الحصولَ سوى على هاتفيْ لطفيّة الدليمي وماجد السامرّائي، رغم أنّني سألتُ عن كثيرين.

قال رجلٌ يفتّش في الكتب مثلي حين سمعني أسأل عن لطفيّة الدليمي: «هذي كاتبة شيوعيّة.» ولمّا رأى أنّني لم أرتكس، أعاد: «... كاتبة شيوعيّة» مصراً على النظر في عينيّ. قلتُ: «وإذا كان؟!» لاحقًا عندما هتفتُ للطفيّة قلتُ مداعبًا إنّ رجلاً قال كذا وكذا، فارتبكتْ وهي تقول: «لا... ولّلا...» فغيّرتُ الحديث لائمًا نفسي على افتتاح أول حديث هاتفيّ بنميمةٍ كهذه.

صاحبُ مكتبة أربعينيُّ العمر لاحَظَ لهجتي وحركتي بين المكتبات. دعاني إلى كأس شاي بطريقة تُظهر رغبةً في الحديث. تعارفنا سريعًا. ولأنّ كنْيته كانت ذات جرس تاريخيّ ـ «الجنّابي» ـ فقد مازحتُه عن درجة القرابة التي تربطه بأبي سعيد الجنّابي وعمّا إذا كانت فرسُه لاتزال مقيّدةً إلى جانب قبره! ذاك المزاحُ كان مفتاحَ الدخول في حديث دام طويلاً، اقتنيتُ خلاله بضعةَ كتب، وعلمتُ خلاله أيضًا أنّه كان كاتبَ قصّة وأنّه ترك الكتابة احتجاجًا. لن أنسى الغصّةَ التي تكلّم بها وهو يشكو من إغلاق الصفحات الثقافيّة في الجرائد العراقية على أسماء قلّما كانت جديرةً، أمّا أكثرُها فمُتسلّقٌ تسلُّقَ النبات الطفيْليّ. عند الباب أهداني كتابًا لـ«جنابيّ» آخر. مازحتُه مواسيًا: «كأنّكم، آلَ الجنّابي، لم يَكْفكم التاريخ، فأردتم الاستيلاءَ على الثقافة أيضًا.»

◆ ◆ ◆

كنّا بدءًا من الحدود قد شممنا رائحةَ تعطّش العراقيّين إلى علاقة اقتصاديّة مع سورية، وهو أمر مفهوم. لكنّ العطش الأكبر، بلْ السُّهاف الذي لا يرتوي، كان في رغبتهم في علاقةٍ أعلى إنسانياً. إنّما الرغائب شيءٌ وواقعُ الحال شيء آخر. فقد صرفنا بين النقطة الحدوديّة السوريّة والنقطة العراقية أربعَ ساعات، ثلاثًا منها عند إخواننا العراقيّين. هذه الفترة الدهريّة في الانتظار لم ينقصْ منها فرحُ رجال الأمن والجمارك بالعلاقة المستجدّة؛ أظنّهم كانوا فرحين ومتحمّسين بسبب استئناف وظيفتهم بعد طول قعود: إنّه «العمل!» على الأشبار الأخيرة من الأرض السوريّة يقوم نُصبٌ بالطول الكامل للرئيس الراحل حافظ الأسد، بابتسامته الخفيفة الشهيرة. وعلى الأشبار الأولى من الأرض العراقيّة يقوم نُصبٌ آخر بالطول الكامل أيضًا للرئيس صدّام حسين بملامحه الصارمة. كلاهما له واجهة تُطلّ من الجهة الأخرى على أرض بلاده. النُّصْبَان يقومان على قاعدتيْن ترتفعان متريْن، ويقيس كلٌّ منهما خمسة أمتار ارتفاعًا بعرض ثلاثة أمتار تقريبًا. سألتُ أحد رجال أمننا: «مَنِ الذي بنى نُصبَ رئيسه أوّلاً، نحن أم هم؟» حدجني بنظرة تستطلع ما وراء السؤال، ثمّ غمغم: «أنا جديدٌ هنا!»



في إحدى مراحل تخليص أوراقنا كان موظّف عراقيّ وحيد يقوم بعمل ثقيل: يكدّس الجوازات. يتناولها واحدًا واحدًا. ينظر إلى الاسم والمهنة وصفحةِ التأشيرة. يكتب الاسمَ والمهنةَ وسببَ الزيارة على الورق، ثم يُدْخله إلى الكمبيوتر. يَخْتم الجوازَ بختم تبيّن لنا أنّه خاصٌ بعام ٢٠٠١. يُصحّح رقمَ الآحاد من ١ إلى ٢ يدويًا. يُزيح الجوازَ إلى الطرف الثاني. ولمّا انتهى، نادانا بأسمائنا واحدًا واحدًا.

◆ ◆ ◆

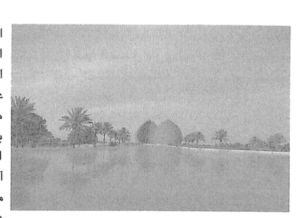
فور صعودنا الحافلةَ مُتجهين إلى قلب الأرض العراقيّة، انقسمنا بين مَنْ يريد المرورَ بمدينة الرمادي، ومُستعجلين لا يريدون ذلك. الفرق حاسمٌ هنا بين طريقٍ عاديّ وطريقٍ سريع. شيئًا فشيئًا علمنا أنّ أحدنا كان قد هتف لأقاربه الذين يسكنون مدينةَ الرمادي، وأنّه يَحْمل هدايا لهم. حَسَمَ وجودُ الهدايا النقاشَ لصالح المرور بالمدينة. وأظنّنا جميعًا وجدنا لياقةً طريفةً في أن يَحْمل واحدٌ منّا هدايا لأفراد عراقيّين لا نعرفهم نحن ولا صاحبُ الهدايا يعرفهم. وعندما علمنا أنّ البيت الذي سنمرّ به يقع أمام فرع حزب البعث في الرمادي انطلقت التعليقاتُ والنّكاتُ التي تصبّ في معنى واحد: «أوّل ماااا هجم قُتِل!!.»
ليس من غرابة هنا. فلفظُ اسم «العراق،» مجرّدُ لفظه، كان في نفوسنا مشكلةً أمنيّةً قبل فترة يسيرة. يتداول السوريون نكتة معبّرة عن رجل تقدّم لعضويّة حزب البعث، ومن الأسئلة التي يُفحص بها طالبُ الانتساب سئل: «ما يحدّ سوريّةَ من الشرق؟» صمت الرجلُ صمتًا عميقًا. ورغم محاولات الإيحاء والتقريب والمساعدة ظلّ صامتًا. وهو ما دفع بأحد أعضاء اللجنة الفاحصة إلى الاستنكار: «غريب! ألا تعرف أنّ العراق يحد سوريّة من الشرق؟!» فاستبشر المفحوصُ متخلّصًا من مأزقه صارخًا: «أنت الذي قلتَ ذلك، أنت الذي قلت ذلك!»
كانوا في انتظارنا: شيخ كبير في السنّ يُرحِّب بصوتٍ عالٍ، ومجموعةٌ من الشبّان تردّد الترحيبَ بصوت أخفض، والقبلاتُ لنا جميعًا. دخلنا إلى مضافة وسيعة مفروشة بالسجّاد، وحول الجدران اصطفّتْ مقاعد. البيت من الخارج ومن الداخل يوحي بالغنى. أوّل الضيافة ماءٌ ممزوج بالهيل، ثمّ الشاي، فالقهوة. لاحظ مضيفُنا أنّنا نتهامس برغبتنا في المغادرة. فقال بصوت مرتفع: «غداؤكم، الذي أصبح عشاءً، جاهز.» تَسابَقَ بعضُنا ممن لا يَعْرف عادات الضيافة القبليّة بالجهر: «لسنا جائعين... تغدّينا في استراحة.» ظلّ الرجل هادئًا وهو يلفظ مازحًا: «ذوقوا طعامنا أوّلاً. ثمّ إنّنا لن نَسْمح بحمله معكم!» وقوفًا إلى جنب طاولة مديدة عامرة، تناولنا ـ نحن الأفرادَ الستّةَ والعشرين ـ طعامًا لذيذًا، ناسين أننا أكلنا منذ ساعتين وأنّنا صرّحنا بذلك.
في الحادية عشرة كنا في باحة الفندق، بعد أن اجتزنا جزءًا من بغداد نتأمّل اللافتات والأضواءَ والأبنيةَ التي لاحظنا مبكّرين جرأةَ مصمّميها في دفع الشرفات إلى الخارج وكأنّها تريد أخذَ حيّزٍ إضافيّ: ألهذا علاقةٌ برغبة العراقيّين في ميناء يُطلُّ على الخليج؟ ألهذا علاقة بالذريعة العراقيّة في الكويت؟! أَوَتتوقُ الذاتُ العراقيّةُ إلى الامتداد؟
من قرب شارع المتنبّي أخذتُ سيّارةً إلى بيت الحكمة، وعلى الفور شرعتُ في الحديث مع السائق. هل قلت من قبلُ إنّ السائقين كانوا محاورينا الأكثرَ جرأةً؟ سألتُه عن دخله، عن عائلته وعدد أولاده، عن التعليم، عن الأمن في البلاد. هو الآخر مهندس يعمل عملين.

◆ ◆ ◆

بيت الحكمة مثلما يراه المرءُ في التلفزيون: واجهة تنطق بهيبة التاريخ. بابٌ خشبيّ عتيق وضخم. بلاطٌ حديث لا ينسجم والإحساسَ التليدَ بثقل التاريخ. سألتُ رجلاً خلف طاولة في غرفةٍ سقفُها العالي يُبرز عدمَ الاتّساق بين الضخامة والفخامة في الجدران والنوافذ من جهة، والضآلةِ في المكتب وفي حجم ذلك الرجل من جهة ثانية: «أنا كاتب وطبيبٌ سوريّ. هلْ لي أن أُقابل كبيرَ الأمناء الشاعر حميد سعيد؟» نهض الرجل بخفّة مرحِّبًا. هتف لأحدٍ ما مُعلنًا وجودي بكلماتي ذاتها، وانتظر قليلاً ليُعْلمني أنّه في اجتماع وأنّه سيرسل إليّ مدير مكتبه، الذي حضر سريعًا وأبلغني بكلمات موزونة كما لو أنّه اعتاد لفظها كثيرًا: «الأستاذ حميد مشغولٌ جداً، ويتمنّى عليّ أن أَقْبَل ـ إذا سمح وقتي ـ موعدًا عند الساعة السادسة مساء الغد.» وعرض عليّ مرافقته للتعرّف على نشاط بيت الحكمة، فتبعتُه وهو يدلي ببيان المعلومات: «هذا جدول مواعيد النشاط. محاضرات. حوارات. أمسيات. بيت الحكمة كان قصرًا لابنة الخليفة العبّاسي. ثمّ بيمارستان. ثمّ حوّله الأتراكُ إسطبلاً للخيول. وبعد ذلك اتخذه البريطانيون مصنعًا للسيّارات.» فيما بعد عندما سأقابل حميد سعيد سيلْفظ مكرِّرًا تحت إحساسه بدهشتي: «نحن هنا في بيت الحكمة. هايد پارك بغداد. نعم هايد پارك بغداد!»

◆ ◆ ◆

... مساءَ اليوم التالي وصلتُ متأخّرًا عن موعدي نصفَ ساعة؛ فالمسافات في بغداد مسافاتُ سفر حقيقيّ. فور دخولي رافقني رجلٌ إلى باب غرفة في الطابق الثاني. حميد سعيد خلف المكتب. أعرف صورتَه من الصحف. معه رجلٌ تذكّرتُ فورًا أنّه هو الذي كان يعلّق على البرنامج الذي أثار السعوديّين عبر الفضائيّة العراقيّة. تعارفنا بودّ ظاهر. كان الرجل هو الدكتور قيس محمد نوري



الذي سألمس منه رقّة ولطفًا لم يكن يوحي بهما برنامجُه الذي تابعه السوريُّون بنوع من الاهتمام غير معزول عن الهاجس السوريّ الأبديّ في تحسّس أحوال الأمّة. شتّ بنا الحديثُ هنا وهناك: من علي الجندي، إلى ممدوح عدوان، فبرهان غليون الذي خُصّ بنوع من التلميح الغامض، وانتهاءً بمحمد الماغوط الذي علمتُ هناك ـ في بغداد ـ أنّه مريض يكاد لا يرى بعينيه. عرّجنا على حال الصحافة السوريّة والعراقيّة. سُئلتُ عن صحيفة علي فرزتْ، وكانت متوقّفةً آنذاك، فقلتُ إنّها توقّفتْ بسبب عزم الحكومة على توزيعها من قبل مؤسسة التوزيع حصرًا، وهذا يحدُّ من أرباح صاحبها وربّما من عمله أيضًا. تحمّس الدكتور قيس في كلامه: «عندنا مؤسّسة تقوم بالعمل ذاته. أنا أسمّيها: المؤسّسة الوطنيّة للاَتوزيع لأنّها لا تقوم إلا باللاتوزيع حصرًا!» أخيرًا وصل الحديثُ إلى بيت الحكمة، فنطق كبيرُ الأمناء بتلك الجملة التي أدهشتني وبدتْ لي خارجَ مألوف معرفتي عن العراق: «نحن هنا في بيت الحكمة... هايد بارك بغداد.» أعادها مرتين وهو يرى التعبير الذي ارتسم على وجهي، مُضيفًا: «حتى الشيوعيُّون يأتون للمناقشة وعرض أفكارهم!» لا بدّ أنّ دهشتي كانت مضاعفةً ـ مرّة للهايد پارك، ومرّة للشيوعيِّين. وكأنّ حديثي، الذي ذهب إلى نقد خفيف للصحافة العراقيّة التي كنتُ أَطَّلع عليها عبر الانترنيت، قد فتح بابًا ذا شجون، إذ سمعتُ منهما ذمًّا للإعلام العراقيّ أَظْهر مدى إدراكهما كمثقّفيْن كبيريْن، ومفادُه أنْ «ليس هكذا تُورَدُ الإبلُ،» مع إيحاءٍ بأنّ الأمور ستؤول إلى الأفضل، وأنّهم ـ في بيت الحكمة مثلاً ـ مخوَّلون من الرئاسة مباشرةً. أهديتُهما كتبًا. وأهدياني مجلاتٍ متخصِّصةً أعلماني أنّ كلاً منها تَطْبع ألفيْ نسخة. وافترقنا افتراقَ الذين لن يلتقوا في القريب العاجل ـ لكنْ لا: فللعراقيِّين طريقةٌ في الاحتفاء طريفةٌ ومفاجئة.

◆ ◆ ◆

برجُ صدّام برجٌ عالٍ كما هي الأبراج. في قمته مطعمٌ. فوجئنا أنّ التصوير فيه ممنوع. أيعقل هذا؟! فالأقمار الصناعيّة تصوِّر مواقعَ أصغر! ولكنْ ما إنْ عَلِمَ رجالُ الأمن أنّنا سوريّون حتى سمحوا لنا بالتقاط الصور. ومن أعلى البرج شاهدنا بغداد آفاقًا من النخيل والشوارع والأبنية. إنّ العراق بلدٌ راسخٌ ثقيل. المقاماتُ الشيعيّة تحفةٌ من التحف في فخامتها وضخامتها وتزيينها الباهر، لكنّ ازدحامها ونقصَ التنظيم فيها أمران مزعجان. الإيرانيُّون موجودون بكثرة فيها، بلْ والسعوديُّون أيضًا. أتصدِّقون؟

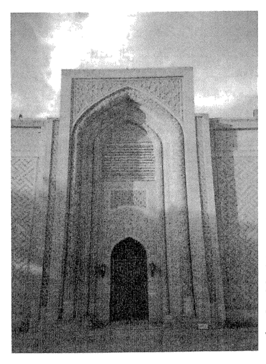
بقدر ما اتّسعت السيّارةُ ركبنا، على أنْ يلحقنا آخرون. والهدف: شارعُ أبو نواس. ما هي إلاّ بضعُ كلمات متبادلة مع السائق حتى علم أنّنا نريد التعرّفَ على الوجبة العراقية: السمك المسكوف. والأهمّ أنّنا نتحرّق شوقًا إلى رؤية شارع أبو نواس. فإذا به ينشئ هجاءً مريرًا للحياة البغدادية: «الشارع الذي سمعتم عنه مات. لم يعد شارعَ الفرح والمرح واللذّة.» شدّنا الأسى في صوته إلى الإصغاء. «كانت أيّامًا، وكان الشبابُ المحبُّ للحياة والشبابُ المثقّفُ المتحرِّرُ يأتون إلى شارع أبو نواس ليقضوا ما بعد الظهر، وربّما امتد زمنُ المتعة إلى ما بعد منتصف الليل، شربًا وأكلاً وضحكًا وسياسةً وثقافةً. جيلُنا تمتّع ولعب وعرف. لكنْ ما يحزّ في النفس هو جيلُ الشباب الآن. أنا أُشفق على حاله. حياة فقيرة ومتع قليلة. من قبل كان شارعُ أبو نواس، هذا الممتدُّ طولاً، يغصّ بالبارات والمطاعم والشباب، أمّا الآن...» أين ذهب ذلك كلّه؟! تساءلنا. «ذهبتْ به الحروب والـ ...» الـ «ماذا؟» تساءلنا. «المواقع الرئاسيّة» قال، وهو يُشير إلى قصر ضخمٍ يُشيَّد على الجانب الآخر من دجلة. وبحسرة قال: «نحن العراقيِّين نسينا الفرح.»

◆ ◆ ◆

مساءَ اليوم الثاني كان الشاعر السوريّ صالح الرّحّال قد سبقني في النزول إلى صالة عشتار. هنا التاريخ في كلّ مكان، حيثما ذهبتَ وحيثما التفتَّ تجد للتاريخ بصمةً عبر اسم أو آبدة. وكانت هناك لطفيّة الدليمي وماجد السامرّائي. أعرفهما أيضًا من صورهما في الجرائد. وكان رجلٌ آخر من دائرة الشؤون الثقافية التابعة لوزارة الثقافة. سيُفاجئنا الرجلُ بدعوة إلى سهرة باسم الشاعر حميد سعيد. «يا إلهي! يا لَسِحْر رابطة الكتابة! مَنْ قال إنّنا سنجتمع بلا سابق معرفة!» ذلك هو ما لَفظتْه لطفيّة بسعادةٍ سنَعْلم أنّها تَعْكس غبطةَ المحاصَرين إذْ يجدون مَنْ يعرفهم ويتحسّس أحوالَهم من بُعْدٍ.

كنتُ سأستقبلُهم فور مدّ يدي للمصافحة، لولا تلك المسافةُ التي تنطبع على ملامح العراقيّ وهو يتعرّف على الآخرين: مزيجٌ من الإقبال والكفّ، لكنْ ليس بغير ابتسامةٍ عريضةٍ ورشقةٍ من تأهيلٍ وترحيب. دقائقَ وإذا بنا نغوص في نقاش عن حال الثقافة العربيّة بالكلمات التي يمكن أن تَرِدَ في نقاش على طاولة في مقهى الروضة في دمشق، لا فرق... إلاّ من تلك الشكوى الدفينة عن نقص الكتب والدوريّات، وإلاّ من سلوكٍ يُبْرز رغبةً في الحديث المتصل ونقصًا في الإصغاء. فثمة رغبةٌ عارمةٌ في التعبير عن الذات، تبرِّرها العزلةُ والحصارُ؛ وهذا هو التفسير المحتمل.

بحبٍّ وبلا كللٍ تحدث ماجد عن مثقّفين عرب وسوريّين يعرفهم، عن السياسة، عن الثقافة، عن العولمة الثقافيّة، عن... وعن... مُبديًا ثقافةً واسعةً لكنّه أبدًا كان يؤُول إلى خلاصات سياسيّة لا يمكن فهمُها إلا في ضوء الحصار على بلاده. اختلفنا على مفهوم «الغرب» كمنتج للثقافة في عصرنا. كان يريد، تساعده لطفيّة، أن يُبْرز دورًا للثقافة العربيّة أكبرَ ممّا تَصَوّره لديّ. حين ودّعناهما همستْ لطفيّة بأنّ في كتابها الذي أهدتنا إيّاه قصّةً كانت قد رُفضتْ. وممن؟ مِنْ ماجد نفسه (!) لصفحة ثقافيّة يحرِّرها. وقالت بحزن إنّها أدخلتْ رفضَه في نسيج القصة، وأكملتْها بثوب جديد، ثمّ نشرتْها في هذا الكتاب.
غرفةٌ صغيرة تنفتح على مدخل في قلب زقاق يتصل بسوق كبيرة، ومن الجهة الثانية تنفتح على شقّة غير مسكونة على الأرجح. الترحيب مشفوع بابتسامات مُحرَجة سنعرف أنّها نوعٌ من اعتذار عن سهرة لمثقّفين في«الخفاء» ـ فالكحول ممنوعٌ. سيقول لنا صاحبُ محلّ لبنانيُّ الأصل متزوّجٌ من عراقيّة: «الكحول ممنوع في المحلات العامة لأنّ الرئيس، الله يحفظه، يقود حملةً إيمانيّة.» في مثل هذا الكلام لا يمكنك أنْ تعرف إنْ كان الكلامُ نوعًا من الاحتجاج أم هو نقلُ معلومةٍ لا غير؛ فالوجوه ورنّةُ الحروف هنا تكتسب حياديّةً عجيبةً. لكنّ المواطنين العاديّين سيؤيّدون هذا المنعَ بكلماتٍ مدعومةٍ بآيات وأحاديث.
حميد سعيد جاء متأخّرًا. مائدة خليطة من مزّة سوريّة ولبنانيّة وعراقيّة. والحديث حديثُ مجاملاتٍ وأسئلةٍ عن أخبار المثقّفين والكتّاب السوريّين، حديثٌ أخذَ وقتًا ما كان ليأخذه لولا حرجُ الجلسة الحميمة التي يُفترض بها أن تزيح الحواجزَ. لكنّ الحواجز موجودةٌ في النّفوس، ومكرّسةٌ بقطيعة ثلاثين سنة. الغريب أنّنا وجدنا العراقيّين العاديّين أصحابَ نكتة، بينما كان المثقفون خالين منها، إذْ بعد عدّة نكتٍ منّا مختارةٍ بعناية على تخوم السياسة والجنس تبيّن لنا أنّ الاستجابة متحفّظة. وعلى العكس بدتْ وجوهُ مُضيفينا مهتمّةً عندما بدأ الحديثُ جديًا عن حلقة «الاتجاه المعاكس» التي بثّتها قناةُ الشباب العراقيّة على الهواء مباشرةً نقلاً عن قناة الجزيرة. الصحون اللاقطة للفضائيّات ممنوعة في العراق. يُحْبس مَنْ ضُبِطَ يمتلك دِشاً ستةَ أشهر مع غرامة تبلغ ثلاثةَ أضعاف ثمن الجهاز. كان البرنامج ملاكمةً كلاميّةً بين مصريّ وكويتيّ، والموضوعُ المُتَناول: الكويت والعراق. تعليقًا عليه، باغتنا حميد سعيد بنظرة رزينة سياسيّاً: «إنّه حوار لا حوار فيه، وإساءته أكبر بكثير من فائدته.» لكنّه لم يخفِ سرورَه من غلطة الكويتيّ في قوله: «طزٌ على الأمة العربيّة!»
السهرة تتقدّم والكلامُ يذهب ويأتي، ولكنّه يعود دومًا إلى النافذة الوحيدة تقريبًا التي يطلّ منها العراقُ إعلاميّاً: الفضائيّات. سألوا، وانتبهوا جيّدًا إلى أجوبتنا: «كيف كان المحاورُ العراقيُّ في الفضائيّات؟ هل تعاطف الناسُ معه؟» بصراحة أجبتُ: «الناس متعاطفون مع الألم العراقيّ سلفًا.» (بالمناسبة، أيُّ ذِكْرٍ للألم العراقيّ، تصريحًا أو تلميحًا، يُحْرج العراقيّين الذين التقيناهم ويجعلهم يصمتون صمتًا عميقًا. أهي عزّةُ العزيز إذْ يخجل؟ أم هو مركّبٌ نفسيّ كوّنته العزلةُ والحصار؟) «لكنْ»، قلتُ، «لمْ نشهدْ أيَّ مُحاورٍ أعجَبَ الناسَ سوى بعض الأساتذة الجامعيّين الذين بدأت الفضائيّاتُ تستضيفهم في الشهر الأخير. بصراحة كان المحاورُ العراقيُّ دومًا محصورًا في خانة الخطاب الرسميّ دون قدرات شخصيّة، دون مَلاحةِ كلام، دون سخريةٍ محبّبة. لغته ناشفة. لغة من خشب.» «حتّى الهاشمي،» سألونا. الهاشمي، كما أظنُّ، هو أحد مستشاري الرئيس. «حتى الهاشمي،» أجبتُ.

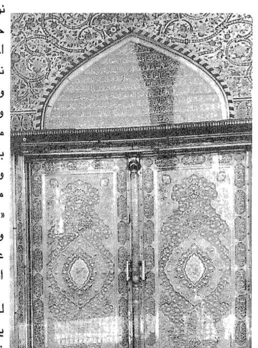


حدّثنا حميد سعيد عن صداقته لصباح فخري «أبو محمّد» بطريقة فيها الكثيرُ من الحنين والحبّ. حدّثنا عن سوق الحميديّة، وعن أماكن لا أعرفها. كثيرٌ من العراقيّين يحدّثونك عن أماكن في دمشق لا تَخْبرها أنت السوريّ. سألتني لطفيّة الدليمي عن جبل العشّاق قرب دمشق، أما زال...؟!. ولما سألتُ رفقاءَ السفر ما إذا كانوا يَعْرفون موقعَ جبل العشّاق لم أجد مَنْ يعرفه. «حدّثْنا عن بوظة بكداش. عن الاستراحات بين دمشق وحلب. عن معرّة النعمان.» وعندما عاد النقاش إلى نوع من السياسة كان مدخلَه لقاءُ رئيس اتحاد كتّاب العراق برئيس اتّحاد سورية والعرب علي عقلة عرسان، أطلقتُ أنا دعابةً ليستْ خاليةً من خبث: «أتمنّى أن أَعْلم لماذا تتقاتلون أنتم البعثيّين، ولماذا تتصالحون؟» هنا علّق حميد سعيد بما يعني: صعب. صعبٌ جداً. إنّها حالة من الرّسوخ في العلم!
أُهدينا لوحتان. فتحتُ هديّتي المغلّفة ما إنْ اختليتُ بنفسي، فوجدتُها لوحةً تشكيليّةً بالألوان الزيتيّة تُمثّل أمّاً تحمل طفلَها في زقاق ذي طابع عراقيّ تتكوم بيوتُه مزدحمةً وتتناوق شرفاتُه الخشبيّةُ بفضول. ولأنّي ممتنّ وواجبي يَفْرض عليَّ شكْرَ مضيفينا وشكْر الشاعر حميد سعيد مُقدِّم الهديّة والمبادر إلى إشعارنا بأنّنا محبوبون ومرحَّبٌ بنا في بلدٍ كريمٍ رغْم ظروفه، فقد

بادرتُ فور وصولي إلى إرسال رسالتيْن بالبريد الإلكترونيّ. فجاءني الردّ من الملقّم بسرعة إطلاق الرصاص (أمِنَ المصادفة تسميتُه بالملقّم؟): «العناوين التالية احتوت أخطاءً دائمة قاتلة..» .The following addresses had permanent fatal errors:
سأحاول مرات ومرّات إرسال الرسالتين، لكنّ الجواب كان هو ذاته. أدركتُ أنّ الرسالتيْن لن تصلا وأنْ ليس للكولونيل مَنْ يكاتبه. كولونيلُ ماركيز أمضى عقودًا ينتظر رسالةً لم تصل أبدًا، ونحن بعد قطيعة ثلاثة عقود ليس لنا أنْ نتراسل أبدًا. كولونيلُ ماركيز يعيش في اللغة، أمّا نحن فنعيش في الواقع. هاتوا أروني فنتازيا أعلى من هذه الفنتازيا.

◆ ◆ ◆

صباحَ يوم الخميس لاحظناهم في بهو الفندق يسألون عن زميليْن من زملائنا بصفتهما مِن أقاربهم. كثيرون منّا حكّتْهم غدّةُ المداعبة الساخرة، فراحوا يعلّقون على قرابات تَظْهر هكذا فجأةً بعد دهر من التخلّي والصمت، مُستعيرين من عادل إمام قوْلتَه الطريفة: «دا ربّنا لُهْ حاجات!» من «حاجات ربنا» أنْ يجد المرءُ نفسَه محاطًا باحتفاء كهذا. أنا شخصيّاً، عذرًا، توقّعتُ أن تكون الشخصيّةُ العراقيّةُ ذاتَ طابع جلفٍ وصلبٍ ومعزول، فإذا بي أرى بشرًا دمثين قوّالين كرامًا.
انطلقنا نحو كربلاء برفقة مستضيفينا الجدد الذين اقتحموا علينا فندقَ الرشيد بحثًا عن «أقارب» سمعوا أنّهم يَحْضرون مؤتمرًا طبيًا! مررنا بساحة الاحتفالات الكبرى من تحت السيفيْن الهائليْن المتقاطعيْن، وبنُصْب الشهداء ذي التكوين الغرائبيّ الفخم، وبقبّةٍ مزيّنةٍ بشغلٍ معماريٍّ فريدٍ حسبناها لأحد الأولياء فإذا بها قبرُ أحمد ميشيل عفلق «أبو محمّد» مؤسّس حزب البعث!
نخيلٌ. غابات من نخيل، والطريق ازدحام. دلائلُ كثيرة على أنّ العراق غنيّ لكنّه مُعوّق. قال أحدُ مستضيفينا وهو معلّم متقاعد: «إحدى مشاكلنا، نحن العراقيّين، تكمن في أنّنا اعتمدنا على الدولة، والدولةُ مدّت في حضانتها مسرورةً في أنْ تكون هي ربَّ العائلة الذي لا يَخْرج عن طوعه أحدٌ مادام جيبُه عامرًا بالمال. في أواخر السبعينيّات كان راتبي ١٢٠٠ دولار...»
ربّما تفاجأون أنّ كلّ شيء في العراق يُحسب بالدولار. حتى صاحبُ المحلّ الصغير يبيعك بالدولار. طبعًا يمكنك الدفعُ بالليرة السوريّة، لكنْ بعد تحويلةٍ ذهنيّةٍ مرورًا بالدولار. تجد البائع وقد غرز عينَه في الفضاء، أو يتناول الآلةَ الحاسبةَ ويبدأ بالضغط على الأزرار، يَلْفظ بعدها السعرَ بالليرة مهتديًا بالدولار. في منتصف المسافة إلى كربلاء رأينا وزيرَ الصناعة السوريَّة الزائر ينزل من سيّارته ليشتري برتقالاً. أوقفْنا الحافلةَ لنرى كيف يشتري وزيرٌ. ولمّا رأينا أنّه، مثل كلّ الناس، حمل كيسًا من البلاستيك عائدًا إلى سيّارته، رحنا نتمازح عن قيمةِ وزيرٍ لا تسير في رَكْبه «مرافَقةٌ» لأفرادها طولٌ فارعٌ ونظّاراتٌ سود.
ساحة كبيرة تحيط بمقامي العبّاس والحسين. حول الساحة فنادقُ من طابوق ذات طابقين، لا أكثر. ربما كانت الفكرةُ المعماريّةُ وراء تواضعها في الارتفاع أن لا تعلو على ذيْنك المقامين. المقامان من الخارج متشابهان، وهما كذلك من الداخل باستثناء بعض التفاصيل. الجدران الخارجيّة مكسوّةٌ بالقيشاني الذي يَغْلب عليه اللونُ الأزرق. أليس من الغرابة حقّاً أن لا يَرِدَ إلى ذهن المعماريّين لونُ الدم مادامت مأساةُ آل البيت مضمَّخةً بالدم؟ في الداخل تتبطّن الجدرانُ والقبابُ والسقوفُ بمتاهات من مرايا توحي بسماء من نور يتلألأ، لكنّها سماء متشظّية دونما وحدة. نَخْلع أحذيتَنا في الباحة. نسير حفاةً في الموكب المتزاحم. يدافعنا موكبُ جنازة يطوّف به حاملوه في أنحاء المقام. يُقال إنّ الميت يعي تلك الجولة التي يخصّه بها أحبّاؤه لتوديع الدنيا. نطوف بقبر العبّاس في المقام الأوّل، وبقبر الحسيْن في المقام الثاني. أُشْده وأنا أرى نساءً يتعلّقن بمطرقة البوّابة الضخمة ويَقْرعن بوهنٍ ولكنْ بإلحاح، وكأنّهنّ يَزُرْنَ بيتًا خاصًا لا موقعًا يزدحم بآلاف مؤلّفة. أسمع همسًا كأنّه مناجاة للنفس: «يا حسين...» عجائزُ يتحسّسن خشبَ الأبواب والجدران بخشية وحنان كما لو أنّهن يتحسّسن جزءًا حيّاً من ميّت مضت عليه دهورٌ ودهورٌ. نقف مع الواقفين وأيديهم مشرَّعةٌ في الفضاء استقبالاً لرحمة تتنزّل من السماء. نقرأ دعاءً في نصٍّ معلّقٍ على الجدار، ونَلْفظ مثلما يلفظون «آميييين.» إنّه شباط، ومع ذلك نتعرّق ونفتقر إلى النَّفَس. الصدورُ مزحومة، والأقدامُ تتماسّ وتطأ بعضُها البعضَ. نخرج إلى الهواء. نلتقط صورًا. نبحث عن عباءات ثمينة. نجد ولا نشتري، مؤجّلين الشراءَ، وكأنّنا سنمضي في العراق دهرًا، ثم نندم في كلّ مرّة ونقول: «ليتنا اشترينا!»



◆ ◆ ◆

لم يعد من الممكن زيارةُ النجف؛ فالوقت تداركَنا، ومضيفونا يُبدون قلقًا يحاولون كتمانه. ونحن نبدي تردّدًا بين حَرَجنا وما سنندم عليه من تفويت فرصة زيارة النجف. أخيرًا نقرّر أن نستسلم. على الطريق نفسه نحو بغداد



نمرّ بجسر المسيّب الذي تَذْكره الأغنيةُ العراقيّةُ الشهيرة. ننحرف عن الطريق العامّ ونوغل في ريف قضاء «المحاويل.» لا بؤس في ما نراه. ريف جميلٌ محضونٌ بغابات نخيل. تستثيرني مَدْرسةٌ، أبوابُها منتظمة، جدرانُها مستقيمة نظيفة، دهانُها حديث، وباحتُها تبدو من أعلى الطريق مرصوفةً وأنيقةً. أستذكر فيلمًا بثّتْه قناةُ الجزيرة يُظهر بؤسًا منقطع النظير لتلاميذ عراقيّين بثياب عتيقة. لا مقاعد. لا زجاج في النوافذ. والسبّورة لوح خشبيّ ماذرٌ. أَذْكر دموعي التي داريتُها عن عائلتي، لأفاجأ بعد لحظات أنّني لست الوحيد. كنّا جميعًا نداري دموعَنا كأنّنا خجلون مما نرى، كأنّنا مسؤولون عمّا حصل لأولئك الأطفال. سألتُ: «أكلّ المدارس هكذا؟!» انتبه المعلّم المتقاعد إلى ما وراء سؤالي: «أكو مدارس ومدارس... مرّت علينا ثلاثُ سنوات ربَّكَ لا يُعِدْها على بشر! سنوات الـ ٩٤ و٩٥ و٩٦.» مثلُ هذا الكلام كنا قدْ سمعناه من عديدين. حميد سعيد قال في السهرة مقتبسًا عنوانَ المخرج الجزائريّ الأخضر حامينا: «إنّها سنوات الجمر. الناس باعوا كلّ شيء. باعوا حتى الأبواب الداخليّة في بيوتهم، ولم يتبقَّ سوى الأبواب الخارجيّة.» خطر في بالي حينذاك تشبيهُ البيت العراقيّ بالوطن العراقيّ: فهذا لم يعد، هو الآخر، يمتلك سوى بابٍ خارجيّ يُغلقه على نفسه. ولكنّني خشيتُ سوء الفهم، فأحجمتُ. وأكْمل سعيد: «أحد أصدقائي ذكر لي أنّه عاش تلك السنوات بفضل سوء تدبير امرأته. كم كنتُ أتضايق منها، أيّامَ العزّ، أيّامَ كانت البضائعُ الموجودةُ في بغداد لا توجد في غيرها. كانت متلافةً تشتري من الصينيّ والتحف والسجاجيد ما لا يَلْزم. لم نكن نَعْلم أنّ الدهر يخبّئ تحت عباءته ما حصل. غير أنّ سوء تدبير المرأة كان في تلك السنوات هو خشبةَ النجاة. سوءُ تدبيرها انقلب بيد القَدَر إلى أفضل تدبير.» أظنُّ أنّ أحدًا لا يمكنه تقديرُ مدى الألم في كلام كهذا إنْ لم يَخْبر «العنجهيّةَ» التي كان العراقيُّ يتمتّع بها.

وصلنا إلى بيتٍ طرفيٍّ تمتدّ خلفه غابةُ نخيل. كانوا ينتظروننا. أنشأ أحدُهم ترحيبًا بطريقة «الهوْسة» العراقيّة كتلك التي نراها على التلفزيون: كلامٌ موزون على إيقاع قفزات متوالية. الذراع التي تمسك بالعباءة مشرعةٌ نحو الأعلى، والركبتان تنثنيان، ثمّ يقفز الجسدُ مرّاتٍ ومرّات. مصافحةٌ بالأيدي وثلاثُ قُبَلٍ. سلامات... سلامات لا تنتهي. مازحتُ مستقبلينا بعد أن هدأ الصخبُ أنْ ليس كلُّ الضيوف من أقربائهم. ردّوا جمعًا مُستنكرين بدماثة: «كلّ الإسلام أعمام!» أكان كلُّ المسلمين أعمامًا أيام كانت الطائراتُ تَقْصف؟! مضيفونا من «الهنادي،» وهي قبيلة ربما لم يكن لأفرادها أصلٌ دمويٌّ واحد، بذرها جيشُ إبراهيم باشا المصريّ في حربه مع الأتراك في شمال سوريّة ووسطها. أصولهم من بلدة هنادي المصريّة. من تاريخ هذه البلدة، وفق الجبرتي، أنّ أهلها كانوا مَنْبعًا للجيوش المصريّة. أمّا قصّةُ وجودهم في العراق فلها روايةٌ أخرى غيرُ الحروب، وتتّصل بالتجارة والسعي وراء الرزق. ألا تلخّص روايتُهم قصةَ الجَوَلان في بلاد العرب والمسلمين: إمّا غزوٌ، وإمّا تجارةٌ وبحثٌ عن العيش؟

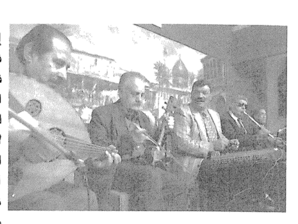
على العشب مُدَّ السجاد، والشهر شباط ! والحديث يتناول بحرج أسماءَ الأقرباء في سوريّة، إذْ مَنْ يضمن أنّ من يُسأل عنه مازال حيّاً بعد كلّ هذه السنين؟! وفعلاً كان بعض من سألوا عنهم أمواتًا . هنا الناس شيعة، لكنّنا لم نَلْمسْ لا تصريحًا ولا تلميحًا ما يوحي بصراع حادّ. سندرك بعد قليل، وبطرائق تُشْبه الطرائف، أنّ التشيُّع والتسنُّن هنا يتبعان الجغرافيا في بعض جوانبه. «أنت من الوسط، وانتقلتَ إلى الجنوب، والجنوبُ شيعة، فلمَ لا تتشيّع؟!» يمزحون أنّ العائلة الفلانيّة تركتْ «دينها» ما إنْ ساعدها الناسُ في إنزال الأغراض من السيّارة. لم يحنْ موعدُ آذان العصر حتى كانوا يصلّون مثلما نصلّي!

العراق ذو طابع شيعيّ في العموم. جُلُّ المظاهر وجلُّ الكلام يوحي أنّك بين أناس يقدّسون الحسينَ الشهيدَ. والعراق، دون الشمال الذي لم نره، ذو طابع عربيّ محضٍ: لا لكْنة، لا كناية، لا استعارة، لا إحالة على ما هو غير عربيّ. عربٌ قبائليّون حتى العظم. قليلةٌ هي الكلمات ذات الخلفيّة الثقافية والسياسيّة التي أوحت باستنكارٍ ما من هذا الوضع القبليّ. همس مهندسٌ مقاولٌ في أذني ردّاً على سؤالي: «لِمَ لَمْ تأخذ المدنُ العراقيّة طابعًا حضريّاً كما هو الحال لسكان دمشق وحلب والقاهرة الأصليّين؟» قائلاً: «تلك هي قصّة السلطة، لا سلطتنا الحاليّة فقط وإنّما السلطات التي سبقتها أيضًا. في بغداد تجد نواةً حضريّةً لكنّها مُجْبرة على الانتماء إلى قبيلةٍ ما. ويعود جزء آخر من المشكلة إلى الجيش الإسلاميّ الأوّل الذي دخل العراق في كتائب، كلُّ كتيبةٍ تحت راية قبيلتها.»

الشمس تميل إلى ما بعد العصر عندما انتهينا من غدائنا المكوّن، كما هي العادة من غذاءٍ يكفي للواءٍ في الجيش. وبأيْمان مُغلّظة حمّلونا أكياسَ تمرٍ ستسبّب لنا ارتباكًا لأنّها ستأخذ مكانًا كبيرًا بين ازدحام أغراضنا.

◆ ◆ ◆

على طريق العودة رحنا نتأمّل ونسأل عن كلّ شيء. أشاروا إلى أرض خاوية واسعة بين غابات النخيل: هنا معسكر للجيش ظلّت الطائراتُ تقصفه كلَّ يوم. تقف الطائرات هناك، مشيرين إلى الأفق فوق غابة نخيل، وتبدأ بالقصف. كنّا نرى الصواريخ والقذائف ونتابعها إلى أن تنفجر. «تأتي الطائراتُ من جزيرة العرب،» نَبَرَ المعلّمُ بلهجة تبخيس وسخرية. هذا الطريق هو ذاته الطريق الذاهب



إلى الجنوب، إلى البصـرة. أشَـرْنا إلى مـا حـصل في الجنوب، فلاقينا صمتًا مطبقًا. أخوفٌ هو ذاك الصمتُ، أم طريقة للنسيان؟ فيما بعد، في طريق عودتنا إلى الوطن، سيصعد معنا رجلٌ من أحد الحواجز. كان الرجل من قبلُ جنديًا، وسيقصّ علينا قصصًا يقف لها شعرُ الرأس. في مرحلة من حديثه لفظ : «هربتُ في الصحـراء لا أدري إلى أين.» قـاطعناه ممازحين: «باطِلْ! هربت؟» بدا عليـه الاستنكار الجدّي: «يا باااا... هذا موت! موت! مو مزحْ!... هاذولا الأمـريكان! تنْضـرب ومـا تعـرف منين تنضـرب!» وكـالعـادة رحنا نناقش، كما لو أنّنا في مؤتمر، تعنُّتَ الكويت وذريعتَها في الأسرى. «يا أخي، الأوروبيُّون تحاربوا حربين عالميتين. وحدها الحرب الثانية أماتتْ عشرين مليونًا، ومع ذلك نسـوا. لِمَ لا ينسى الكويتيّون؟» فاجأنا السائقُ العراقيُّ الذي كان قد تسلّم مقودَ السـيّارة: «لن ينسـوا. ما فعلناه بهم لا يُنسى. ومـا يفعلونه الآن بيد الأمريكان لن ننسـاه. لن ينسوا ولن ننسى. أرأيتم مسرحيّة حسين عبد الرضـا؟ أنا رأيتُـها في الأردن. كيف لعراقيّ أن ينسى صـورتَه في ذلك الجنديّ العراقيّ الذي تُصوّره المسرحيّةُ لا يفرّق بين السجّادة والمنشفة، ويتمرّغ مثلَ قردٍ بخدّيْه على السجّادة حاسدًا الكويتيّين على مناشفهم؟ لماذا يصوّرون رئيسَنا، الله يحفظه، بهذه الصورة؟ ألا يَحْسبون حسابَ المستقبل؟ ألا يخافون؟!»

كلّ العراقيّين الذين التقيناهم يَذْكرون اسمَ رئيسهم مصحوبًا بهذه الجملة «الله يحفظه،» لكنّنا سنَلْمس منهم جميعهم أيضًا نقدًا دفينًا خفيًا. «ما كان واردًا مثلُ هذا الظلّ من النقد قبل سنتين أو ثلاث... كان الصمتُ سيّدًا،» قال أحدُ المثقّفين العراقين. ولمّا سألتُه مـا الذي استجدّ، أجاب بصراحة: «أولاً لأنّ وجوهنا، سلطةً وشعبًا، إلى الحائط. يعني لا بدّ من فسح المجال لنوع من النقد. وثانيًا لأنّ السياسة هكذا. كلّ العراقيّين يتمنّون تغييرًا ما. لكنّ القبض على الجمر يُحْرِق ويشوّش.»

◆ ◆ ◆

في نادي الصيد كان العشاءُ الأخيرُ. النادي هنا، كما المنشآتُ في بغداد، بُنْيةٌ ضخمةٌ وساحاتٌ واسعة. المدعوون ينوفون على الثلاثمائة. والطعام زيادةٌ كريمةٌ متلافةٌ كما هي العادة. عدد النساء قليلٌ. منفردًا عن زملائي جلستُ مع عدد من الشبّان. بعد صمتٍ سببُه وجودُ غريبٍ، هو أنا، يتلفّت في كلّ الاتجاهات كمن أضاع شيئًا، قدّمتُ نفسي تحت صخب الموسيقى وصوتِ المغنّي. كانوا جميعًا أطبّاء في الاختصاص. أحببتُ أن أكسر جليد الصمت بسؤالٍ صادم: «لماذا تغيب المرأةُ العراقيّة؟ لم نرَ الكثيرات في الشوارع ولا في الأماكن العامة. وحده نادي الرماية الذي سبق أن تعشّيْنا به لاحظنا فيه عددًا كبيرًا منهنّ. الستم في الإعلام تدعونهنّ الماجدات؟ فأين الماجدات؟» تبسم أحد الأطبّاء الشبّان ساخرًا: «أتريد حضرتك أنْ تستعرض ماجداتنا؟! ماجداتنا للبيوت. فما حال ماجداتكم أنتم؟» جاريتُ السخرية المحبّبة: «ماجداتنا يشتغلن شغلين. تجدهنّ في الشوارع وتجدهنّ في البيوت.» وعندما آل الحديث إلى الجدّ أجمع الأطبّاءُ الشبّانُ أنّ الأسرة العراقيّة محافظة بطبعها، وأنّ النساء عادةً لا يخرجن إلا مع رجل أو في جماعات «لكنّهنّ على أيِّ حال يعملن في كلّ المجالات. ولو أنّكَ زرتَ الجامعة لرأيت أنّ عددهنّ لا يستهان به.» لكنّ ما رأيناه في نادي الرماية مختلف، قلتُ. نساء. فتيات جميلات على آخر طرز، فلمَ لم نر مظاهر كهذه في الشارع؟ تلك قصّة أخرى سيتهرّب منها الشبّان، لكنّهم سيُلمحون إلى أنّ اللواتي رأيناهنّ هناك من عليّة القوم...إنّه المال!

كنّا في نادي الرماية قد لاحظنا فعلاً مظاهر غنًى ربما كان فاحشًا. ولأنّنا علمنا مدى حبّ العراقيّين «للشاميّين» رحنا نتحدّث مع الفتيات بروح شبابيّة، رغم أنّ معظمنا كان في سنّ الكهولة. واحدة منهنّ كانت جميلةً جمالاً أخّاذًا: سمرة صافية، عينان ذبّاحتان، وجسدُ عارضةِ أزياء. خاطبتُها مرّات في معرض حديثي بـ«يا حلوة» مُواربًا الكلامَ بين العفويّة والتعمُّد. وعندما التقطتِ الأمرَ بإحساس الأنثى راحت تقاطعني مقلّدةً لهجةً سوريّةً ما: «صحْ عمّو... شكرًا عمّو.» أحرجتُ ورحتُ أردّد: «تعيّرني بالشيْب وهو...» لكنّ أسطوانتها المشروخة ظلّت تردّد: «عمو... عمو...» يلعنْ أمّ أكبر عمّ في الدنيا!

◆ ◆ ◆

صباحَ الأحد نزلنا إلى البهو في الخامسة استعدادًا للسفر. هنا ضاعت روحُ الألفة: بين استنكار من حساب الشاي والقهوة والكوي والغسيل، ونقصٍ في دماثة عمال الفندق. أين كنّا وأين أصبحنا! بالأمس فقط كانت عواطفُنا تفيض إلى مستويات أعلى من المال؛ واليوم نسينا؟! أنعودُ إلى بغداد ثانيةً وهي في صحوها وأمنها وثرائها المكبّل بالحصار، أم أنّ الصواريخ ستُمْطر قريبًا دمًا وتفتيتًا لبلد التاريخ والجغرافيا الممزّقة؟ أنعود قريبًا، أم أنّ قطيعةً دهريّةً أخرى بانتظارنا؟ أينفكّ العراقيون قريبًا من أسر الدول، أم أنّ القوّة السابيةَ لم ترتوِ بعدُ؟

الرقّة (سوريا) ـ شباط ٢٠٠٢

ســـــــور الـلـيـل

• نـاطـق خـلـوصـي*

يشيرُ عليه الآخرُ الذي إلى جانبه أنْ يَرْكن السيارةَ في منعطف قريب، فيستجيب. يدير عجلةَ القيادة، ويَدْخل ذلك المنعطف، وما يلبث أنْ يضغط على الكابح، ويطفئ المحرِّك. ينحني بنصف جسده العلويّ على المقعد الخلفيّ ويلتقط العلبةَ وينزل، ويكون الآخر قد سبقه إلى النزول، وها هما يسيران تحت سماء رماديّة تظلّل صفحةَ مساءٍ خريفيّ موحش. يتوقّف الآخر، فيتوقّف هو أيضًا، وقد صارا أمام بابٍ تعلو عتبتُه شبرًا عن رصيف الشارع. يقف وهو في حالة يقظة حسيّة، ويراقب كلّ شيء من حوله. لقد ارتضى أن يقوم بهذه المغامرة، بل سعى إليها في الواقع، من أجل أنْ يخترق عالمًا يختبئ وراء سور اللّيل. والآن يسمع خشخشةَ سلسلةِ مفاتيح تتأرجّح بين أصابع يد الآخر اليمنى، ويرى اليسرى ترتفع إلى زرّ جرس الباب ويضغط إبهامها عليه مرّةً، ثم يعاود الضغطَ مرّةً أخرى، فيصير في اعتقاده أنّ هذا الذي مازال غريبًا عنه إنّما فَعَلَ ذلك لكي ينبئ مَنْ في الداخل أنّه قادم ومعه ضيفٌ واحد. وما يلبث أن يدسّ مفتاحًا في ثقب القفل ويديره فيُسمع صوتُ ارتداد المزلاج مثل أنّة خافتة. وخلل شفتَيْن مرتبكتَيْن يتسرَّب صوتٌ محايدٌ يتزامن مع حركة ارتداد ضلفة الباب:

ـ تفضّلْ!

هما الآن في مدخل فسحة ضيّقة بدتْ مثل ممرّ يُفضي إلى فوهة قبر. يردُّ الآخر ضلفةَ الباب ويُحْكم الرتاج، ويبدأان صعودًا متأنّيًا، فيشعر الآخر وهو يفعل ذلك، مثلما يحدث في كل مرّة، أنّه يهبط إلى الحضيض.

يوشكان أن يصلا نهاية السلّم، فيُسمَع تلك اللّحظةَ حفيفٌ خافتٌ، وما تلبث أن تَبِينَ قامةُ صبيّ صغير يركض صوب الآخر ويلوذ بساقه ويتشبّث بها، فيربِّت هذا على رأسه ويقوده معه. يمكث الزائرُ واقفًا هنيهةً وهو يتطلّع حوله بتفحُّصِ حذر: صالةٌ تسبح في ضوء يُغبش البصر، وقطعُ أثاث قديمةٌ لكنَّها تبدو كأنَّها لم تُستعمل كثيرًا. ثمّة أريكة مزدوجة في عمق الصالة، وثلاثةُ مقاعد تتوزَّع في مربَّع يلتمّ على نفسه وتشكّل الأريكةُ المزدوجةُ ضلعَه الرابعة. وعلى مناضد صغيرة واطئة ثمّة نفّاضاتُ سجائر زجاجيّة.

يومئ الآخر إلى الزائر برأسه صوب الأريكة، ويظلّ هو واقفًا هنيهةً قبل أنْ يَهْبط بجسده على أحد المقاعد، ومايزال الصبيّ الصغير لائذًا به. يفرد ساقَيْه تحت إلحاح حركة يد الصبيّ، فيَحْشر هذا جسدَه النحيفَ في الفسحة التي بينهما، لكنّه لم يَقْنع إذْ لم تهدأ حركتُه: فها هو يَرْفع جسدَه قليلاً قليلاً، ويُفْلح أخيرًا في وضع مؤخّرته على فخذ أبيه ويستقرّ بها هناك.

خلف الأريكة، التي يستقرّ عليها الزائر الآن، بابٌ موصدٌ، وبابُ موارب قبالةَ الآخر. وثمّة ممرّ يفضي إلى مَرافق الشقّة الأخرى. تتدلّى ساعة معطّلة على جدار الصالة الذي وراء الأريكة.

يمدّ الزائر يده ويلتقط العلبة من المنضدة الصغيرة الواطئة التي كان قد وضعها عليها لحظةَ دخوله. يشير إلى الصبيّ فيشرئبّ بصرُ هذا مختلجًا، ويسيل لعابُه، ويكاد يقفز مغادرًا فخذَ أبيه. لكنّ الأب يَكْبح هذه الرغبة بحركةٍ من يده ويشير إلى الزائر أن يتريَّث بعض الشيء. يقتنص بصرُ الزائر عينَي الصبيّ وهما تتفرّسان فيه وكأنّه كائنٌ غريب، ويلتقط سمعُه الصوتَ الذي يتهادى ببراءةٍ عذراء:

ـ مَنْ هذا يا أبي؟!

فيردّ الآخر بصوت مكتوم:

ـ إنّه عمُّك.

تتّسع حدقتا عيني الصبيّ وهو ينظر إلى أبيه:

ـ عمي؟! ولماذا لم يزرنا من قبل؟

يتهدّج صوتُ الآخر:

---

* ـ كاتب من العراق.

ـ كان مشغولاً.

ـ وأين يسكن؟

ـ في مدينة بعيدة.

يصفّق الصبيّ يدَيْه الصغيرتَيْن بمزيج من الدهشة والفرح:

ـ ياه! لقد أصبح لديّ أعمامٌ كثيرون.

يبتلع الآخر كلمات الصبيّ القاطعة وكأنّه يبتلع شفرةً. يخفض رأسَه حتى يصير فمُه جوارَ أُذن الصبيّ فيهمس له:

ـ اذهبْ وتفرَّجْ على التلفزيون. قد تأتي أمُّك وتغضب منك.

يهبط الصبيّ عن فخذ أبيه على مضض ويسير مطأطِئًا رأسَه، يتّجه صوب الغرفة التي يقع بابُها قبالةَ أبيه تمامًا. يدخل، ويصفق البابَ بحركة تُجْفل أباه والزائرَ معًا.

الزائر يراقب الآخر من طرف خفيّ. يرى وجهه يتلوّن ثم يَشْحب. يراه يمدّ يدًا مرتبكة ويستلّ منديلاً من جيبه ويمسح العرقَ عن وجهه وهو ينقّل بصرًا قلقًا بين باب الغرفة التي اختفى فيها الصبيُّ وبابِ الغرفة التي وراء الأريكة. فجأةً ينهض ويقترب من الزائر خطوةً، يفرد إصبعين من يده اليسرى ويَبْسط يَده اليمنى، ثم يقول وهو يحرّك إصبعيه المفرودتَيْن:

ـ تَلْزمنا زجاجتا بيرة.

يسود صمتٌ قلقٌ هنيهةً، ما يلبث أن يَكْسره صوتٌ رقيق قادمٌ من الغرفة التي وراء الأريكة.

ـ اجعلْها ثلاثًا!

لحظتئذٍ يطمئنّ قلبُ الزائر ويزايله الشكُّ الذي كان قد ساوره في البدء: الشكُّ من احتمال أن يكون قد وقع في فخٍّ مهلك. يمدّ يده إلى جيب سترته الداخليّ ويستلّ رزمةَ أوراقٍ نقديّة يناولها إلى هذا الواقف ذليلاً أمامه، دون أن يكلّف نفسه عناء عدِّها. يتلقف الآخر رزمةَ النقود على عجل، وما يلبث أنْ يلهوج:

ـ يلْزمنا عشاءٌ أيضًا.

فيردّ الزائر وكأنّه يحسم الأمر:

ـ معك من النقود ما يكفي لأكثر من هذا!

يقلّب الآخر رزمة النقود وكأنّه يزنها. يقول وهو يكاد يهمس:

ـ فعلاً.. فيها ما يكفي.

على حين غرّة، يُسْمع صريرُ باب الغرفة التي وراء الأريكة وهو يُفتح، فيتسرّب شذا عطرٍ فاغم يبدأ بالانتشار في فضاء الصالة، وقد تسمّر بصرُ الآخر في ذلك الاتجاه. يقترب حسيسُ قدمَيْن، فيزداد شذا العطر اقترابًا. يلتفت الزائر إلى حيث يأتي شذا العطر الذي يفغم أنفَه، والوقعُ الذي يمسُّ سمعَه مسًّا رقيقًا، فيَسقط بصرُه على وجهٍ صبوح يتوِّجه شعرٌ بنيّ فاتح مصفوفٌ بعناية، وجسدٌ ممتلئٌ بعض الشيء لا يَسْتره تمامًا ثوبٌ يشي بمفاتنه، وصدرٌ تزيِّنه رمّانتان تكاد حلمتاهما تشقّان قماشَ الثوب. يتأمّل الزائر، مبهورًا، هذه القادمةَ الفاتنة التي بدتْ له وكأنّها انتهت من وضع آخرِ لمسةِ مكياج، وقد وقفتْ قريبًا منه. يقف هو أيضًا دون أنْ يغادره انبهارُه. يلتفت إلى الآخر فيراه يضع على وجهه ابتسامةً ذليلَة، ويسمعه ينتزع صوتَه من حنجرة محشرجة:

◆ ناطق خلوصي

- زوجتي!

يمدّ الزائر يده فتتلقف المرأة كفّه بكفٍّ ليّنة، وتَضْغط عليها قليلاً، فيبتسم. ثمّ ينتبه إلى أنّها تحوّل بصرَها إلى الآخر وتبتسم، وكأنّها تريد أنْ تُفصح له بأنّه أحسنَ الاختيارَ.

تستدير وتجلس على طرف الأريكة، ويجلس الزائرُ على طرفها الآخر لكنّه يشعر تلك اللحظةَ كأنَّ المسافةَ التي تَفْصل بينهما تتلاشى شيئًا فشيئًا. يظلّ الآخر واقفًا لكأنّه ينتظر إيعازًا، وما يلبث أنْ يومئ إلى الزائر أنْ آنَ موعدُ تقديم العلبة، فيمدّ هذا يديْه ويرفع العلبةَ من مكانها على المنضدة الصغيرة الواطئة القريبة منه، ويقدّمها إلى المرأة، التي تتناولها بعد تمنُّعٍ مصطنعٍ قصيرٍ، وتقول بما يقترب من الهمس:

- لماذا كلّفتَ نفسك؟

وقبل أنْ تتلقّى ردّه، تبدأ بفضّ غلاف العلبة الورقيّ. ترفع الغطاء، تلتقط قطعة حلوى، تضع طرفها بين لؤلؤ أسنانها وتقضمها وتتمتم:

- لذيذة!

ترتسم على وجه الآخر ابتسامةٌ بلهاء وهو يراها تنهض من مكانها وتنتقل إلى المقعد الذي يقف قريبًا منه، وتنادي بصوتٍ له رنينٌ غنج:

- فائد!

يصرُّ بابٌ، ويأتي الصبيّ على عجل. وحين يصير قريبًا منها تناوله قطعةَ حلوى، فيلتقطها بأصابع لهفته ويتّجه صوب أبيه، لكنّه يفزّ على صوتها ينهره:

- ارجعْ إلى الغرفة.

فيفعل طائعًا وقد بدا كأنّ خيطَ أسًى ينسلُّ من داخله وينسرح على وجهه. وما تلبث أنْ تنادي من جديد، فيسمع الزائرُ أسماءَ «فادية»، «منار»، «شهلاء»، ويرى ثلاثَ زهرات يخرجن على استحياء، يقفن أمامها بخنوع، ثم يتناولن قطعَ الحلوى منها ويرجعن إلى الغرفة بهدوء، ويلمحهنّ وهنّ يُخْرجنه بنظرات غامضة من زوايا عيونهنّ. ولعلّ أبصارهنّ كانت تتساءل عن هذا العمّ الذي لم يرينه من قبل.

ينحني الآخر ويمدّ يده كأنّه يهمُّ بأن يلتقط قطعة حلوى من العلبة. ولكنّ صوتها يقمع حركة يده:

- ليس الآن.. عندما ترجع تأخذ حصّتك.

فيستقيم وهو يحاول أن يداري ارتباكه بابتسامة. يرنُّ صوتُها أمرًا:

- اِذهب الآن ولا تتأخَّرْ.

فيستدير طائعًا ويخطو صوب السلّم وهو يغمغم:

- لن أتأخّر.

ويّشعر وهو يهبط السلّم أنّه ينحدر صوب هوّة عميقة. ويساور الزائرَ الشكُّ في أن يكون الآخرُ هو زوجَ المرأة التي تجلس إلى جواره الآن، وقد بدأتْ تقترب بجسدها منه، فيشمّ رائحةَ شبقٍ لا يدري إنْ كان حقيقيّاً أو لا.

تساوره خشيةٌ أن تكون هذه المرأة نمرةً شرسةً عصيّةً على الترويض. فلقد رآها تَبْسط سطوةً صارمة ومستبدّة على مَنْ هم في معيّتها: زوجها وابنها وبناتها الثلاث. أوَتستطيع أنْ تفعل ذلك معه وهو زائر عابر لا تعرف مجرّد اسمه، لم يأتها محكومًا بنزوةٍ طائشة، وإنّما بهاجسٍ يتلبّسه منذ زمن؟ يراها تنهض وتتشاغل بما هو تافه أو صغير، غير أنّها تفعل ذلك بحنكة امرأة متمرّسة في

أداء دورها. تلتقط منفضة فارغة وتأتي بها، وتتعمّد أن تنحني لتضع المنفضةَ أمامه فتتكشّف عن مرمر صدرها والأخدودِ العميق الذي ينخسف بين ثدييْها، ثم تستدير وتخطو خطوتيْن وتنحني كأنّها تلتقط عود ثقابٍ من على الأرض، فتتكوّر مؤخّرتُها وتَبين سمّانتا ساقيْها المتلئتيْن، فيدرك أنّها تفعل ذلك لتثير عصبَ الشبق الذي لم يستيقظ عنده بعد. ثم لا تلبث أن تعود وتهبط على الأريكة إلى جانبه، ويحسّ بها تقترب منه حتى تلامس فخذُها فخذَه وتميل برأسها إلى كتفه. تراه ينظر إلى ساعته فتهمس:

ـ هل أنتَ على عجلة من أمرك؟

يفاجأ بسؤالها. كيف يكون على عجلة من أمره؟ إنّه لن يفعل شيئًا وزوجُها غائب. ما يهمّه أنْ يتوغّل في دخيلةِ نفسِ ذلك الذي يستمرئ أن تشرِّع زوجتُه أبوابَها لرياح غريبة. يردّ وهو يفتعل عذرًا:

ـ نظرتُ إلى ساعتكم فظننتُ أنّ ساعتي تعاني خللاً ما!

ـ ساعتنا عاطلة. الزمن معطّل بالنسبة إلينا.

وتلتمّ في شرنقة صمتها لحظةً وما تلبث أن تخرج منها:

ـ ظننتكَ على عجلة من أمرك!

فيردّ على عجل:

ـ لا أبدًا.. لننتظر عودةَ...

يسكت وهو يومئ بأصبعه إلى الأسفل، وكأنّه يعني زوجها. يراها ترفع رأسها عن كتفه وتغمغم بشيء من عدم الرضا:

ـ زوجي. ولي أربعةُ أطفال منه هم الذين رأيتَهم قبل قليل. أم أنّك تشكّ في ذلك؟

فيردّ مرتبكًا:

ـ بل أصدّقكِ.

يحاول أن يداري ارتباكَه، فيستلّ علبةَ سجائره ويلتقط سيجارةً يقدّمها لها فتتناولها دون تردُّد، ويلتقط واحدةً لنفسه، ويشعل عود ثقاب يقرّبه من رأس سيجارتها وسرعان ما تتوهّج جمرةُ الرأس، وما يلبث دخانُ السيجارتَيْن أن يتصاعد في فضاء الصالة.

يَكْسر حاجزَ الصمت الذي كان قد ارتفع بينهما منذ قليل:

ـ ليساعدْكم اللّهُ في هذا الزمن الصعب.

فيشعر كأنّ كلماته استفزّت وترًا في داخلها. يسمعها ونبرةُ احتجاجٍ تشوب صوتَها:

ـ ليساعدْني اللّهُ أنا.. إنّني أتحمّل العبء وحدي.

ـ وهو؟

ـ هو؟!

وتصمت لحظةً ثم تزفر بعمق وتقول كأنّها لا تخاطب أحدًا أمامها:

ـ إنّه عاطلٌ ومعطوب.

يحيّره ما يَسْمع، ويَهْمس لنفسه: كم هي قاسية معاناتُها إذنْ! إنّها تبوح له بما يتأجّج في صدرها من ألم، وكأنّها تعرفه منذ زمن بعيد. يصمت وقد تلبّسه الوجومُ وهو يفكّر. ليس غريبًا أن يكون رجلٌ مثلُ زوجها عاطلاً، أمّا أنْ يكون معطوبًا فهو ما يدعو إلى التساؤل.

يتوجّس خيفةً من أن يكون قد نكأ جرحًا عميقًا في روحها، وقد أخذ يحسّ بها تتململ. يسمعها تقول:

ـ إنْ كنتَ راغبًا فأنا على أتمّ الاستعداد.

يردّ متودّدًا وهو يقترب منها أكثر:

ـ مازال لدينا متّسع من الوقت.

يسمعها تقول بأسًى وهي تلقي رأسَها على صدره:

ـ لا تُشغلْ نفسَكَ، إذنْ، بما قد يُفْسد الأمسيةَ عليك!

يهزّ رأسه موافقًا وهو في حالة استسلامٍ لرغبتها، كاتمًا آنيًا الرغبةَ التي تمور في داخله: في أن يرفع الغطاءَ عن عالمِ ما وراء سور الليل.

يأتي صوتُ اصطفاق الباب، ودربكة قدميْن على السلّم. يحسّ بها تنتزع جسدها بعيدًا عنه. يسمعها تقول وهي تومئ برأسها:

ـ ها قد عاد.

يظهر في مدخل الصالة، وقد تدلّى كيسان من يديه. تنهض وقد اصطدم بصرُها ببصر زوجها، وتبدو كأنّها التقطتْ إشارةً متسائلةً من عينيه، فتهزّ رأسَها برفق وكأنّها تقول له إنّهما لم يفعلا شيئًا. تسير عبر الممرّ الضيّق وتغيب هنيهةً وما تلبث أن تعود بثلاثة أقداح، تناوله واحدًا، وتمضي بالاثنين الآخرين إلى حيث يجلس الزائر. تضع القدحيْن على المنضدة الصغيرة الواطئة التي أمامه. ينحني زوجها على أحد الكيسين اللذيْن كان قد وضعهما على الأرض، يلتقط دجاجتيْن منه، ويأتي بهما إلى حيث تجلس على طرف الأريكة ويجلس الزائر على طرفها الآخر، ويضعهما بحركة إنسانٍ آليّ. وتسمعه يهمس للزائر:

ـ اطمأننتُ على سيارتكَ في طريق عودتي.

فتدرك أنّه يريد أن ينبّهها إلى الصيد الدسم الذي أمامها.

يعود إلى مكانه وقد التقط كلمة شكر الزائر. يقف لحظةً قبل أن يستدير وكأنّه تذكّر أمرًا على حين غرّة. يقول ملتمسًا العذرَ عن خطإٍ لم يرتكبه:

ـ نسيتُ أنْ آتي بمفتاح القناني.

يغيب قليلاً ويعود ناشرًا على وجهه ابتسامته البلهاء. ينحني، يفتح زجاجةَ البيرة التي أمام الزائر والأخرى التي أمام زوجته، ويتراجع إلى حيث تنتظره زجاجته ويفتحها ويجلس. ينقّل الزائرُ طرفًا خفيًا بين الوجهين، فينتبه إلى أنّ المرأة التي إلى جواره تتصرّف بهدوء وكأنّها تمارس طقسًا عائليًا مألوفًا، وقد رفعتْ زجاجةَ البيرة بيد والقدحَ بيد. تقرّب يدها التي تحمل زجاجة البيرة من اليد التي تحمل القدح. تضع حافة فوهة الزجاجة لصقَ حافة فوهة القدح، فيبدأ السائل الرائق ينسكب مثيرًا وشوشةً خافتةً ورغوةً تطفو على السطح. تنظر إلى الزائر من زاوية عينها وكأنّها تحرّضه على أنْ يفعل مثلما فعلتْ، فيستجيب وهو يبتسم في وجهها، وما يلبث أنْ يستدير ببصره صوب الآخر فيراه قد وضع فوهة الزجاجة في فمه وبدأ يعبّ البيرة بحركة منفعلة ومايزال القدحُ الفارغُ ساكنًا أمامه.

تسأل المرأة وهي تمسح طرفَ فمها:

ـ ما الذي أتيتَ به من عشاء؟

يردّ وكأنّه لم يتذوّقْ طعامًا منذ عام:

ـ دجاج مشويّ!

تتمتم وهي تشيح ببصرها عنه:

ـ حسنًا فعلتَ.

وتخاطب الزائر هذه المرّة:

ـ ألست جائعًا؟

يردّ على عجل:

ـ ليس بعد! وأنتِ؟

فتقول بغنج:

ـ ليس قبل أن أنتهي من خدمة ضيفي.

وتُطْلق ضحكة سمجة كأنّها تريد أن تغيظ زوجَها بها.

يرى الزائر خدَّي المرأة وقد توهّجا بحمرةٍ قانية، وشعشع الضوءُ في عينيها، وصارت تنوس برأسها وكأنّها بدأتْ تشعر بالنعاس. انتهى زوجها من زجاجته، ويبدو الآن كأنّه ينتظر إيعازًا منها. ولم يَطُل انتظارُه، فها هي تنظر إليه بعينَيْن نصفِ مغمضتَيْن وقد بدأ رأسُها يتمايل:

ـ خذْ نصفَ ما أتيتَ به من عشاء، واذهبْ به إلى الأطفال!

يردّ وهو يداري خجله:

ـ لقد كنتُ أوشك أنْ أفعل ذلك. ثمّة برنامج ممتع في التلفزيون!

وينهمك باقتسام ما جاء به من عشاء، والزائرُ يراقبه بطرف خفيّ وقد أوشك رأسُ المرأة أنْ يرتمي على كتفه. ينهض حاملاً معه نصفَ ما جاء به، ويسير مطأطئًا الرأسَ. يدخل الغرفة المقابل له ويردّ بابَها من ورائه.

تمدّ المرأة يدها وتلتقط يد الزائر، وتنهض، فينهض. تسير به إلى الغرفة التي في عمق الصالة، فيجد نفسه في عشٍّ للزوجيّة: سرير مزدوج، وخزانة ملابس، ومرآة زينة. ينتبه إلى أنّ ثمّة ساعةً تتدلّى من الجدار، لكنّ عقربيْها ساكنان. ينظر إلى وجه المرأة مبتسمًا فيسمعها تقول:

ـ ألم أقلْ لك إنّ الزمن معطّل بالنسبة إلينا؟

ولا يبلغ صوتُها سمعَ زوجها الضائع وسط شغبِ الصبيّ وضحكاتِ الصغيراتِ وضجيج التلفزيون، وقد شعر بصداع خفيف يتلبّس رأسه. يُسْند كوعَه على ذراع الكرسيّ ويُنْزل خدَّه على راحة يده، وهو لا يدري بم يردّ على أسئلة الصبيّ عن عمّه الجديد: أغادرَ، أم أنّه مايزال جالسًا مع أمّه؟ وهل سيعاود زيارته؟ يمدّ عينَ خياله إلى ما وراء الباب الموصد: ترى هل تعرّت الآن؟ وأيّ قميص داخليّ ترتدي؟ لكنّها لم تتعرَّ بعد، إنّما تمكث واجمة حين ترى الزائر مايزال متسمّرًا وسط الغرفة متنقّلاً بصرًا متطفّلاً، متفحّصًا في أرجائها، ليستقرّ به أخيرًا على صورة مزجّجة ومؤطّرة: صورة زوجها، بشارب أسود كثّ، وهو في بذلة داكنة يحمل بندقيةً ذاتَ ماسورة طويلة. ويخيّل إليه أنّه يرى ثلاثَ صور لا صورةً واحدة: صورةَ حارسٍ متعب في قرية مستباحة، وصورةَ صيّادٍ خائب عائد من رحلة صيد فاشلة، وصورةَ محاربٍ مهزوم خارج من معركة خاسرة. يقترب من الصورة ويحملق فيها، فيأتيه صوتُها كئيبًا منكسرًا:

ـ صورتُه قبل سنوات.

• نــاطــق خــلــوصــي

يدير وجهًا متسائلاً إليها:

ـ هل تعنين أنّه....

وقبل أنْ يُكمل ما يريد أنْ يقول، يَقْمع صوتُها صوتَه:

ـ كان ذلك منذ زمن. أصبح في عداد الماضي الآن.

ثم تَزْفر بعمق وتنظر إليه وكأنّها تعاتبه أو تلومه:

ـ لماذا تُشْغل نفسَك بأمرٍ تافهٍ مثلِ هذا؟

يرنّ في أذنه صوتُها وهي تقول حين كانا وحدهما في الصالة: «إنّه عاطل ومعطوب،» فيحاول أن يمدّ خيطَ صلةٍ يربط الصورةَ بما كان قد سمعه منها. ولكنّه يراها تنضو عنها ثوبَها وتَهْرب ببصرها عنه. ترمي الثوب جانبًا وتظلّ محتفظةً بقميصها الداخليّ، فتنكشف أمامه تفاصيلُ جسدٍ لدنٍ شهيّ، ويجد نفسَه يمدّ يدًا ويَفْتح أزرارَ قميصه ويأتي ليجلس على السرير، وقد سبقتْه إلى ذلك. ترى ظلالَ وجومٍ ترين في عينيه. تنظر إليه وكأنّها تريد أن تستجلي الكامنَ في رأسه من أفكار، وتقول:

ـ لكأنّكَ جئتَ لغايةٍ أخرى!

يُفاجأ بما يسمع، فيتمتم مرتبكًا:

ـ لا.. أبدًا.

ينضو قميصَه عنه. تستلقي وسط السرير تمامًا تحت الصورة الأخرى التي تجمعها بزوجها وهي في بذلة الزفاف. يلتفت إلى الصورة التي يبدو فيها زوجُها وهو يَحمل بندقيةً ذاتَ ماسورة طويلة، فيخيّل إليه أنّ تلك الماسورة مصوّبةٌ نحوه، وينتبه إلى يدها وهي تمسك بذقنه وتدير رأسه إليها وهي تغمغم:

ـ إنّها مجرّد صورة قديمة، وبندقية باردة. ربما كانت خاليةً من الرصاص عندما التُقِطت الصورة.

فتزيده كلماتُها إحساسًا بالحيرة، ويجد نفسَه إزاء لغز غامض. وخشيةَ أن تستفزّها لجاجتُه فَتُقفلَ فمَها تمامًا، ينشغل عن الصورة وعن البندقية وحاملها، وما يلبث أن يستبدّ به اللهاث.

حين ينهض يسمعها تقول وكأنّها تُفْصح عن أمنية تتأجّج في داخلها:

ـ هل ستزورنا مرّةً ثانية؟

يردّ وهو يلتقط قميصه:

ـ بالتأكيد. كيف لا أفعل ذلك وقد وقعتُ على جوهرة نادرة؟!

فتشعر بتيّار من الزهو يسري في روحها. وإذ أخذتْ تلملم نفسَها وتنهض من السرير فاجأها صوتُه:

ـ في رأسي سؤال يبحث عن جواب.

يجفلها ما تسمع:

ـ أيّ سؤال؟

يَنْشر على وجهه ابتسامةً متفائلة وقد وضع يدَيْه على كتفيْها وصار بصرُه يُبْحر في عينيها. وتسمعه يقول وهو يشير إلى الصورتَيْن المعلّقتَيْن على جدارَيْن في الغرفة:

ـ الآن أيقنتُ تمامًا أنّه زوجك. سبق أنْ قلتِ إنّه عاطل ومعطوب. وليس غريبًا أن يكون عاطلاً، لكنْ لا أفهم ما تعنين بقولك إنّه معطوب!

تسأل وهي تخفض بصرها:

ـ أيهمُّك أن تعرف؟

ـ ربّما!

ـ ما الذي يدعوك إلى ذلك؟

ـ لعلّه الفضول.

ـ ألم تقل إنّك ستزورُنا مرّةً أخرى؟

ـ وأقول ذلك الآن أيضًا.

ـ ربّما ستعرف ما أعنيه في المرّة القادمة.

ويعاجلها صوتُه قبل أن تنفلت خارجةً، وهو يشير إلى الصورة التي يَظْهر فيها الآخرُ في بذلة داكنة وهو يحمل بندقيةً ذاتَ ماسورة طويلة:

ـ فقط أريد أن أعرف، ألهذه الصورة علاقةٌ بما تعنين؟

تهزّ رأسها إيجابًا، فيلاحقها صوتُه وهي توشك أن تجتاز العتبة:

ـ لمن أَدْفع؟

تردّ دون أنْ تلتفت:

ـ لي، أو له، لا فرق. ولكنْ من الأفضل أن تدفع له؛ إنّه رجل البيت!

ويشعر كأنّها تقول عبارتها الأخيرة مثقلةً بمرارة السخريّة، وتنسحب ليستكمل هو ارتداءَ ثيابه.

حين يخرج يراها تجلس على الأريكة في انتظاره. يجلس إلى جوارها ويَسْمعها تهمس:

ـ لقد بذلتَ جهدًا. ألا تتناول عشاءك؟

يردّ وأصابعُه تلامس خدَّها ملاطفًا:

ـ لا أريد أن أُفْسد نشوتي بالطعام.

تبتسم وهي تنهض ويسمعها تهمس من جديد:

ـ حسنًا، إذن!

يراها تتّجه إلى الغرفة الأخرى. يسمعها تَنْقر بابها، فيدرك أنّها تنبّه زوجها إلى أنّ الطقس الليليّ قد تمّ. تعود إلى الأريكة. وما إنْ تستقرّ بجسدها هناك حتى ينفتح بابُ الغرفة تلك. يخرج الآخر، ويردّ من ورائه البابَ، ثم يتقدّم من الزائر، ويمدّ يده مصافحًا. ينهض الزائر ويمدّ يده في جيبه، فيضع الآخر يده تحت ذراعه ويسير به صوب السلّم. فيصير في يقين الزائر أنّ هذا الذين يَهْبط السلّم معه، وكأنّه ينزل إلى الحضيض، معطوبٌ حقّاً: لعلّ عطبه يكمن في مكانٍ ما من جسده، أو لعلّه يكمن في رأسه أو روحه. وحين يدسّ رزمةَ النقود في يده، يراه يضمّ راحتَه عليها وكأنّه يريد أن يعتصرها. وتحت مسقط الضوء الشاحب يرى وجهَه يَشْحب ثم يغيم، ويسقط رأسُه على صدره.

بغداد

أحزان السنابل

. ياسر عيسى الياسري .

إلى ماري المفقودة في ليلة الميلاد... ونايها المفقود

حزينٌ.. مثلَ سنبلةٍ حزينه
غادرها الربيع
وأحنت رأسها للمناجل.
حزينٌ.. مثلَ أغنية الأمَّهات
تهدهد أطفالَ القنابل.
حزينٌ.. مثلَ هذي الأرض
عطشى تنتظرُ الخلاص.

❖ ❖

حزينٌ.. إذ ينشر الميلادُ
أخبارَ السلاسل
تعيدُ المهد.. أغنية الخناجر.
حزينٌ.. أطْلب الزينات
أطْلب الشمعات
لأشجارِ الحرائق.
حزينٌ.. مثلَ المغارات
التي شهدتْ صوتَ طفلٍ مقاتل.
حزينٌ.. مثلَ أعوادِ الصليب
مثلَ المسامير التي حطَّمتْ هذي
الأنامل.

❖ ❖

حزينٌ.. أرقب الأبواب
صامتةً صَمْتَ المقابر.
حزينٌ.. أبحث عن نايكِ المفقود
بين أجراس الكنائس.
حزينٌ.. فـ«ماري» أطفأتْ
قناديلَ المنازل
احتضنت شتاءَ المراعي
أخفتْ نايَها
ونامت بين أحضان الملاجئ.

❖ ❖

حزينٌ.. مذ غادر الطائرْ
جنوبَ الأرض
نحو المنافي
وتفرَّق الريشُ بين المعابر.
حزينٌ.. منذ عام مضى.
حزينٌ.. لعام أتى.
حزينٌ.. لأعوامٍ ستأتي
دونَكِ
دونَ أهلي
وأصواتِ الهلاهل.

بغداد

محور الشرّ

ملف من إعداد: سماح إدريس (بيروت)، أحمد الخميسي (القاهرة)، ماجد السامرّائي (بغداد)، عبد الحق لبيض (الرباط)

المشـاركـون

أحمد الخميسي

محمد تاج الدين الحسيني

ريمون ماهر كامل

أحمد منيسي

باسيل يوسف

أحمد التهامي

عمر نشابة

لطفيّة الدليمي

تستعدّ المَلِكة لجولة جديدة من نشر قيم الخير في العالم. وهي من سَعَةِ الخيال بحيث لا تنفكّ تَبْتكر لكلّ زمانٍ عنوانًا تستهدي به جيوشُها وشركاتُها. فبعد «محور الشرّ» الذي أطلقتْه هي وحلفاؤها على اليابان وإيطاليا وألمانيا في الحرب العالميّة الثانية، انتقلتْ إلى التصدّي لـ «إمبراطوريّة الشرّ» (الاتّحاد السوفياتيّ والمنظومة الدائرة في فلكه) كما يقول تاج الدين الحسيني. ومع تفكّك هذه الإمبراطوريّة سارعتْ إلى تحرير الكويت وإنقاذِ البشريّة من قبضة صدّام حسين، الذي لفظ بوش الأب اسمَه ـ عمدًا ـ «صدوم» و«ساتان» (شيطان) غيرَ مرّة. ثم أطلق عام ١٩٩١ مصطلحَ «النظام العالميّ الجديد.» ومنذ ذلك الحين تدفقتْ من فم الملكة، أو من فم مثقفيها (كما يقول أحمد الخميسي)، مصطلحات ونظريّاتٌ مثيرة: من مصطلح «نهاية التاريخ» الذي يَجزم بانتصار الليبراليّة الرأسماليّة إلى الأبد، مرورًا بـ «صدام الحضارات» الذي يؤبلس الإسلامَ والكونفوشستيّة، فاستعادةً لـ «محور الشرّ» الذي أطلقه بوش الابنُ ليضمّ مؤخّرًا كلاً من كوريا الشماليّة والعراق وإيران، وإنْ لم يُخفِ البنتاغون نيّتَه توسيعَ هذا المحور ليضمّ ـ في مرحلة لاحقة ـ بلدانًا أخرى تشكّل أخطارًا مُحْدِقة بالسلام العالميّ من جرّاء امتلاكها (أو سعيها إلى امتلاك) أسلحة الدمار الشامل. فهذه الدول «المارقة» أو «اللامسؤولة» كما سمّاها كنيدي وكيسنجر لا يحقّ لها أن تكون قويّة لأنّها لا تدري صالحَها ولا صالحَ العالم؛ فقط ملكةُ الخير هي التي تقرِّر كيف تُستخدم أسلحةُ الدمار الشامل لنصرة «فسطاط الخير» ـ بحسب مَنْ كان هو أيضًا حليفًا للمَلِكة قبل أن يصبح مارقًا لامسؤولاً.

وفي ٢٢ آذار قال بوش الابن: «إنّنا نَفْهم أنّ التاريخ دعانا إلى التحرُّك من أجل جعل العالم أكثرَ سلامًا وأكثرَ حريّةً. ولن نُفوِّت هذه الفرصة.» وفي اليوم نفسه قال وزيرُ دفاع بريطانيا جيف هون: «فليكن من الأكيد أنّه في الشروط المناسبة لن نتردّد أبدًا في استخدام أسلحتنا النوويّة التي لن تكون مع ذلك كافيةً على الأرجح لثني حكّام مستبدّين مثل صدّام حسين عن مهاجمة بلدنا بأسلحة دمار شامل.» إذن العراق مهدَّد، وربّما غيره مستقبلاً، بحرب نوويّة يشنُّها أحفادُ طاقم طائرة إينولاغاي التي ألقت أوّلَ قنبلة ذريّة على هيروشيما.

هذا الملفّ يسلّط الضوء على الأهداف التي دفعتْ ملكةَ الخير إلى وصمِ ثلاث دولٍ بالشرّ، تمهيدًا لما قد يكون أعظم.

س.إ

النصّ التحتيّ في «محور الشرّ»

▢ أحمد الخميسي

على خشبة المسرح، من سوفوكليس إلى شكسبير وإبسن، كانت الشخصيات تعبّر عن نفسها بلغة واضحة ومباشرة، أكثرَ ممّا نجده فعليّاً في الحياة اليوميّة. فقط عند أنطون تشيخوف ظهرتْ تقنيّةُ الحوار التي يشير فيها النصُّ المنطوقُ إلى ما هو أعمقُ ممّا تعارفتْ عليه الكلمات، فأصبح هناك ما يسمّى «النصُّ التحتيُّ» حيث لم تعد اللغةُ تتجسّد في الحديث المنطوق وحده بل في لحظات الصمت والسكون أيضًا. فيما بعد لَفَتَ الكاتبُ المسرحيُّ الإنجليزيُّ هارولد پنتر الانتباهَ إلى أنّ اللغة لم تعد تُستخدم من أجل التواصل إلا نادرًا. وبعبارة أخرى، فإنّ البشر لا يقولون ما يَعْنون، بل إنّ ثمّة دائمًا نصّاً آخرَ وراء كلماتهم، وعلى المتلقّي أن يستشفّ هذا النصّ من صميم الوقائع والمواقف والنبرة، لا من منطوق الألفاظ.

شكّل مسرحُ السياسة الدوليّة، والسياسة المحليّة، وبيانات الزعماء، وتاريخ الدول، المجالَ الأعظمَ لظهور شبح النصّ الآخر وراء كلّ النصوص المنطوقة. ففي وقت من الأوقات كان الاستعمارُ البريطانيُّ يعلن أنّ وجوده في فلسطين «انتدابٌ»، وأنّ ثكناته العسكريّة وأرتالَ دباباته في دول أخرى «حمايةٌ» بل «ارتقاءٌ بالشعوب ونشرٌ للحضارة.» وكانت هناك نصوص أخرى تحت تلك التصريحات، تُقرأ كالكتابة بالحبر السريّ، فقط على وهج النار. ومازال التعبيرُ الأمريكيُّ الشهير «الغموض البنّاء» constructive ambiguity خلال مفاوضات فلسطينيّة ـ إسرائيليّة ينشع في النص التحتيّ بدماء المجازر في غزّة والضفّة.

في خطاب الرئيس بوش في ٢٩ يناير أمام الاتحاد الفيدراليّ تحدّث عن «محور للشرّ» تكوّنه ثلاث دول هي العراق وإيران وكوريا الشماليّة، فأثار القلقَ بين حلفاء أمريكا أنفسهم. ووصف أوبِرْ ڤيدرين وزيرُ الخارجيّة الفرنسيّة السياسةَ الأمريكيّةَ بأنّها «ساذجة.» ونبّه يوشكا فيشر وزيرُ الخارجيّة الألمانيّة إلى أنّ حلفاء أميركا ليسوا «أقمارًا تابعة، كما أنّ التحالف بين الديمقراطيّات الحرّة لا ينبغي أن يكون مجردَ طاعة للأوامر.» وغضبتْ موسكو وبكين محذّرتيْن من حديث «محور الشرّ.» وشنّ كريس باتن باسم الاتحاد الأوروبيّ هجومًا عنيفًا على السياسة الخارجيّة الأمريكيّة، متّهمًا إدارةَ الرئيس بوش بالانسياق وراء منهج سطحيّ ومستبدّ. وأعلنتْ طوكيو رفضَها تصنيفَ الولايات المتحدة لكوريا الشماليّة «دولةً في محور للشرّ.»

فأيُّ نص تحتيّ إذن هو الذي ألّبَ على واشنطن كلَّ أصدقائها القدامى والجدد، ناهيك عن خصومها؟

الأمن القوميّ الأمريكيّ: أمْنٌ يبلغ أيَّ نقطة

لا شكّ في أنّ الخوف، والغضب، والاستياء المكظوم من الحديث عن «محور للشرّ» تَرْجع في الدرجة الأولى إلى إدراك أغلب العواصم العالميّة أنّ الظروف الدوليّة مهيّأةٌ الآن ـ أكثرَ من أيّ وقت مضى ـ لوضع نظريّة «الأمن القوميّ الأمريكيّ» كما تفهمه أمريكا موضعَ التطبيق. وهذه النظريّة قامت على أساس أنّ الأمن الأمريكيّ يقع خارج الولايات المتحدة، وأنّ كلّ حفنةِ رملٍ أو تجمُّع بشريّ على بعد آلاف الأميال من واشنطن أمرٌ من صميم هذا الأمن. وهذا المبدأ يَضْرب بجذوره في تاريخ الولايات المتّحدة وطبيعةِ تكوينها ونشأتها، منذ أن أَعْلن الرئيس توماس جيفرسون عام ١٨٠٤ أنّه «في حال نشوب حرب فإنّ الولايات المتحدة ستحتلّ كوبا لتَضْمن على الصعيد الإستراتيجيّ الدفاعَ عن لويزيانا وفلوريدا.» وفي عام ١٨٢٣ صاغ الرئيس جيمس مونرو ذلك المفهومَ في مبدإٍ عُرِف باسمه، حين حذّر الدولَ الأوربيّةَ من منافسة بلاده في المستعمرات الإسبانيّة بقوله: «إننا نعتبر أيَّ نيّةٍ لهذه الدول في توطيد نظامها السياسيّ في أيّ جزء من نصف كرتنا خطرًا على سلامتنا وعلى أمننا.» وتطوّر هذا المفهومُ بحيث أصبح يَسْمح بالتدخُّل، عندما صرّح الرئيس ثيودور روزفلت عام ١٩٠٤ بأنّ «التخوُّف من أيّ تدخُّل أوروبيّ في شؤون بلد من أمريكا



مصطلح «محور الشرّ» تضمّن في الخطط الأميركيّة إلقاءَ القنابل الذريّة على ناغازاكي

اللاتينيّة يبرِّر تدخُّلَ الولايات المتحدة هناك.» ولاحقًا طلب الرئيس وودرو ويلسون عام ١٩١٧ من الدول الأخرى أن تُقرّ بسلامة التدخُّل مقترحًا «أن تَقْبل الأممُ بمعنًى ما، وبعد تفاهمٍ متبادل، مبدأ الرئيس مونرو كمبدإٍ صحيح عالميًا.» وخلال الحرب العالميّة الثانية صكّت أمريكا تعبيرَها «محور الشرّ» إشارةً إلى دول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان)، واتّضح لاحقًا أنّ النصّ التحتيّ لذلك المصطلح قد تضمّن في الخطط الأمريكيّة إلقاءَ القنابل الذريّة على هيروشيما ونغازاكي دون مبرِّر عسكريّ. وقبل أن يتبدّد دخانُ الحرب، أصبح حلفاءُ الأمس السوفيت خصومَ اليوم. وعلى الفور ظهر «مبدأ ترومان» الذي أعلنه الرئيس ترومان في مارس ١٩٤٧، وكان النصُّ المنطوقُ هو «مساعدة الشعوب التي تهدِّدها الشيوعيّةُ،» في حين كان النصُّ الآخرُ هو «تعبئةَ العالم في حرب باردة ضد السوفيت.» وفي رحلة المصطلحات التي تُلْهم حركةَ «الأمن القوميّ الأمريكيّ» كانت فروعٌ صغيرةٌ تمتدّ من شجرة النصّ الرئيسيّ فوق كل منطقة بأوراق تلائم طقسَها. ولهذا مثلاً نَشَرَ الرئيس آيزنْهاور، لمواجهة حركات التحرر العربيّة، نظريةَ «ملء الفراغ في الشرق الأوسط» و«حلف بغداد» أيضًا.

ورغم أنّ أمريكا حرصتْ على تغطية خطورة المفهوم الأمريكيّ للأمن القوميّ على العالم بربطه بالدفاع عن الديمقراطيّة وحريّةِ الشعوب الأخرى، فإنّ تلك التغطية لم تُفْلحْ في حجب طبيعة السياسة الأمريكيّة المتمثّلة في الهيمنة والانتقائيّة. فعندما وصل سلفادور الليندي إلى الحكم في التشيلي بانتخابات حرّة عام ١٩٧٠، صرّح هنري كيسنجر في ٢٧ يونيو من ذلك العام بالقول: «إنّني لا أَفْهم كيف ينبغي علينا أن نقف مكتوفي الأيدي وأن نرى، بسلبيّةٍ، بلدًا يصبح شيوعيًا لأنّ شعبه لا يُبْدي مسؤوليّةً كافية.» وبذلك أصبحتْ واشنطن هي التي تحدِّد متى يكون شعبٌ ما على حقّ عندما يختار هذا الطريقَ أو ذاك، ومتى يكون خيارُه نوعًا من «عدم الشعور بالمسؤوليّة!»

ومع اشتداد التنافس الدوليّ بين السوفيت والأمريكيّين، تجدَّد الحديثُ عن «الشرّ» ـ لا الألمانيّ النازيّ، بل الشيوعيّ. فأَطْلق رونالد رايغن بعد فوزه في الانتخابات الأمريكيّة عام ١٩٨٠ تعبير «إمبراطوريّة الشر» على الاتحاد السوفيتيّ.

إلا أنّ سقوط سور برلين، وظهورَ سياسة «إعادة البناء» (البريسترويكا) كانا نذيريْن بقرب زوال الدولة السوفيتيّة. فتحدَّث الرئيس جورج بوش عام ١٩٩٠ عن «نظام عالميّ جديد،» تمّ اختبارُه بالفعل في حرب الخليج الثانية حيث وقف السوفيتُ والأمريكانُ حلفاءَ في حرب واحدة لأول مرة بعد مواجهتهما المشتركة للنازيّة.

وأتاحت السنواتُ العشرُ التي تلت زوالَ الاتحاد السوفيتيّ الفرصةَ لأمريكا لكي تُلقي الضوءَ بقوة على رؤيتها للعالم والعلاقاتِ الدوليّة، وموقعِها من كل ذلك، بغطرسةٍ غيرِ مسبوقة، عَرَّتْ من المطالب والتطلعات ما فاق أهدافَ أيّة إمبراطوريّة أخرى عرفها التاريخُ البشريُّ.

سنوات الاختمار

ليس الحديثُ عن «محور للشرّ» أكثرَ من لحنٍ ختاميّ تحتشد فيه كلُّ الإيقاعات السابقة لتبلغ نتيجةً نهائيّةً اختمرتْ خلال السنوات العشر الأخيرة. فهذا المحور هو تتمةٌ لعدة مفاهيم سبقتْه ظهرتْ في تعاقبٍ زمنيّ يواكب الأحداثَ وهي: مفهوم «نهاية التاريخ» الذي طرحه فرانسيس فوكوياما عام ٨٩؛ ثم «النظام العالميّ الجديد» الذي طرحه الرئيس بوش في أوائل التسعينيّات؛ وأخيرًا مفهوم «صراع الحضارات» أو «صِدامها» الذي طرحه صامويل هنتنغتون في مقالٍ صيفَ ٩٣، وفي كتابه المسمَّى بالعنوان نفسه فيما بعد. «محور الشرّ»، إذن، هو الحركة الرابعة الختاميّة في معزوفة السياسة الخارجيّة الأمريكيّة.

النصّ التحتيّ في «محور الشرّ»

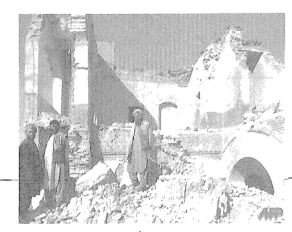
كان فوكوياما قد أسْبَغَ بمقاله «هل هي نهاية التاريخ؟» الشرعيّةَ النهائيّةَ على نمط الحكم الأمريكيّ، معتبرًا أنّ ذلك النمط هو «المحطة النهائيّة» لقطار التطور الاجتماعيّ والسياسيّ في مواجهة كلّ التجارب السابقة، بل والمحتملةِ مستقبلاً. فقد أشار إلى أنّ هناك «إجماعًا على شرعيّة الديمقراطيّة الليبراليّة كنظام حكم بعد فشل الإيديولوجيّة الاشتراكيّة، والملكيّة، والفاشيّة» وإلى أنّ الليبراليّة تشكّل «نقطةَ النهاية في التطور الإيديولوجيّ للإنسانيّة، والصورةَ النهائيّةَ للحكم البشريّ.» والحقّ أنّ ما كتبه فوكوياما هو أقربُ ما يكون إلى إعلان انتصار، فَتَحَ البابَ لخطوة أخرى أكثر تقدُّمًا، هي إشهارُ «العولمة» على لسان الرئيس بوش الأب عام ١٩٩١ نظريةً للنهب الدوليّ، مادام التاريخُ قد انتهى عند ذلك النهب. وجرى تصويرُ العولمة وكأنّها قدرٌ كونيٌّ لا رادَّ له، قادمٌ من بين السحب على أجنحة العلم الحديث، لا أنّها مجموعةُ سياساتٍ توقّع الحكوماتُ والبرلماناتُ على اتفاقيّاتها بمحض إرادتها، كما يُمْكنها ألا توقّعَ عليها.

هكذا أحنى فوكوياما رقبةَ التاريخ أمام التجربة الليبراليّة المتوحشة قائلاً له «هنا نهايتك»؛ وسارع الرئيس بوش ليُوضح الطبيعةَ الاقتصاديّةَ لنهاية التاريخ، مُشْهرًا العولمة. وانتهى التاريخ إيديولوجيّاً وفعليّاً، من وجهة نظر المصالح الأمريكيّة وفكرها السياسيّ طبعًا. أما في الواقع فقد ظل التاريخ مُطْلَقَ السراح، يتجول بعيدًا، مهدِّدًا بكل الاحتمالات. وهنا تحديدًا ظهر مقالُ «صِدام الحضارات» لصامويل هنتنغتون صيفَ ٩٣. وقد رأى هنتنغتون أنّ التاريخ مُطْلَق السراح في مناطق خطّ الفقر الذي يتقاطع مع دول تقطنها غالبيّةٌ مسلمةٌ، وفيها النفطُ وثرواتٌ أخرى.[1] وتصوَّرَ أنّ المجابهة القادمة ستتمّ بين الحضارة الغربيّة والإسلاميّة، لا بسبب النفط، بل لأنّ الدين والثقافة هما العامل الرئيسيّ المحرّك للحروب القادمة. ولم ير تناقضًا بين ذلك الطرح وواقع أنّ الحربيْن العالميتيْن اللتيْن وقعتا في أوروبا كانتا بين شعوبٍ متقاربة دينيّاً وثقافيّاً. كما لم يَلْمح المفارقةَ الغريبةَ في أنّ «صراع الحضارات» ذاك يهدِّد العراقَ وليبيا وسوريا وفلسطينَ والسودانَ والصومالَ، وكلُّها تنتمي إلى الحضارة الإسلاميّة، دون أن يهدِّد الكويتَ والسعوديّةَ ودولَ الخليج التي تنتمي إلى الحضارة نفسها! لكنّ طرح هنتنغتون لم يكن سوى محاولة للعثور على تبرير نظريّ، فلسفيّ، لشنّ الحرب على المناطق الفقيرة التي تقاطعتْ مع الدين الإسلاميّ.

هكذا أصبح لدى الولايات المتحدة مثلّثٌ كاملُ الأضلاع: من «نهاية التاريخ»، ونهب العولمة، ثم الاستعداد للضرب في أيّ نقطة. وما إنْ مزقت الطائراتُ في ١١ سبتمبر هيبةَ الولايات المتحدة حتى مضت التصريحاتُ الأمريكيّةُ مضطربةً ما بين «مواجهة الإسلام» و«مواجهة الإرهاب» و«المطالبة برأس بن لادن،» وغيرِ ذلك. وفجأةً انتقلتْ أمريكا ـ بعد أن فشلتْ في إقناع العالم بالعقاب الجماعيّ لشعب أفغانستان بأكمله بحثًا عن أفراد ـ إلى الحديث عن محورٍ للشرّ يضمّ العراقَ وإيرانَ وكوريا الشماليّة. وبدا أنّ ذلك الانتقالَ من قصة أفغانستان إلى قصة كوريا عارٍ من أيّ منطق، لاسيما عندما يقترن ذلك بالتلويح الجنونيّ باستخدام السلاح النوويّ، والتمسكِ بتطوير درع صاروخيّةٍ جديدة، والانسحابِ من معاهدة حظر الصواريخ الباليستيّة لعام ١٩٧٢، والإبادةِ اليوميّة على مرأًى من العالم أجمعَ لشعبيْن كاملَيْن في العراق وفلسطين، ثم إدراجِ دولٍ أخرى في محور الشرّ قبل التراجعِ غيرِ النهائيّ عن إدراجها.

---

١ ـ في وقت ما، بعد أن خفضت الدولُ العربيّةُ عامَ ٧٣ صادراتِ البترول، صرّح الرئيس فورد في ٢٣ أغسطس ١٩٧٤ بأنّ أحدًا «لا يستطيع أن يَحْسب النتائج الوخيمة التي قد تترتّب على رفض بعض الأمم مشاطرةَ الأمم الأخرى هباتِ الطبيعة.[!]»



هل كانت الحملة على افغانستان مجرّد فرقعة سياط لإرهاب الآخرين وتهيئتهم لعمليّات التاديب؟

وخلافًا لكل النصوص العاقلة المنطوقة التي كانت تُخفي وراءها أشباحَ نصوص أخرى مجنونة، فإنّ نصّ «محور الشرّ» المجنون يُخفي وراءه نصّاً آخرَ عاقلاً تماماً. وإلاّ فكيف لنا أن نَفْهم الحديث المكرَّر للرئيس بوش عن «الفرصة الذهبيَّة التي أتاحتها ضربةُ ١١ سبتمبر لنشر أفكار الحريَّة في آسيا»؟ فهل كانت الحملةُ على أفغانستان مجرَّدَ فرقعةِ سياطٍ في الهواء لإرهاب الآخرين وتهيئتهم لعمليات التأديب؟

الواضح أنّ «محور الشرّ» مفهومٌ لقطع الطريق على عمليات مستقبليَّة، وأنّ أفغانستان لم تكن سوى مدخل إلى ساحة واسعة تُحْكِمُ فيها أمريكا سيطرتَها على القوى النوويَّة في الهند وباكستان، وتُجْهِض بها بوادرَ التعاون بين روسيا والصين وإيران والهند، وتُثبِّت وجودَها العسكريَّ في آسيا الوسطى عبر أفغانستان، وتحاصر بها الصينَ كقوة اقتصاديَّة وعسكريَّة صاعدة. والمقصود بمحور الشرّ، إذن، قطعُ الطريق على بدائل تَخْتمر في المستقبل. ولهذا فإنّ المصطلح المطّاط يضمّ، مع العراق وإيران، كوريا الشماليَّةَ، لتتَّسع بذلك خريطةُ الأهداف. إلا أنّ الشرق الأوسط يَشْغل مكانَ الصدارة حاليّاً في تلك الخريطة بدوله: العراق وفلسطين وسوريا ولبنان واليمن والسودان. هذه هي الأهداف الأولى التي ستجد مسوِّغاتٍ قصفها في التذرُّع بالأصوليَّة الإسلاميَّة، والإرهاب، وصدام الحضارات، ونهايةِ التاريخ، والعولمة. وهكذا فإنّ مصطلح «محور الشر» تعبيرٌ عن مشروع للهيمنة العالميَّة الجديدة، وهو مصطلحٌ وفَّرتْ له أحداثُ ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الفرصةَ للظهور والحركة، كما قال الرئيس بوش.

بمصطلح «محور الشر» تعلن الولاياتُ المتحدةُ انتقالَها الصريحَ من المزاوجة بين الدبلوماسيَّة والحروب، إلى عهد جديد، أيْ إلى سياسة حربيَّة عسكريَّة بحتة، يقوم خلالها الجنرالاتُ بالدور الأكبر. وهي مرحلة مختلفة ذاتُ سماتٍ جديدة:

- فهي مرحلة تستقلّ خلالها المخطَّطاتُ الأمريكيَّةُ عن المنظَّمات الدوليَّة، مثل الأمم المتحدة وحلف الناتو. والأغلب أن يتحول هذا الحلفُ الأخيرُ إلى منظّمة سياسيَّة، بعد أن عجزت البلدانُ الأعضاءُ عن تطوير نفسها عسكريّاً لتَلْحق بقدرات أمريكا.
- وهي مرحلة يعلو فيها برأسه مبدأُ أنّ أفضلَ وسيلة لتفادي الخطر هي وَأْدُهُ في مهده، أي القضاءُ المبكِّرُ على مصدر الخطر. ومن هنا تحديدًا تلوح قائمةٌ بأسماء دولٍ مثلِ إيران لتوجيه الضربات الوقائيَّة إليها.
- وهي مرحلة تستريح الخططُ العسكريَّة إلى تحقيق أهدافها عبر تحالفات موقّتة. فليس محتَّمًا أن يكون التحالفُ الذي خاض الحربَ ضد أفغانستان هو نفسُه الذي سيشنّ الحربَ ضدّ العراق. فإذا بدأت الحملةُ على كوريا الشماليَّة، فإنّ تحالفًا جديدًا قد يَظْهر خصيِّصًا. ذلك أنّ سياسةَ تحالفاتٍ مرنة كهذه ستناسب واشنطن في المرحلة القادمة.

وفي كل الأحوال فإنّ القوة العسكريَّة الأمريكيَّة في كل الحملات القادمة ستكون هي القوة الرئيسيَّة الضاربة، خاصةً أنّ قوى الدول الأوروبيَّة مجتمعةً أو منفردةً لا تستطيع أن تكون ندّاً لها، ولاسيما في المجال الجويّ الذي صارت واشنطن تعتمد عليه في الأساس.

لكنْ هل يعني كلُّ ذلك أنّ أمريكا قد ألقت القبضَ على التاريخ؟ كلا. وعلى العكس من ذلك: فكلّ الإمبراطوريات التي عرفها التاريخُ من قبل بدأتْ رحلةَ السقوط في اللحظة التي بلغتْ فيها أقصى درجات الاكتمال فلم تعد قادرةً على أن ترى شيئًا سوى صورتها.

القاهرة

أحمد الخميسي

صحفيّ وقصّاص ومترجم. له العديد من الكتب والمقالات. حاصل على الدكتوراه في الأدب المقارن من جامعة موسكو. وهو المراسل الجديد لمجلة الآداب في مصر.

حوار مع محمد تاج الدين الحسيني حول «محور الشرّ»

أجراه: عبد الحق لبيض، مراسل الآداب في المغرب

محمد تاج الدين الحسيني

يبدو أنّ مفهوم دول «محور الشرّ» الذي أطلقته الولاياتُ المتحدة الأميركيّة مؤخّرًا ليس جديدًا في السياسات الدوليّة، إلاّ أنّه يَحْمل دلالات جديدة كانت نتيجةَ تحوُّلات كبرى في نظام العلاقات الدوليّة منذ انهيار الاتّحاد السوفياتيّ ونهاية حرب الخليج الثانية إلى صدمة ١١ أيلول. فكيف يمكننا أن نؤطّر مفهوم الشرّ الدوليّ ضمن هذه المتغيّرات؟ وهل هناك إجماع دوليّ، وتكييف قانونيّ، حول تحديد مفهوم «الشرّ» في العلاقات الدوليّة؟

اختارت الولاياتُ المتحدةُ الأميركيّةُ، منذ انهيار الكتلة الشيوعيّة وتفكُّكِ الإمبراطوريّة السوفياتيّة، أن تحتلّ عرشَ الأحاديّة القطبيّة وتنطلقَ منه لإعادة صوغ مفهوم العلاقات الدوليّة، وإعادةِ تنظيم العالم وفقًا لمبادئ النظام العالميّ الجديد كما تبدّت في خطاب جورج بوش الأب عام ١٩٩١. فراحت تراقب كلَّ نقاط العصيان الموجودة والمحتملة في أيّ منطقة من العالم، والتي يُمْكنها أن تُشكّل تهديدًا أو معارَضَةً لسياسة أميركا الخارجيّة من جهة، ولحماية «أمنها القوميّ» من جهة ثانية. فوجدتْ أنّ نقاط العصيان الحقيقيّة تقوم في: العراق، وإيران، وكوريا الشماليّة. ولذلك وصفتْها بدول «محور الشرّ»، وحجّتُها في ذلك امتلاكُ هذه الدول لأسلحة الدمار الشامل.

وهكذا نُدْرك أنّ هذا المفهوم مفهوم أميركيّ صِرْفٌ جاء نتيجةً لرغبة أميركيّة في إعادة ترتيب العلاقات الدوليّة، ولا يستند إلى أيّة مشروعيّة قانونيّة في إطار القانون الدوليّ المنظِّم للعلاقات الدوليّة. إلاّ أنّها ليست المرّة الأولى التي تُطْلِقُ فيها أميركا مثلَ هذا المصطلح في إطار تعاملها مع خصومها: فقد سَبَقَ للرئيس رايغن أن وصف الاتحادَ السوفياتيَّ في فترة الحرب الباردة بـ «إمبراطوريّة الشرّ»؛ وإبّان الحرب العالميّة الثانية أُطْلِقَ على دول المحور (ألمانيا وإيطاليا واليابان) مصطلحُ «محور الشرّ.» وتوظِّف أميركا اليوم هذا المفهوم في مقابل «محور الخير» الذي تدّعي أنّها تقوده في حرب مقدّسة بعد أحداث ١١ أيلول. ويحاول الرئيس بوش الابن أن يصنِّف مجموعةً من الدول التي يكنّ لها العداء ضمن «محور الشرّ» ويهدّدها بتوجيه ضربات انتقاميّة ضدّها.

والملاحَظ أنّ مفهوم «محور الشرّ» قد خضع منذ الحرب العالميّة الثانية لتحوُّلات عميقة. فدول «محور الشرّ» التي كانت تواجه الحلفاءَ شكّلتْ عدوّاً استراتيجيّاً وسياسيّاً وإيديولوجيّاً، وخاضت حربًا معلنة ضدّهم. كما ارتبطتْ قضيةُ الشرّ، آنذاك، بالنزعة العدوانيّة والتوسُّعيّة للنظاميْن النازيّ والفاشيّ. وبطبيعة الحال، فعندما وُظِّف مصطلحُ «الشرّ» كان له ما يبرّره على مستوى الواقع. فهل يمكننا الحديثُ، اليومَ، عن وجود مثل هذه المسوِّغات الواقعيّة؟ الإجابة عن هذا السؤال نَعْثر عليها في تحليلات المهتمّين التي جاءت في عموميّتها مستفسِرةً ومستوضِحةً عن الأسباب الحقيقيّة وراء استصدار أميركا لمثل هذا التصنيف الاعتباطيّ وغير الدقيق، ولنستخلصَ أنّ هذا الاتّهام تقف وراءه أغراضٌ ذاتيةٌ لأميركا تستهدف تصفيةَ حسابات ضدّ أنظمة هذه الدول، خاصّةً وأنّ المجتمع الدوليّ ـ وعلى رأسه الحلفاء الأوروبيّون لأميركا في الحلف الأطلسي ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصاديّة وبلدان الاتّحاد الأوروبيّ عامّةً ـ لا يستسيغون التصنيف الذي وضعه بوش، ولا يبدون أيَّ حماس حقيقيّ في السير في مغامرة جديدة ضدّ أيٍّ من الدول الثلاث؛ وهو ما يُفْقد الدعوةَ الأميركيّةَ أيَّ إجماع دوليّ. والتضامن الوحيد الذي يمكن أن تجده يأتي من بريطانيا أساسًا، إلى جانب بعض الدول الغربيّة، دون أن ينجح في تشكيل إجماع دوليّ مكثّف كما حصل إبّان حرب الخليج الثانية وفي الحرب ضدّ طالبان وتنظيم القاعدة في أفغانستان.

وما يؤكّد ما قلناه أنّ الجيران الإقليميِّين للدول الثلاث، والذين يُحسبون أصدقاءَ أميركا وحلفاءها، لا يُبْدون أيَّ استعداد لمسايرة الموقف الأميركيّ. فعندما زار الرئيس الأميركيّ مؤخّرًا كوريا الجنوبيّة لاحظنا حجمَ المظاهرات وقوّةَ الاحتجاجات التي واجهتْ هذه الزيارة، مندِّدةً بقرار بوش بشأن كوريا الشماليّة. ذلك لأنّ



كوريا الجنوبيّة تتظاهر ضدّ قرار بوش اعتبار كوريا الشماليّة في «محور الشرّ»

أميركا بموقفها المعلن ضدّ كوريا الشماليّة تُوصِدُ طريقَ الحوار الذي بدأ بين الكوريتيْن، والذي يسعى إلى فتح سبل السلام والتعايش، وربّما توحيد البلدين والشعبيْن، بعد مدّة طويلة من الانفصال والعداء بين النظاميْن الحاكميْن في كلتا الدولتيْن. وكذلك الشأن بالنسبة إلى العراق الذي بدأ يعود إلى المنظومة الإقليميّة العربيّة تدريجيّاً، كما أنّ منطقة الشرق الأوسط بدأتْ تشهد تحوُّلات تاريخيّة في العلاقات العربيّة ـ العراقيّة، وتهدف الجامعةُ العربيّةُ إلى إعادة إدماج العراق في المجموعة العربيّة. وقد ذهب بعضُ المتفائلين إلى التأكيد أنّ كل النزاعات القائمة بين دول الخليج العربيّ والعراق قابلةٌ للتسوية في المستقبل القريب، إذا ما احترم العراقُ تعهّداته في إطار الجامعة العربيّة. ومثلُ هذا الوضع لا يَسْمح بتوجيه أيّ ضربة عسكريّة جديدة ضدّه. وإذا ما تمت هذه الضربة فستضطرّ دولُ الخليج مجدّدًا إلى الدخول في تحالفات مركزيّة مع أميركا أو إلى تقديم تسهيلات عسكريّة لها في المنطقة؛ وهو ما سيَبْعث التوتّر من جديد ويؤدّي، بالتالي، إلى الانفصام في العلاقات العراقيّة ـ العربيّة بما يهدّد أمن المنطقة لسنوات أخرى قادمة. أمّا بالنسبة لإيران فهي دولة تعيش نموذجًا جيّدًا للديموقراطيّة الحقيقيّة في منطقة الخليج العربيّ، وتراجعتْ نزعة التطرُّف التي عرفتها في عهد الخميني ورفسنجاني منذ وصول الرئيس محمد خاتمي إلى السلطة بدعم من الإصلاحيِّين. وقد انعكس ذلك على سياستها الدوليّة تجاه جيرانها الإقليميِّين وصارت أقرب إلى التهدئة والحوار والتعاون. ولا يمكننا تصوُّر أيّة دولة في هذا النظام الإقليميّ يمكنها أن تشجِّع الموقف الأميركيَّ الساعيَ إلى ضرب إيران، لأنّ من شأن ذلك أن ينْعكس سلبًا على مستقبل السلام في المنطقة.

وعمومًا، نقول إنّ الولايات المتحدة قد أخطأتْ خطأً مزدوجًا عندما عمدتْ إلى ذلك التصنيف العشوائيّ والتلقائيّ. ولهذا، فإنّ عليها مراجعة مواقفها وسلوك سياسة اعتداليّة إنْ شاءت ألاّ تعصف بموقف التفوُّق الذي تتمتّع به في إطار الأحاديّة القطبيّة التي تميِّز العلاقات الدوليّة المعاصرة. ولا شكّ أنّ الولايات المتحدة قد أدركتْ مؤخّرًا حجم خطإها، ولا أدلّ على ذلك من التصريحات التي صدرتْ عن مستشارة الأمن القوميّ السيدة رايس، وفيها أوضحتْ أنّ عمليّة التصنيف لا تَعْني استعمال القوّة ضدّ البلدان الثلاث، وإنّما هي بمثابة تحذير تنتظر من ورائه الإدارةُ الأميركيّةُ أن تنْصاع تلك الدولُ لمواقف المجموعة الدوليّة وللقانون الدوليّ ـ وهو ما يؤشّر على درجات من التراجع في حدّة الخطاب الذي تحدّث به بوش أمام الكونغرس. ويمكننا بالتأكيد إحالةُ أسباب هذا التراجع إلى عدم تجاوب المجتمع الدوليّ مع الخطاب الأميركيّ.

إنّ أهمّ وسيلة لتحديد مفهوم «الشرّ» أو لإعادة تحديده هي تلك التي جاءت متضمَّنة في ميثاق الأمم المتحدة، حين اعتبر أنّ الدول التي تمارس عملاً من أعمال العدوان هي التي تجب أن تخضع لمقتضيات الفصل السابع من الميثاق. ولتحقيق هذه الغاية وُضِعتْ تشكيلةُ ما يسمّى «نظامَ الأمن الجماعيّ» الذي عرّفه فقيهُ العلاقات الدوليّة الأميركيّ هانز مورجنتاو في كتابه **السياسة بين الأمم: الصراع من أجل القوّة والسلام** بأنّه الكل للواحد والواحد للكلّ. ويبدو أنّ النظام الذي قامت عليه الأمم المتحدة يَرْتكز أساسًا على قيام أمن جماعيّ في مواجهة دول العدوان. وقد ظلّت كلمة «العدوان» غامضة في أدبيّات الأمم المتحدة حتى سنة ١٩٧٤، حين صدر قرار شهير عن الجمعيّة العامّة يُعرِّف العدوان بأنّه تلك الاعتداءات المسلّحة التي توجَّه ضدّ الاستقلال السياسيّ أو الوحدة الترابيّة أو السلامة الإقليميّة لدولةٍ ذاتِ سيادة وعضو في المنتظم الأمميّ. فهل قامت الدولُ الثلاثُ الموصوفةُ بالشرّ بأيّ عمل من العدوان، سواء ضدّ أميركا وأمنها القوميّ أو ضدّ الأمن الجماعيّ العالميّ؟

بناءً على بداهة الإجابة نستطيع القول إنّ الولايات المتحدة، في موقفها الأخير من الدول الثلاث، لا تتوفّر على أيّة حجّة قاطعة على تورُّطها في أعمال عدوانيّة أو حتى تحرُّشات عدوانيّة. ولم نعلم بأيِّ دولة تسعى للقيام بعمل عدوانيّ أو لها نيّةٌ توسعيّةٌ توظّف

حوار مع محمد تاج الدين الحسيني حول «محور الشر»

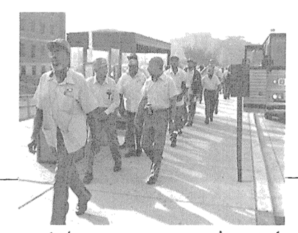
لتحقيقها ما تختزنه من أسلحة الدمار الشامل. فكلّ ما تحتجّ به أميركا ضدّ هذه الدول أنّها تتوفّر على كميّات هائلة من أسلحة الدمار الشامل، وأنّها قد تعمد إلى توظيفها في حرب حقيقيّة مستقبلاً. ولا نعلم أنّ هناك تكييفًا لسياسة النوايا في تدبير العلاقات الدوليّة داخل المنظومة الدوليّة. وإذا كنّا سنحاكِمُ النوايا ونضعها آليّةً من آليّات صناعة القرار الدوليّ، فلا نَفْهم كيف لا ترى أميركا أنّ امتلاك إسرائيل للأسلحة النوويّة ولكافّة أسلحة الدمار الشامل يشكّل مصدرَ تهديد لتوازن القوى الإقليميّة في منطقة الشرق الأوسط، ومنبعَ الشرّ فيها!

تحتكم طبيعةُ العلاقات الدوليّة في الغالب إلى الخلفيّة التاريخيّة كناظم أساسي لسيرورتها. الا يمكن أن نَرْبط إدراج دول، كالعراق وإيران وكوريا الشماليّة، ضمن دائرة الشرّ الدوليّ بهذه الخلفيّة التاريخيّة وهذا الإرث العالق بذاكرة أميركا؟ ولنبدأ بإيران.

تلعب المسألة التاريخيّة دورًا أساسيّاً في هذا المنظور. فقد كانت الولاياتُ المتحدة الأميركيّة تَعْتبر شاهَ إيران الدركيَّ المتفوّق في منطقة الخليج والشرق الأوسط، والقادرَ على الدفاع الدائم عن المصالح الحيويّة الأميركيّة. وكان الشاهُ نفسُه لا يتبرّأ من هذه الصفة، خاصّةً وأنّ إيران كانت تتمتّع بالدعم اللوجيستيّ والأسلحة الأميركيّة. بل إنّ الشركات الأميركيّة الكبرى كانت ترتبط بعلاقات وطيدة مع «الشركة الإيرانيّة للبترول» التي كانت تُعتبر آنذاك من أولى الشركات المتعدّية الجنسيّة في العالم الثالث. ومع تراجع شعبيّة نظام الشاه وتزايد المظاهرات الشعبيّة ضدّه، وأمام تفاقم قوّة آية الله الخميني، مالت أميركا تدريجيّاً إلى نزع ثقتها عن الشاه وإلى استرضاء بعض جنرالات الجيش قَصْدَ تمكينهم من الاستيلاء على السلطة. لكنْ عندما فشلتْ أميركا في تنصيب العسكريّين راحت تبحث عن إمكانيّة لخطب ودّ الخميني. غير أنّ النقطة المفصليّة في هذه العلاقة، والتي قبرتْ كلّ محاولة للتقارب، هي عمليّةُ احتجاز الرهائن الأميركيّين في السفارة الأميركيّة في طهران. وبذلك فقدتْ أميركا طرفًا أساسيّاً من المعادلة في المنطقة كان يتولّى أمرَ السهر على مصالحها وتنفيذ مطامحها. وهذا الفقدان ترتّبتْ عليه حالةُ فراغ في المنطقة، حاولتْ أميركا ملأه بالاعتماد على السعوديّة وبعضِ دول الخليج. لكنْ بعد أحداث المسجد الحرام لم تعد أميركا تضع ثقتَها في حليف إقليميّ آخر في المنطقة سوى إسرائيل، لدرجةِ أنّ وزير الدفاع الأميركيّ السابق السيد براون قال بوضوح: «إنّ إسرائيل تمثّل في هذه المنطقة من العالم حاملةَ الطائرات الأميركيّة التي لن تَعْرف الغرقَ.» وقد وقّعتْ إسرائيلُ منذ أوائل الثمانينيّات مع الولايات المتحدة معاهدةَ التحالف الإستراتيجيّ، بحيث صارت بموجبها الحاميَ الفعليَّ والرئيسيَّ للمصالح الأميركيّة في هذه المنطقة.

ولمّا كانت إيران تتقوّى وتتطوّر إلى قوّة إقليميّة بتوفّرها على صواريخَ بعيدةِ المدى، وتجتهد من أجل تطوير قنبلة ذريّة إسلاميّة، وتتوفّر على أسلحة متفوّقة بالنسبة إلى جيرانها الإقليميّين، وتتبنّى نظامًا ديموقراطيّاً يختلف في محتواه ومبناه عن الطريقة الغربيّة، فإنّ ذلك كلّه يمثّل تحدّيًا للإدارة الأميركيّة التي لا تَرْغب في وجود قوّة إقليميّة في الشرق الأوسط خارجةٍ عن طوقها. كما أنّ أميركا لن تنسى تاريخيّاً أنّها فقدتْ في إيران حليفًا إستراتيجيّاً وقوّةً دركيّةً حاسمة في الحفاظ على التوازنات الإقليميّة داخل المنطقة.

شكّل العراق دومًا حالة خاصة في السياسة الدوليّة للإدارة الأميركيّة، ومبعثَ قلقٍ دائم لها. فما إنْ يصير حليفًا ظرفيّاً لأميركا حتى تطفو على السطح متغيّراتٌ دوليّةٌ ترمي بهذه العلاقة إلى ضفّة التوتر والعداء. فكلُّنا يتذكّر قيام حلف بغداد في مطلع ١٩٥٣، وكيف مثّل تحالفًا إستراتيجيّاً في مواجهة المدّ القوميّ. لكنْ ما لبث هذا التحالفُ أن تبدّد بقيام ثورة ١٩٥٨ ومقتل الملك فيصل. كما نتذكّر جميعًا التحالف الأميركيّ ـ العراقيّ إبّان حرب


ادّعت أميركا أنّ العراق يمتلك «الجمرة الخبيثة» وانّه طوّرها منذ السبعينيّات

الخليج الأولى، والذي ستتفكّك أوصاله بعد نهاية الحرب وخروج العراق منها قوّةً عسكريّةً جديدةً في المنطقة. ويسجِّل تاريخُ العلاقات الدوليّة بين العراق وأميركا أنّ العراق هو الدولة العربيّة الوحيدة التي ظلّت ملتزمةً قرارَ قطع العلاقات الديبلوماسيّة مع أميركا بعد حرب حزيران ١٩٦٧. فهل يمكن أن تكون لهذه العوامل التاريخيّة دورٌ في إدراج العراق ضمن محور الشرّ؟

حالة العراق ضمن دول محور الشرّ استثنائيّة. فبالإضافة إلى تحكّم العناصر التاريخيّة القديمة والحديثة فيها، فإنّ للحسابات الشخصيّة دورًا فاعلاً في توجيه هذه العلاقة. وفي هذا الإطار يمكننا أن نشير إلى درجة التوتّر في العلاقة القائمة بين الرئيس بوش الأب والرئيس العراقيّ، وكان السببَ المباشرَ فيها حربُ تحرير الكويت. لكنّ هناك أسبابًا غير مباشرة تؤطِّر هذه العلاقة وتفاقم حدّةَ العداء والتوتّر فيها. ومن هذه الأسباب اتّهامُ الرئيس العراقيّ مباشرةً بتدبير محاولة اغتيال بوش الأب أثناء زيارته للكويت بعد اعتزاله السياسةَ. ومنها كذلك أوامرُ الرئيس العراقيّ بوضع فسيفساء تَحْمل صورةَ الرئيس بوش على مدخل فندق الرشيد الذي يُستقبلُ فيه عادةً الرؤساءُ والملوكُ وضيوفُ الدولة من كبار الشخصيّات، وهو ما يعني أنّ جميع هؤلاء ملزَمون أن يطأوا بأرجلهم هذه الصورةَ عند دخولهم بهوَ الفندق. وفي غير مرّة نقلت المحطّةُ الأميركيّةُ .C.N.N هذه الصورةَ المعبِّرةَ لتصوّر للأميركيِّين درجةَ العداء التي يكنّها صدّام حسين شخصيّاً للرئيس الأميركيّ السابق وللشعب الأميركيّ. وقد عشنا جميعًا ردود الأفعال التي أعقبتْ أحداثَ ١١ أيلول، وسجّلنا أنّ الدولة الوحيدة التي لم تدِنْ أعمالَ الهجوم ولم تتوجّه بكلمات عاطفيّة ومؤثّرة إلى أميركا كانت العراق؛ حتى إنّ نائب الرئيس العراقيّ قال في تصريح له بعد هجمات ١١ أيلول: «إنّنا لن نتأثّر لما وقع في أميركا؛ فهي تجني اليومَ نتائجَ سياستها. بل نحن نتوجّه فعلاً بالعزاء إلى الشعب الأميركيّ، ولا عزاء لنا نقدّمه للإدارة الأميركيّة.»

منذ ذلك الوقت وأميركا تَبْحث بجدّ عن مبرِّرٍ معقولٍ يمكّنها من إعادة ضرب العراق، حتى إنّه عندما ثارت ضجّةُ رسائل «الجمْرة الخبيثة» أشارت الإدارة الأميركيّة بإصبع الاتّهام إلى العراق مدّعيةً أنّه كان يمتلك تلك الجمرةَ وقد طوّرها منذ السبعينيّات. كما اتّهمتْ بعضَ رجالات مخابراته في ألمانيا بتورُّطهم في علاقة مع محمد عطا، المتّهم بالاشتراك في تفجير الطائرات الانتحاريّة في ١١ أيلول. ونَعتقدُ أنّه لم يبقَ للولايات المتحدة اليوم إلاّ التمسّكُ، مرّةً أخرى، بمقولة إنّ العراق لم يَحْترم التزاماته الدوليّة بخصوص وجود فرق التفتيش الدوليّة هناك، وإنّه ما لم يَحْترم تلك الالتزاماتِ فإنّ أميركا ستضطرّ إلى توجيه ضربة عسكريّة إليه.

إلى جانب هذه المعطيات لا بدّ للمحلِّل أن يَسْتحضر الخلفيةَ التاريخيّةَ التي أشرتم إليها. فهذه العلاقات اتّسمت في أغلب مراحلها بالتوتُّر، والسببُ يعود إلى شكل النظام القائم في العراق ممثَّلاً في حزب البعث الذي يُعتبر رائدًا للحركة القوميّة العربيّة وللاتّجاه الراديكاليّ في النظام السياسيّ العربيّ. وهذا ما يفسِّر أنّ أكثر الدول العربيّة تصلُّبًا في العلاقة بأميركا وبالمجموعة الغربيّة هما العراق وسوريا، باعتبار إيديولوجيّة الفكر البعثيّ.

ننتقل الآن إلى توصيف العلاقة التاريخيّة بين أميركا وكوريا الشماليّة متسائلين: هل ماتزال كوريا الشماليّة تهدِّد مصالحَ أميركا حتى بعد نهاية الحرب الباردة؟ ولماذا يتمّ إدراجُها ضمن محور الشرّ في وقتٍ تَعْرف فيه العلاقةُ بين الكوريتيْن تطوُّراتٍ هامّةً؟

في أواخر الأربعينيّات اندلعت الحربُ الكوريّة، وبلغتْ في حدود عام ١٩٥٠ تطوُّرًا أدّى إلى المطالبة بتدخُّل الأمم المتحدة، باعتبار أنّ مجلس الأمن هو وحده الذي يتوفّر على صلاحيّات واسعة في مجال الأمن الجماعيّ. لكنّ عندما طلب المندوبُ الأميركيُّ في الأمم المتحدة من مجلس الأمن اتّخاذَ قرار أمميٍّ بالتدخُّل العسكريّ في

حوار مع محمد تاج الدين الحسيني
حول «محور الشرّ»

المنطقة، انسحب الاتّحادُ السوفياتيُّ من مجلس الأمن ثم أعْلن اعتراضَه على ذلك التدخُّل، الأمر الذي دفع أميركا إلى نقل آليّة اتّخاذ القرار من مجلس الأمن إلى الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة عبر قرار «الاتّحاد من أجل السلام» وبموجبه أقرّت الجمعيّةُ العامّةُ إيفادَ قوات إلى كوريا. واستطاعت أميركا بهذه الورقة أن تقاتل بقوات أميركيّة ضدّ كوريا الشماليّة تحت علم الأمم المتحدة، وهي سابقةٌ مثيرةٌ في العلاقات الدوليّة. ونتيجةً للحرب الباردة وللتطوُّرات التي عرفتها المنطقة، حافظتْ أميركا على الوضع القائم فقط. لكنّها لم تنسَ أنّ كوريا الشماليّة عدوٌّ قديم، ويقوم بتطوير الأسلحة الكيماويّة والبيولوجيّة. بل إنّ أميركا تَعْتبر النظامَ الكوريَّ الشماليَّ نظامًا يجوِّع مواطنيه من أجل امتلاك أكثر الأسلحة تطوُّرًا وفتكًا، وأنّه يُسخِّر هذه الأسلحة لمجموعات وتنظيمات «إرهابيّة» ولدول تسمّيها أميركا «دولاً غيرَ مسؤولة.»

لهذه الأسباب أَدرجتْ أميركا كوريا الشماليّةَ في «محور الشرّ.» ولكنْ ثمّة أسبابًا غيرَ مباشرة، أو غيرَ معلنة، فرضتْها التطوُّراتُ الدوليّةُ في المنطقة، وتتمثّل في تقارب الكوريتيْن كما سبق أنْ ذكرنا. وبالتأكيد فليس من مصلحة أميركا اندماج كوريّ لأنّ من شأنه أن يُشجِّع بوادرَ سياسة الاندماج الاقليميّ في هذا الجزء الآسيويّ الحيويّ، وهو ما يهدِّد المصالحَ الإستراتيجيّةَ الأميركيّة.

أيُّ معنى تقدِّمه أميركا لمفهوم الأمن الجماعيّ راهنًا؟ وإذا كان هذا المفهومُ يقوم على ردع العدوان الفعليّ أو المحتمل، فهل تشكل دولُ «محور الشرّ» انتهاكًا للأمن الجماعيّ، وعدوانًا على طرف معيّن - وليكن الولاياتِ المتحدةَ بالذات؟

يمكننا القول إنّ الولايات المتحدة الأميركيّة منذ بداية التسعينيّات أخلّتْ بمفهوم الأمن الجماعيّ الذي بُني على أساسه هذا النظامُ في إطار مجلس الأمن والأمم المتحدة - وأَعْني بذلك مقتضيات الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة. ففي تلك الفترة اندلعتْ حربُ الخليج وتمّ بعدها تحريرُ الكويت، فألقى بوش الأب بعيْد ذلك خطابَه الشهيرَ الذي أشار فيه إلى أنّ المجتمع الدوليّ يَنْبغي أن يتجاوز المخاطر التي تؤسِّسُ لها حقوقُ الغاب، وأنّ علينا أن نُخضع علاقاتنا «لنظام عالميّ جديد.» غير أنّ ذلك النداء لم يكن يبشِّر بنظام عالميّ جديد، بقدر ما كان يبشِّر ببزوغ عهد الأحاديّة القطبيّة وتراجُع توازن القوى القائمة على الثنائيّة.

عندما نقول نظام الأمن الجماعيّ، فإنّنا نَعْني به مشاركةَ جميع الأطراف فيه. إلاّ أنّ الولايات المتحدة الأميركيّة أضحتْ منذ عام ١٩٩١ تمارس سلوكها بشكل منفرد في نظام العلاقات الدوليّة. فعندما انعقد مجلسُ الأمن في أوّل قمّة له في ماي ١٩٩١، وحضره بوش الأب إلى جانب العديد من قادة الدول، صَدَرَ بيانٌ ختاميٌّ يحمل دلالات واعدة بخصوص ضرورة إعطاء الأمم المتحدة دورًا أساسيًا في تسوية المنازعات الدوليّة بالطرق السلميّة المتاحة. لكنْ عندما انتقلنا إلى مستوى الممارسات الفعليّة لاحظنا أنّ الولايات المتحدة تسير في اتّجاه آخر: فهي قد عمدتْ، منذ البداية، إلى إخراج كلّ القضايا الحيويّة من إطار الأمم المتحدة إلى إطار المؤتمرات الدوليّة أو اللقاءات الثنائيّة. ولا أدلّ على ذلك من مؤتمر مدريد؛ إضافةً إلى القضايا التي تهمّ البوسنة والهرسك والصومال، والتي تمّ الشروعُ في تسويتها عن طريق مسطرات خصوصيّة فرضتْها الإدارةُ الأميركيّة. فكان أن أُفرغت الأممُ المتحدةُ من محتواها. أكثر من ذلك أصبحنا نلاحظ أنّ مجلس الأمن قد أصبح مجرّد مطيّة لخدمة الأهداف الاستراتيجيّة للولايات المتحدة كلّما دعت الحاجةُ إلى ذلك. بل إنّ قيمة المساهمات الماليّة الأميركيّة في ميزانيّة الأمم المتحدة قد تتوقّف الإدارةُ الأميركيّةُ عن دفعها إلاّ عندما تفكّر في استعمال الأمم المتحدة لأغراضها الخاصّة. ونتيجةً لهذه المناورات الأميركيّة، فإنّ الحديث اليوم عن نظام الأمن الجماعيّ بمعناه الذي وُضع في «الميثاق» قد أصبح متجاوَزًا. بل يمكننا أن نعود بالنقاش إلى نقطة البدء حين صيغ ميثاقُ الأمم



انضباط العراق في إطار القانون الدوليّ ينزع البساط من تحت أقدام أميركا

المتحدة بعد ظروف الحرب العالميّة. فمن المعلوم أنّ هذا الميثاق جاء في ظلّ ظرفيّة تاريخيّة ارتبطتْ بانهزام دول المحور وانتصار الحلفاء. وإذا كانت الحربُ العالميّة الأولى قد شهدتْ توقيعَ معاهدة فرساي التي تضمّنتْ في الوقت نفسه أهدافَ عصبة الأمم، فإنّ نهاية الحرب العالميّة الثانية لم تشهدْ توقيعَ معاهدةٍ للصلح، وإنّما تمّ التسليمُ بدون قيد ولا شرط من طرف القوات النازيّة والفاشيّة. لكنّ وثيقة الصلح الأساسيّة التي وُقّعتْ كانت ميثاقَ سان فرانسيسكو. ومن غرائب الأمور أنّ الموقّعين على هذه الوثيقة ليسوا المنهزمين في الحرب، وإنّما هم كلُّ أعضاء المجموعة الدوليّة بدون استثناء. بل صار التوقيع على الوثيقة شرطًا للقبول بعضويّة الأمم المتحدة. هكذا نستطيع أن نفْهم أنّ نظام الأمن الجماعيّ هو نظامُ هيمنة البلدان المتفوّقة. وهذه آفة يعيشها النظامُ الدوليُّ، وتبقى إلى اليوم عائقًا جدياً أمام كل أمل في تحقيق الأمن الجماعيّ.

لكنْ رغم مؤاخذاتنا على ميثاق الأمم المتحدة وعلى مفهوم الأمن الجماعيّ، فإنّنا سنَستشهد به لتحديد ماهيّة العدوان. فوفقًا لضوابط الأمم المتحدة التي صيغتْ بشكل واضح ضمن الميثاق، ولاسيّما مقتضياتُ الفصل السابع، بالإضافة إلى التعريف الذي قدّمته الأممُ المتحدةُ من خلال الجمعيّة العامّة استنادًا إلى قرارها الشهير لسنة ١٩٧٤ بخصوص تعريف العدْوان، فإنّ الوضعيّة الحاليّة التي تُوجد فيها الدولُ الثلاث المذكورة لا تشكّل تهديدًا لنظام الأمن الجماعيّ، وليست لها نيّةٌ لممارسة عمل من أعمال العدوان قد يبرِّر تدخُّل أيِّ قوّةٍ مسلّحة في إطار سيادتها الإقليميّة. وأودّ الإشارة هنا إلى أنّ أميركا عندما وَجّهتْ إنذارها إلى هذه الدول لم توجّهه باسم المنظّمة العالميّة أو باسم المجتمع الدوليّ، وإنّما وجّهته باسم الإدارة الأميركيّة؛ وهذا في حدّ ذاته يشكّل خرقًا لمقتضيات الميثاق: ذلك أنّه لا يحقّ للدول الأخرى أن تتدخّل إلاّ في إطار المادة ٥١ من الميثاق التي تنصّ على أنّه ليس هناك ما يَمْنع دولةً بشكل منفرد أو جماعيّ من أن تمارس حقّها الطبيعيّ والمشروعَ في الدفاع عن النفس إذا ما تعرّضتْ لاعتداء من طرف قوات مسلّحة. لذلك تظلّ أميركا واهمةً إنْ هي فكّرتْ في استعمال القوّة ضدّ الدول الثلاث استنادًا إلى نظام الأمن الجماعيّ. ذلك أنّ المادة ٥١ صريحةٌ ولا تحتاج إلى تقديرات تأويليّة جديدة. كما أنّ حدود الدفاع الشرعيّ عن النفس أو عن المصالح الحيويّة القوميّة لا يُمْكن أن تطبّق إلاّ إذا تعرّضتْ دولةٌ ما فعليّاً للاعتداء من قوّة مسلّحة ـ وهذا ما لم يحدث في العلاقات الأميركيّة مع الدول الثلاث المصنّفة في إطار «محور الشرّ.» وإذا كان قرارُ الجمعيّة العامّة للأمم المتحدة يعطي تفسيرًا واضحًا لمفهوم العدوان، كأن تُمسّ السلامةُ الإقليميّةُ أو الوحدةُ الترابيّةُ أو سيادةُ دولةٍ عضوٍ في هيئة الأمم المتحدة، فكيف يُمْكن أميركا أن تكيِّف القانونَ الدوليّ لصالح نازلتها الجديدة؟ وحتى إذا اعتبرنا أنّ من واجب نظام الأمن الجماعيّ أن يتحرّك في مثل هذه الظروف، فإنّ حركيّته ستتحقّق انطلاقًا من قرار يستصدره مجلسُ الأمن واعتمادًا على قوّات دوليّة تقوم بمهامّها تحت عَلَم الأمم المتحدة.

بخصوص طبيعة «العدوان» الذي يَصْدُر عن دول «محور الشرّ» من خلال التكييف الأميركيّ فنحن لا نَمْلك تفاصيلَ مهمّةً عن الأرضيّة التي اعتمدتها أميركا في اتّخاذ هذا القرار. لكنّنا نستطيع أن نستأنس بتصريحات الرئيس الأميركيّ ووزير خارجيّته ومستشارة الأمن القوميّ. فمن خلال هذه التصريحات نَسْتنتج أنّ الولايات المتحدة تَعْتبر هذه الدولَ الثلاثَ مهدِّدةً لمصلحتها القوميّة والحيويّة بسبب تطويرها لأسلحة الدمار الشامل، وتخزينها، واستعدادها لاستعمالها في حرب فعليّة، أو لتمكين بعض الجهات «الإرهابيّة» من توظيفها (كما جرى مثلاً في قضيّة سفينة الأسلحة التي زعمتْ إسرائيل أنّ إيران هرّبتْها إلى فلسطين). وتبقى هذه التصوُّرات مجرّد افتراضات تَفْتقر إلى الحجّة الماديّة على تحقُّقها. فبالنسبة إلى العراق، مثلاً، تتمسك أميركا برفض هذا البلد لعودة المفتّشين الدوليّين وتَعْتبر رفضَه هذا قرينةً حاسمةً على امتلاكه أسلحةَ الدمار الشامل ـ وهذه قرينة، كما ترون، لا تستند إلى أيّ أساس.

حوار مع محمد تاج الدين الحسيني
حول «محور الشرّ»

إطلاق الولايات المتحدة لمفهوم «الشرّ» بإمكانه أن يعجّل في إقامة علاقة تعاقديّة تحافظ بها دولُ «محور الشرّ» على أمنها واستقلالها في مواجهة دول الحلفاء إذا ما نسقتْ هذه مع الولايات المتحدة. فما هو رأيكم؟

العلاقات التعاقديّة التي يُمْكن أن تُبْرمها هذه الدولُ ترتبط أولاً بتحقيق نوع من الانضباط في إطار القانون الدوليّ والشرعيّة الدوليّة. ونَعْتقد أنّ العراق سائر في هذا الاتّجاه؛ فقد لاحظنا كيف أنّ وزير الخارجيّة العراقيّ عاد إلى قيادة المفاوضات مع الأمين العام للأمم المتحدة ـ وهي مفاوضات أجمع الكثيرُ من الملاحظين والمحلّلين على جديّتها ونجاحها. وإذا ما تحققتْ مثلُ هذه الافتراضات، فإنّ ذلك سيكون بمثابة نزع البساط من تحت أقدام الولايات المتحدة الأميركيّة، لأنها لن تجد آنذاك أيّةَ ذريعة تتمسّك بها لقيادة حملة ضدّ العراق.

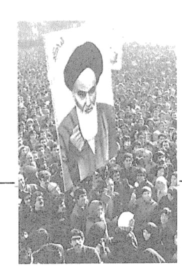
أمّا بخصوص الدولتين الأُخريَيْن، فلا نتصوّر أنّ أميركا ستغامر بقيادة حملة عسكريّة ضدّهما. فتجربتها مع إيران أثناء محاولة إنقاذ رهائن السفارة الأميركيّة في طهران كانت فاشلة. وأمّا بخصوص كوريا الشماليّة، فلا نتصوّر أنّ القوى الإقليميّة في المنطقة، وعلى رأسها الصين، ستظلّ مكتوفةَ الأيدي إذا ما تحرّكت الولاياتُ المتحدةُ في اتّجاه استعمال القوّة ضدّ كوريا الشماليّة. وتأسيسًا على كل ذلك نرى أنّ ما صرّح به الرئيسُ الأميركيُّ يدخل في إطار حرب الدعاية التي تحاول أميركا، من خلالها، أن تُظْهر للعالم الخارجيّ أنّها قادرة على الوصول إلى أعدائها في أيّ مكان بعد إحساسها بالنجاح الباهر الذي حقّقته في أفغانستان.

أمّا بخصوص العلاقة التعاقديّة المحتملة بين دول محور الشرّ، فشخصيّاً أَسْتَبْعد مثلَ هذه العلاقة إنْ نحن أدرجناها في الإطارات التاريخيّة والإيديولوجيّة لكلّ دولةٍ على حدة. فلا يمكن تخيّلُ علاقة تعاقديّة استراتيجيّة بين إيران الإسلاميّة المتشدّدة وكوريا الشماليّة الشيوعيّة المتشدّدة. ويَصْعب جداً أن تعود العلاقاتُ بين العراق وإيران إلى وضعها الطبيعيّ، خاصةً وأنّ هناك الآلافَ من الأسرى الذين مايزالون محتجزين لدى الدولتين، وهناك جروح غائرة في أجسادِ كلٍّ منهما، وسيكون من الصعب تصوُّر تحالفٍ حقيقيّ بينهما. لكنّ الظروف الحالية التي وضعتْ هذه الدولَ في منظومة واحدة تستطيع أن تَفْرض تحالفاتٍ ظرفيّةً لتحقيق بعض المكتسبات المحدودة.

من القواعد الأساسيّة لنظام العولمة أنّ القوّة المهيمنة عالميّاً تهدف إلى منع ظهور أيّة قوّة هيمنة إقليميّة. فهل تملك دولُ «محور الشرّ» مقوّمات قوى الهيمنة الإقليميّة؟

يجب أن نَعْترف، بدايةً، أنّ ما أُطلق عليه «محورُ الشرّ» هو دولٌ تتمتّع كلٌّ منها بسيادتها في إقليمها وتتوفّر على مقوّمات هذه السيادة ـ بما فيها القوّة العسكريّة. ولكنْ ليس من هذه العناصر ما يؤهّلها لاحتلال مركز القوّة المهيمِنة أو المتفوّقة إقليميّاً لخلق نظام إقليميّ حقيقيّ في منطقة ما، خاصةً أنّ هذه العناصر الإقليميّة توجد مطوّقةً إقليميّاً إمّا بقوّةٍ متحالفةٍ مع الولايات المتحدة وإمّا من خلال حضور أميركا حضورًا مباشرًا. فإذا أخذنا وضعيّة كوريا الشماليّة فسنلاحظ أنّ الكفّة هي لصالح كوريا الجنوبيّة. وبالنسبة إلى العراق، فبعد نهاية حرب الخليج أصبح التوازنُ يتحقّق لمصلحة المملكة السعوديّة وباقي بلدان الخليج العربيّ. أمّا بالنسبة إلى إيران، فأميركا تَعْتقد أنّ إقرار التوازن معها لا يَقْتصر فقط على دول مثل تركيا والباكستان، وإنّما تعتبر أنّ الأمر يَرْتبط بحقوق تهمّ روسيا وبعضَ الدول الأخرى في هذه المنطقة من العالم. لذلك، فإنّ هذه الدول الثلاث لا يُمْكنها أن تشكّل، في المرحلة الراهنة، قوّةً إقليميّةً متفوّقةً يمكنها أن تصارع نظامَ العولمة بشكل مفتوح، ولاسيّما إذا فهمنا نظامَ العولمة في مضمونه الشموليّ، إذ لا يَنْبغي أنْ نَقْصره على البعد العسكريّ والإستراتيجيّ فقط لأنّ مفهوم العولمة بالأساس هو مفهوم اقتصاديّ وانطلقتْ تصوُّراته الأولى مع مصطلح «وحدة الأسواق.»

في مستوى آخر نؤكّد أنّه لا يكفي أن تَرْفع دولةٌ ما شعارَ المعارضة



الخطر الوحيد الذي تشعر به أميركا، رغم أنّه لا يمثّل قوّة إقليميّة، هو القادم من إيران

لتَزْعم توفُّرها على سياسة خارجيّة مستقلّة، بل يَنْبغي أن تَمْلك إمكانيّات سياستها الخارجيّة قبل كلّ شيء، ثمّ تأتي الدبلوماسيّةُ لخدمة تلك الإمكانيّات وتوظيفها. وإذا أخذنا كل دولة بمفردها، وحاولنا فهمَ آليّة اتّخاذ القرار داخل مؤسّساتها، وتساءلنا عن مدى قدرة ذلك القرار على عبور الحدود الوطنيّة للتأثير في ما سواها، لأُصبنا بخيبة أمل، اللّهم باستثناء حالة واحدة هي حالة إيران. فالعراق مكبّلُ اليدين، وما يَحْصل عليه من عائدات نفطية تُقتطع نسبةٌ كبيرةٌ منها لفائدة نظام التعويضات، والباقي يوظَّف تحت مراقبة دوليّة. فالعراق، إذن، لا يَمْتلك اليوم أيّة وسائل تأثير في إدارة القرار على الصعيد الدوليّ. وأمّا كوريا الشماليّة، فبالرُّغم من قوّتها العسكريّة المتفوّقة فإنّها قزم اقتصاديّ، ويعاني سُكّانُها المجاعةَ باستمرار، وتحصل على مساعدات غير مردودة من كوريا الجنوبيّة ومن العديد من الدول الأخرى. كما أنّ تأثيرها في السياسات الدوليّة تبقى جدّ محدودة. وتبعًا لذلك، فإنّ الخطر الوحيد الذي تشعر به أميركا، رغم أنّه لا يمثّل قوّةً إقليميّة، إنّما هو ذاك القادمُ من إيران. فهذه الدولة تقود مفهومَ الثورة الإسلاميّة التي تبشّر بنظام يُمَكّن من تحقيق ديموقراطيّة حقيقيّة على الأرض، ويمكنها أن تصدِّر نظامها إلى مناطق أخرى من العالم، وبخاصة إلى تلك التي تَنْتمي إلى العالم الإسلاميّ.

إنّ التفسير القريب إلى المنطق لعلاقات أميركا بهاته الدول الثلاث يكمن في إحساس أميركا بأنّها تتربّع على عرش الأحادية القطبيّة دون منازع، فلا يُعْقل أن يتمكّن «لاعبون إقليميُّون» من خلخلة التوازن الذي تُشْرف عليه! ونعتقد أنّ أحداث ١١ أيلول ليست مجرّد تهديد لهذا التوازن ولهذه الهيبة العالميّة، بل هي ضربٌ لمصالح أميركا في عقر دارها. ومن ثمّ، فإنّ الولايات المتحدة جادّة اليوم في التنقيب عن أيّ مصدر مقلق لوضعها الداخليّ وأمنها الإقليميّ ومصالحها الحيويّة في أيّ منطقة في العالم من أجل إقصائه والقضاء عليه.

ولكنْ مَن الذين يحقّ له أن يقدّم تعريفًا لمفهوم «الشر الدوليّ»؟

لا نجد مكانًا لكلمتي «الشرّ» و«الخير» في القانون الدوليّ. وكما نعلم فإنّ القانون الدوليّ يرتبط تحديدُه أساسًا بالشرعيّة الدوليّة. فإذا كانت إحدى الدول تشكّل تهديدًا للسلامة الإقليميّة أو للاستقلال السياسيّ أو للوحدة الترابيّة لدولة أخرى، فإنّ هذه الدولة تُعتبر ممارسةً لعمل من أعمال العدوان، ويَنْبغي على المجتمع الدوليّ أن يتصدّى لها من خلال نظام «الأمن الجماعيّ» المعمول به الأمم المتحدة. ولكن الحقّ أنّنا نعيش ظاهرةَ تهميش دور الأمم المتحدة كمنظّمة عالميّة: فالقرارات الحقيقيّة التي تهمّ المجتمع الدوليّ لم تعد تتمّ صياغتُها داخل مجلس الأمن أو الجمعيّة العامّة، وإنّما تقرَّر من قبل الإدارة الأميركيّة وتنفَّذ من طرفها وبمشاركة حلفائها. ونعتقد أنّه لا مجال لتجاوز هذا الوضع الخطير إلاّ بتعديل ميثاق الأمم المتحدة وقبولِ أعضاء آخرين دائمي العضوية في المنظّمة العالميّة، كمصر والهند ونيجيريا والبرازيل.

إذا كانت أميركا تستند في ادّعاءاتها ضدّ «محور الشر» بامتلاك الدول الثلاث أسلحةَ الدمار الشامل وبتهديدها للأمن الجماعيّ، فهل يوجد قانون دوليّ مجزّأ إلى وضعيتين: وضعيّة تحمي الدول المالكة لهذه الأسلحة، ووضعيّة مقابلة تحرّم دولاً أخرى من امتلاكها؟

نَعْلم جميعًا أنّ أميركا قبلتْ مكرهةً أن يَحْدث ما يسمّى بالنادي النوويّ. فقد ظلّت تحتكر السلاحَ النوويّ مدّة طويلة بعد نهاية الحرب العالميّة الثانية، إلى أن تجاوز ذلك الاحتكارَ كلٌّ من الاتّحاد السوفياتيّ والصين الشعبيّة، لتتوالى لائحةُ الدولة المالكة للسلاح النوويّ كفرنسا والهند وإسرائيل. وكان الرئيس كنيدي، منذ أوائل الستينيّات، يحذّر العالم من مغبّة أن يقع السلاح النوويّ في يد ما سمّاه «الدولَ اللامسؤولة.» وقد أثير الكثيرُ من النقاشات حول ما يقع في روسيا وأوكرانيا وحول تفكيك المركّبات النوويّة. ونعتقد أنّ

حوار مع محمد تاج الدين الحسيني حول «محور الشر»

تقسيم العالم إلى دول من حقّها أن تمتلك السلاح النوويّ، وأخرى تُحْرم هذا الحقّ، يبقى فعلاً غيرَ منصِف على الإطلاق. فهناك معاهدة للحدّ من انتشار الأسلحة النوويّة تَرْفض أميركا التوقيعَ عليها، في الوقت الذي تناصب فيه العداءَ دولاً أخرى تسير في الاتّجاه ذاته كما فعلتْ منذ بضع سنوات مع الهند والباكستان. وهي ترحِّب بامتلاك إسرائيل للأسلحة النوويّة وأسلحة الدمار الشامل، ولا تَقْبل أن تملك الدولُ العربيّةُ بعضَ الأسلحة الكيماويّة أو النوويّة.

أخيرًا، أيّ مستقبل ترونه للعلاقة بين أميركا ودول محور الشرّ؟

عندما انتهت أحداثُ ١١ أيلول راحت أميركا تحصي خسائرَها وتحصي في مقابل ذلك عددَ أعدائها. فكانت أن خرجتْ من الإدارة الأميركيّة عدّةُ لوائح تتضمَّن الكثيرَ من الدول «المارقة.» والظاهر أنّ هذه اللائحة لم تحدَّدْ بكيفيّةٍ دقيقةٍ منذ البداية، خاصّةً عندما قال الرئيس الأميركيّ: «مَنْ ليس معنا في حرب مواجهة الإرهاب فهو ضدّنا بكل تأكيد.» فبوش لم يكُنْ يعني يومها العراقَ وإيرانَ وكوريا الشماليّةَ وحدها، وإنّما العديدَ من الدول الأخرى. ولاحظنا في اللائحة الأوليّة، التي سرّبتها الولاياتُ المتحدة، الإشارةَ إلى أسماء دول متعدّدة منها ليبيا وسوريا. ويظهر الآن واضحًا أنّ أميركا، وهي تضع اللائحةَ الأخيرة لكلٍّ من كوريا الشماليّة والعراق وإيران، تسعى إلى وضع تصنيف تدريجيّ لتصفية حساباتها. وقد أشار الرئيس الأميركيّ بوضوح إلى هذا الافتراض عندما ذَكَرَ أنّ عمليّة محاربة الإرهاب ستأخذ عشر سنوات، وأنّها ستنتقل من مواجهة الأعداء الأقربين إلى الأعداء الأكثر بعدًا. وقد لاحظنا خلال الفترة الأولى من السنة الحاليّة كيف أنّ بعض الدول باتت تُذْعن بوضوح شديدٍ للموقف الأميركيّ من خلال مطالبتها للقوات الأميركيّة بالتدخُّل في أراضيها لمواجهة الإرهاب، كما حدث مع النظام اليمنيّ والنظام الفليبينّي. أمّا بالنسبة إلى باقي الدول الأخرى، بما فيها دول «محور الشرّ،» فهي تواجَه بسياسة الردع الأميركيّة. ففي حالة العراق فإنّ أميركا ستعتبر أنّ أهدافها قد تحقّقتْ بمجرّد عودة المفتّشين إلى العراق، حيث ستُشْعِر العالَمَ أنّها حققتْ نصرًا دون خسائر. وفي إيران قد يستفيد خاتمي من السير قدمًا في نزعته الاعتداليّة، وستشرح أميركا ذلك للعالم بأنّها إذعانُ إيران لضغوط أميركا وعودةٌ إلى جادّة الصواب. ولربّما تنشئ كوريا الشماليّة مع جارتها الجنوبيّة علاقاتٍ أكثر تطوُّرًا تسير في اتّجاه التسامح والاعتدال في المواقف، فتحسبه أميركا انتصارًا لسياستها الخارجيّة. لكنْ يبقى الأمرُ المهمُّ وهو أنّ الولايات المتحدة حين توجّه التهديد تظلّ تحافظ على صمامات أمان لحماية علاقتها وسياستها الخارجيّة من كل تدهور قد يُحسب سلبيّاً على مصالحها الحيويّة والاستراتيجيّة. وهكذا فإنّ السياسة الأميركيّة بهذا الخصوص شبيهة بتلك الكثبان الرمليّة المتحرّكة التي لا تَرْسم خطوطًا دقيقة لحركيّتها لكنّها تؤثّر بالتأكيد في الوضع الطبوغرافيّ والمناطق التي تشملها.

إنّنا نعيش اليوم منعطفًا حقيقيًا في الحياة الإنسانيّة بدءًا بأحداث ١١ أيلول. إنّ شيئًا رهيبًا وقع في العلاقات الدوليّة، وفي توازن القوى الإقليميّ والشموليّ، وفي آلية اتّخاذ القرار بعد هذه الأحداث. لكنّ المهم هو أن تستطيع بلدانُنا أن تعي الدرس جيّدًا وأن تدرك أنّ الأوان قد آن لإقامة تحالفاتٍ حقيقيّةٍ تكون نواتُها اقتصاديّةً، من خلال مظاهر الاندماج الإقليميّ المبنيّة على الديموقراطيّة والتعدُّديّة واحترام حقوق الإنسان لبناء مجتمعٍ أفضل تتوفّر مقوّماتُه على الحصانة الكافية لمواجهة رياح التغيير.

الرباط

محمد تاج الدين الحسيني

أستاذ العلاقات الدوليّة في جامعة محمد الخامس ـ الرباط؛ نائب رئيس مركز حوار الحضارات؛ خبير لدى أكاديميّة المملكة المغربيّة. من مؤلّفاته: **الوجيز في القانون الدوليّ، حق التدخُّل في المجتمع الدوليّ، وسائل حفظ السلام.**

كوريا الشماليَّة:
بين مطرقة محور الشرّ وسندان العلاقات الأميركيَّة ـ الصينيَّة

ريمون ماهر كامل

لا شك أنَّ الدراما الإرهابيَّة التي تعرضتْ لها الولاياتُ المتحدة في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ قد أفرزتْ آثارًا جانبيَّة على صحة الجسد العالميّ جعلتْ كلَّ أعضاء الجسد في حالة استنفار قصوى من أجل تدارُك النزيف السياسيّ والاقتصاديّ والثقافيّ والعسكريّ الذي أصابه. ولعلّ القارة الآسيوية، دون استثناءِ أيٍّ من أقاليمها الجغرافيَّة، أصبحت اليومَ قلبَ هذا الجسد، لعدة اعتبارات أهمها: **أولاً**، القرار الأمريكي بشنّ حرب دوليَّة طويلةِ الأمد على الإرهاب تستند إلى جدولة زمنيَّة بدأتْ مرحلتُها الأولى في أفغانستان بتصفية حركة طالبان وتنصيبِ حكومةٍ مواليةٍ للولايات المتحدة بهدف إعادة صياغة التوازنات الإستراتيجيَّة في منطقة آسيا الوسطى وفقًا لحسابات المصالح الأمريكيَّة في القارة الصفراء. **ثانيًا**، خطاب «حالة الاتحاد» في ٢٩ يناير الماضي الذي حدَّد فيه الرئيسُ الأمريكيُّ الأضلاعَ الثلاث لما أسماه محورَ الشرّ. وربما يكون من قبيل المصادفة القدريَّة أن تكون الدولُ الثلاثُ آسيويَّةَ الهويَّة أيضًا.

والواقع أنَّ الزجَّ في هذا الوقت باسم كوريا الشماليَّة ـ كأحد أضلاع محور الشرّ ـ يكتسب أهميَّة خاصة لعدة اعتبارات. **أولاً**، لأنَّ كوريا الشماليَّة ما زالت تمثّل رمزًا هامًّا للشيوعيَّة في العالم، رغم ما تعانيه من تدهور اقتصاديّ حادّ وحالة شديدة من الفقر والمجاعة أودتْ بحياةِ ما يزيد على مليونيْ مواطن في السنوات الخمس الأخيرة. ومن ثم، فهي تُمثِّل أحدَ الكوابيس التي تؤرِّق نومَ الولايات المتحدة وتذكِّرها دومًا بعصرٍ طالما سعت إلى إدراجه ذاكرةَ النسيان، ألا وهو عصرُ القطبيَّة الثنائيَّة. ولذا، تجد الإدارة الأمريكيَّة في دعوى الحرب ضد الإرهاب فرصة ذهبيَّةً لتأديب هذا النظام الشيوعي المتعنّت. **ثانيًا**، هناك ملفّات ساخنة كثيرة على أجَنْدة العمل الأمريكيَّة في ما يخُصّ كوريا الشماليَّة، سواء بالنسبة إلى محادثات السلام المتعثِّرة من أجل الوحدة الكوريَّة، والتي تُعتبر إحدى أهمّ فتائل التوتر وعدم الاستقرار في المنطقة، أو التهديد النوويّ والصاروخيّ الذي تشكله بيونغ يانغ على المصالح الأمريكيَّة في آسيا. **ثالثًا**، إنَّ كوريا الشماليَّة هي أحد أهم محاور الصراع الأمريكيّ ـ الصينيّ، على خلفيَّة طابور الأزمات في ملفّ هذا الصراع: بدءًا بالأزمة التايوانيَّة، ومرورًا بالعقوبات الاقتصاديَّة الأمريكيَّة على الصين، وأزمةِ هضبة التيبت القائمة منذ الخمسينيَّات، والانتقاداتِ الأمريكيَّة المستمرّة لحقوق الإنسان في الصين، وانتهاءً بنموّ قدرات الصين البحريَّة ـ التي تهدِّد طرقَ التجارة اليابانيَّة ـ بسطوتها على المحيط الباسيفيكيّ بممرَّاته المائيَّة والتجاريَّة وجُزره وثرواته النفطيَّة والسمكيَّة.

بناءً على ذلك، اعترى العلاقات الأمريكيَّة ـ الصينيَّة قدرٌ كبيرٌ من التوتر بدأ يتصاعد منحاه منذ عهد الرئيس الأمريكيّ السابق بيل كلينتون. ولعلّ أزمتيْ طائرةِ التجسس الأمريكيَّة التي سقطتْ في الأراضي الصينيَّة مع بداية عهد الإدارة الأمريكيَّة الحاليَّة، وطائرةِ الرئاسة الصينيَّة البوينج ٧٦٧ الأمريكيَّة الصُنع التي اكتُشِف مؤخَّرًا أنَّها تحوي ٢٠ جهاز تجسّس أمريكيّ في يناير ٢٠٠٢، قدَّمتا الدليلَ القاطعَ على النوايا الأمريكيَّة تجاه بكين، وهي نوايا جاهرتْ بها الإدارةُ الجمهوريَّةُ حين روَّجتْ ـ فور تولّيها مقاليدَ الحُكم ـ فكرةَ أنَّ الصين ليست شريكًا بقدرِ ما هي تحدٍّ أمنيّ. فالولايات المتحدة قلقةٌ من صحوة التنّين الصينيّ الذي يسعى إلى تقليص نفوذها في منطقتيْ شرق آسيا وجنوب شرق آسيا. وأمَّا الصين فقد انتقدتْ ـ في أحدث تقاريرها الرسميَّة الصادرة في مارس ٢٠٠٢ ـ التهكُّمَ الأمريكيَّ على حقوق الإنسان في غيرها من الدول، بينما تُنْتَهك هي حقوقَ الإنسان عن طريق إقامة قواعد عسكريَّة ونشرِ مئات الآلاف من الجنود في كافة أنحاء العالم.

ورغم الدعم الصينيّ للحرب الأمريكيَّة ضد الإرهاب، فإنَّ هناك خطوطًا حمراء ترى بكين أنه من غير المسموح لواشنطن تجاوزها لأنها خطوطُ أمنٍ قوميّ، مثل كوريا الشماليَّة وتايوان. كما أنَّ

الصين بعد إعلان الحرب الأمريكيّة ضد الإرهاب قلِقةٌ من نشر الولايات المتحدة لقوات في قرغيزستان على حدود الصين في وسط آسيا، وقلقةٌ من عودة القوات الأمريكيّة إلى الفلبين. ومن ثم فإنّ الدعم النوويّ والصاروخيّ الذي تقدمه القيادةُ الصينيّةُ لبيونج يانج يأتي واحدةً من دعائم التوازن الإستراتيجيّ الصينيّ ـ الأمريكيّ في المنطقة.

وحقيقة الأمر أنّ النهج الذي حَكَمَ عملَ الإدارة الجمهوريّة الأميركيّة الجديدة إزاء كوريا الشماليّة قد اعتمد في الأساس على نقض كلِّ جهود التفاوض الإيجابيّة التي بذلتْها الإدارةُ الديموقراطيّةُ السابقة، والتي كانت قد وصلتْ إلى حدِّ إقناع مسؤولي كوريا الشماليّة بالتخلّي عن برنامجهم الصاروخيّ في يوليو ٢٠٠٠ في مقابل معونات أمريكيّة كبيرة، وإنْ كانت حكومةُ بيونج يانج قد طالبتْ آنذاك بالحصول على تكنولوجيا الفضاء (محرّكات الصواريخ الخاصّة بالبحوث الفضائيّة السلميّة). ورغم اعتراض الإدارة الديموقراطيّة على هذا المطلب خشيةَ أن تُستخدم هذه التجهيزاتُ في تطوير صواريخ أكثر كفاءةً، فإنّ الإدارة الجمهوريّة أوصدتْ بابَ التفاوض حول هذه النقطة دون محاولة استكمال الجهود السابقة، معارضةً استئنافَ المفاوضات بحجّة ظاهريّةٍ مُختلقةٍ مفادُها أنّ أيّ اتّفاق سيتمّ إبرامُه حول برنامج كوريا الشماليّة الصاروخيّ يجب أن يتضمن بنودًا تُتيح التحقق من تنفيذها للاتفاق وتَحُول دون خرقها إيّاه.

إلا أنّ الأهداف الأمريكيّة المستترة خلف هذه المعارضة متعددة، وتكْشف حقيقةَ التعاطي الأمريكيّ مع كوريا الشماليّة كأحد «محاور الشرّ» ومنها: **أولاً**، القضاء على أيّ نجاح حققته الإدارةُ الأميركيّة السابقة، لأنّ إبرام أيّ اتفاق مستقبليّ مع بيونج يانج يمكن أن يُنسب إلى الإدارة الديموقراطيّة السابقة؛ وربما كان هذا أحدَ دواعي الإدراج الأمريكيّ لكوريا الشماليّة كأحد أضلاع محور الشر بهدف إثبات خطإ تقدير الإدارة السابقة في تعاطيها مع الأمور. **ثانيًا**، إنّ بقاء الحال على ما هو عليه يَمْنح الإدارةَ الأمريكيّةَ مبرِّرًا منطقيّاً للمُضيّ قدمًا في تنفيذ برنامجها الدفاعيّ المضادّ للصواريخ الذي تُعارضه كلٌّ من الصين وروسيا. **ثالثًا**، فرضُ تصوُّر أمريكيّ يسعى إلى إقناع الأطراف الدوليّة ـ وبخاصّةٍ الدُّولُ الأوروبيّةُ واليابانُ ـ بالتعاطي مع حكومة بيونج يانج بمنطق المنبوذ بهدف فرض حالة من العزلة الدوليّة عليها. **رابعًا**، قَطْعُ الطريق على أيّة جهود تستهدف سلامًا بين الكوريتيْن، لأنّ تحقيق الوحدة الكوريّة هدفٌ لا يحقِّق المصالحَ الأمريكيّةَ في شبه الجزيرة الكوريّة. حتى إنّ الكوريّين في الشطر الجنوبيّ ـ وهم الحلفاء التقليديون لواشنطن ـ بدأوا يخشَوْن من أن يُقَوِّضَ بوش بتشدده إزاء بيونج يانج سياسةَ «الشمس المشرقة» المنفتحة التي يتبناها الرئيسُ الكوريُّ الجنوبيُّ كيم داي يونج للتقارب مع الشطر الشماليّ، ولاسيّما مع بلوغ إدارة هذا الرئيس عامَها الأخير، وحرصِه أكثر من أيّ وقت مضى على تحسين علاقات بلاده مع جارتها الشماليّة، بل وإبرام اتفاق سلام تاريخيّ معها. **خامسًا**، إعطاء مبرِّر منطقيّ لبقاء ٣٧ ألف جنديّ أمريكيّ في كوريا الجنوبيّة منذ انتهاء الحرب الكوريّة عام ١٩٥٣ كركيزةٍ ردع لكوريا الشماليّة وكأداةِ حمايةٍ للمصالح الأمريكيّة في المنطقة. **سادسًا**، تأجيج الصراع مع الصين بشكل يَسْتهدف استنزافَ مواردها، وهي مازالت في مرحلة البناء التحتيّ لتجربتها الاقتصاديّة الوليدة، ومن ثمّ القضاء عليها مبكّرًا.

إنّ انحراف الإدارة الأمريكيّة عن مسلك توحيد العدوّ ـ مرحلياً ـ كما حدث مع أفغانستان، بإعلانها المواجهةَ مع ثلاث دول ـ أعضاءِ محور الشرّ ـ دفعةً واحدةً، يدلّ على أن الحرب العسكريّة لن تكون اللغةَ الرسميّةَ الوحيدةَ في التعاطي الأمريكيّ مع هذا المحور، وإنما ستكون هناك آليّاتٌ أخرى غيرُ رسميّة تدور في فلك المناورات السياسيّة. وهذه الآليّات هي من قبيل: فرض مزيد من العقوبات



تحقيق الوحدة الكوريّة هدف لا يحقّق المصالح الاميركيّة في شبه الجزيرة الكوريّة

الاقتصاديّة، أو ممارسة ضغوط سياسيّة، أو تنشيطٍ للأعمال الاستخباريّة السريّة التي تستهدف زعزعةَ النظم السياسيّة.

وربما تكون حالةُ كوريا الشماليّة أكثر الحالات تعقيدًا في التعاطي معها، لأنّ توجيه ضربات عسكريّة جويّة لمنشآتها النوويّة والصاروخيّة سيناريو يصعُب تنفيذُه لما سيترتّب عليه من مواجهات بين عدة أطراف كُبرى قد تُنذر بإشعال المنطقة بأكملها بشكلٍ قد يجعل نتائجَها في عداد الغيبيّات. كما أنّ تنشيط العمل الاستخباريّ السريّ سيكون أيضًا في عداد المحاولات الفاشلة لزعزعة الاستقرار السياسيّ في البلاد بهدف تغيير نظام الحكم، لعدة أسباب أهمُّها: القبضة الحديديّة لحكومة پيونج يانج على مقاليد الأمور في البلاد؛ وعدمُ وجود قوى معارضة ذاتِ فعاليّة يُمكن الارتكانُ إليها أو مغازلتُها.

ومن ثمّ، إذا كانت محاولاتُ العزل الدوليّ تبدو هي الأقدرَ والأنجعَ في الحالة الكوريّة، وذلك من خلال ممارسة ضغوط سياسيّة ومزيد من العقوبات الاقتصاديّة، فإنّ الأمر سيتطلب مزيدًا من الوقت ليؤتيَ أُكلَه. كما أنّ فرض العقوبات الاقتصاديّة سيستلزم استصدارَ قرار من مجلس الأمن، غير أنّه من المؤكد أنْ يواجَهَ بڤيتو صينيّ ـ روسيّ يُبطل مفعولَ المحاولات الأمريكيّة. ولذا، قد تسعى واشنطن إلى سياسة الترهيب والترغيب مع نُظم كبرى تستظلّ بها كوريا الشماليّة، مثل الصين. ففي مقابل حسم نهائيّ للمسألة الكوريّة قد تَعْمد واشنطن إلى المناورة على دعم الحركة الانفصاليّة لإقليم سنكيانج القابع في أقصى شمال غرب الصين، والذي يُطالب سكّانُه المسلمون (البالغُ تعدادُهم حوالى ٥٠ مليون نسمة) بدولة مستقلة، علمًا أنّ هذا الإقليم مع التيبت يشكّلان ٣٠٪ من مساحة الصين ويستحوذان على النصيب الأعظم من احتياطيّها الإستراتيجيّ من المعادن والنفط والغاز.

ولذا يجب على صانع القرار في كوريا الشماليّة أن يُنوِّع أوراقَ اللعب في يده، فيُناورَ على تفعيل دور أطراف أخرى مثل روسيا، خاصةً في ظل الصحوة التي تشهدها السياسةُ الخارجيّةُ الروسيّةُ منذ اعتلاء ڤلاديمير پوتين سُدّةَ الحكم على أساس منهج جديد يعتمد على مزيد من الاندماج السياسيّ ولعبِ دورٍ فاعلٍ في القضايا الدوليّة، وعلى خلفيّة القناعة الروسيّة بأنّ كوريا الشماليّة شريك تاريخيّ بحُكم أنها أحدُ الأتباع الأوفياء للشيوعيّة. وثمّة طرف آخر يستطيع صانعُ القرار الكوريُّ أن يناور عليه أيضًا، وهو فرنسا، بحكم أنها أحدُ أهمّ الأطراف الدوليّة المناوئة للسياسات الأمريكيّة على طول الخط، فضلاً عن علاقتها بروسيا والصين.

كما أنه من غير المستبعد في الأمد المنظور حدوثُ تقاربٍ، بل وتعاونٍ، بين أعضاء محور الشر الثلاثة، تحت مظلة روسيّة ـ صينيّة، من منطلق مبدإ وحدة العدوّ. فتصبح كوريا الشماليّة على سبيل المثال أكثرَ استعدادًا لبيع تكنولوجيا تدخل في تحسين صناعة إيران للصواريخ، أو أكثرَ استعدادًا لبيع وسائلِ دفاع جويّ وتقنيات صاروخيّة للعراق، وذلك في مقابل تعامل تجاريّ أوسع، كأن تخصِّصَ نسبةً من تعاملات برنامج «النفط مقابل الغذاء» العراقيّ لصالحها.

كما أنّ الخلاف الذي بدا حول خطاب «حالة الاتحاد» بين الولايات المتحدة وشركائها الأوروبيين، ولاسيّما أعضاء حلف الناتو الذين تحفّظوا على تسمية «محور الشر» يمكن أن يلعب دورًا هامًا لصالح الموقف الكوريّ. ذلك لأنّ هؤلاء الأعضاء ملّوا منطقَ السياسة الخارجيّة الأمريكيّة التي تتعامل معهم بمبدإ التعليمات التي لا تَقْبل منهم سوى الانصياع دون تشاور مسبّق، رغم أنّ شرط التشاور كان أحدَ الوعود الأمريكيّة التي قطعتها الإدارةُ الجمهوريّةُ على نفسها إزاء حلفائها الأوروبيين بشأن مثل هذه القرارات المصيريّة.

خلاصة القول: إذا كانت تصفيةُ حركة طالبان وتنصيبُ حكومة جديدة في أفغانستان قد نجحا في بناء القاعدة الخرسانيّة الأمريكيّة الصلبة التي يُمكن على أساسها رسمُ خريطة التوازنات

كوريا الشماليّة:
بين مطرقة محور الشرّ وسندان العلاقات الأميركيّة ـ الصينيّة

الإستراتيجيّة الجديدة في آسيا الوسطى، فإنّ الإعلانَ الأمريكيّ عن «محور الشرّ» عَكَسَ حالةَ التخبُّط التي أصابت الإدارةَ الأمريكيّةَ عقب الأحداث، الأمر الذي أثار ـ ومازال ـ جدلاً واسعَ النطاق في الأوساط السياسيّة يميل في معظمه نحو المعارضة. ذلك أنّ النوايا الأمريكيّة من وراء هذا الإعلان باتت واضحةً للرأي العامّ العالميّ في أنّها تستهدف تصفية حسابات قديمة مع الدول الثلاث تحت دعوى مكافحة الإرهاب، ليتأصّل بذلك ـ أمريكيّاً ـ مفهومُ «صراع الحضارات» سياسيّاً وثقافيّاً ودينيّاً بين الحضارة الغربيّة من ناحية والحضارتين الإسلاميّة والكونفوشستيّة من ناحية أخرى. ولعلّ الضغط الذي مارسه الرئيسُ الأمريكيُّ على نظيره الصينيّ، خلال زيارته الأخيرة لبكين في فبراير الماضي، من أجل السماح بمزيد من الحريّة الدينيّة في الصين ـ ولاسيّما في ما يخصّ قضيّةَ الدالاي لاما، الزعيمِ الروحيّ للتيبت الذي يعيش في المنفى، وقضيّةَ اعتقال أمريكيين من أتباع طائفة فالون جونج، واعتقال أساقفة من الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة...إلخ ـ يُعدّ دليلاً واضحًا على ذلك.

ولكنّ تقاطع خطوط المصالح الأمريكيّة، وتشابكَها بالشكل المعقد الذي سبق ذكرُه، يوحيان بأنّ العالم سيَشْهد حربًا باردةً جديدةً لا تقتصر على الملفات السياسيّة أو العسكريّة فقط، وإنما تتعدّى ذلك إلى الملفات الثقافيّة والحضاريّة والدينيّة أيضًا. وهذا ما يوجب على الولايات المتحدة أن تتعاطى مع الوضع بقدرٍ أكبرَ من الحذر، من خلال السعي إلى فضّ هذا الاشتباك والتعاملِ مع كل قضيّة على حدة، دون اللجوء إلى لغة التهديدات التي ثَبَتَ عدمُ جدواها. ذلك لأنّ ردود أفعال شعوب العالم الثالث المطحون ـ التي تمثّل كوريا الشماليّة أحدَ أبرز أعضائه ـ إزاء الوجود العسكريّ الأمريكيّ في الكثير من أقاليم العالم وإزاء التدخُّل الأميركيّ في شؤون أعضائها، لا يمكن التنبؤُ بها، خاصةً أننا في عصر الألفيّة الثالثة بصدد حرص أشدّ من جانب الأعضاء المستضعفين في المجتمع الدوليّ على مضمون السيادة القوميّة ركيزةً من ركائز الحفاظ على الحد الأدنى من الحياة الكريمة للشعوب.

القاهرة

ريمون ماهر كامل
باحث في مركز الدراسات السياسيّة والإستراتيجيّة بالأهرام. له عدد كبير من المقالات والدراسات.

أبعد من إيران:
محور الشرّ «صناعة» أميركيّة بنكهة العولمة

أحمد منيسي

تَشْهد العلاقاتُ الإيرانيَّة ـ الأمريكيَّة منذ أوائل شهر شباط (فبراير) الماضي تدهورًا خطيرًا، لم يكن في نظر الكثيرين متوقَّعًا في هذا التوقيت بالذات. فالحرب التي شنّتها الولاياتُ المتحدةُ ضدّ أفغانستان بدعوى «مكافحة الإرهاب» قد فتحت الطريقَ لاحتمال بدء مرحلة جديدة في العلاقات الثنائيّة بين البلدين، اللذين توافقتْ أهدافُهما في القضاء على حركة طالبان: الولايات المتحدة بسبب اتهامها هذه الحركةَ بالضلوع في الهجوم على نيويورك وواشنطن في ١١ سبتمبر الماضي، وبإيوائها لتنظيم القاعدة الذي وُجِّهتْ إليه تهمةُ تنفيذ هذا الهجوم منذ اللحظة الأولى لوقوعه؛ وإيران بسبب عدائها المستحكم لطالبان. وقد امتدّ هذا التوافق ليَشْمل تعاونًا عسكريّاً بين الطرفين ـ وهو ما اعترف به مؤخّرًا الرئيسُ الإيرانيُّ السابقُ هاشمي رافسنجاني الذي يَشْغل حاليّاً منصب رئيس مجلس تشخيص النظام حين قال إنه لولا مساعدة بلاده للولايات المتحدة لغرقتْ في المستنقع الأفغانيّ.

والواقع أنّ أحداث ١١ سبتمبر قد خلقتْ مزاجًا عامًا إيرانيّاً مال، وللمرة الأولى منذ قيام الثورة الإسلاميّة هناك في عام ١٩٧٩، إلى التعاطف مع الولايات المتحدة. وقد تجلّى هذا التعاطف في مؤشّرات عدة، كان أهمَّها صدورُ البيانات المندِّدة بهذا الهجوم من قبل قمة هرم السلطة في إيران، وخاصةً المرشد الروحيّ للثورة السيد علي خامنئي، فضلاً عن خروج عدة مظاهرات في الشوارع الإيرانيّة عبّرتْ عن إدانتها لهذه الأحداث وتعاطفها مع الشعب الأمريكيّ.

وعندما تمكنت الولايات المتحدة من إزاحة طالبان عن الحكم، وتم الاتفاقُ على عقد مؤتمر بون في أواخر نوفمبر الماضي لترتيب الوضع الأفغانيّ في مرحلةٍ ما بعد طالبان، فسحت الولاياتُ المتحدةُ المجالَ لإيران لكي تشارك بفعاليّة في رسم مستقبل أفغانستان، من خلال مشاركة إيرانيّة مكثفة في هذا المؤتمر الذي تم الاتفاقُ فيه على تشكيل حكومة موقّتة يترأسُها حامد قرضاي. وقد أوحى هذا المشهدُ للكثيرين بأنّ العلاقات الإيرانيّة ـ الأمريكيّة ستبدأ صفحة جديدة تنهي أو تخفِّف من حالة العداء التاريخيّة بين البلدين.

ولكنّ الأزمة الجديدة التي نشبتْ بين الدولتين وأدت إلى هذا التدهور الحادّ في علاقاتهما جاءت لتنسف كلَّ هذه التوقعات، بل ولتعود بالعلاقات إلى أكثر أوقاتها توترًا منذ عام ١٩٧٩. وقد نشبتْ هذه الأزمة عقب التصريحات المثيرة التي أدلى بها الرئيسُ الأمريكيُّ في خطابه حول «حالة الاتحاد الأمريكيّ» في نهاية يناير الماضي، وفيها وَصَفَ إيرانَ والعراقَ وكوريا الشماليّةَ بأنها «محور الشرّ» وهو ما يعني تقسيمًا أميركيّاً للعالم إلى «فسطاطين» أحدهما للخير والآخر للشرّ وفق تعبير أسامة بن لادن زعيمِ تنظيم القاعدة. وتلت ذلك تصريحاتٌ مشابهةٌ لبعض قيادات أركانِ الإدارة الأمريكيّة: فزعم وزير الدفاع دونالد رامسفلد أنه متأكد من أنّ طهران قد ساعدتْ بعضَ أعضاء تنظيم القاعدة وحلفائهم من مسؤولي حكومة طالبان على الفرار من أفغانستان إلى الأراضي الإيرانيّة؛ وأكدتْ مستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس أنّ الولايات المتحدة ستركّز جهودها خلال الفترة القادمة على منع انتشار أسلحة الدمار الشامل والتصدي للدول التي تحاول الحصولَ على تلك الأسلحة ـ وهو ما يعني أنّ إيران ستكون هدفًا للولايات المتحدة في المرحلة القادمة.

مسيرة متخبّطة: تقارُبٌ وتوتر

كانت الولاياتُ المتحدة قد أطلقتْ عقب الانتخابات البرلمانيّة الإيرانيّة الأخيرة في مطلع العام ٢٠٠٠ مبادرتَها الشهيرةَ بشأن تخفيف الحصار الاقتصاديّ الذي تفرضه على إيران. وسبق هذه المبادرةَ وتلاها العديدُ من الإشارات الواضحة والاتصالات غير المباشرة بين الطرفين، إذ اعترفتْ واشنطن للمرة الأولى بدورها في إسقاط حكومة مصدّق، واعتذر الرئيسُ الأمريكيُّ السابق بيل كلينتون عن الممارسات الأمريكيّة التي ألحقتْ ضررًا بالمصالح

أبعد من إيران:
محور الشرّ «صناعة» أمريكيّة بنكهة العولمة

القوميَّة الإيرانيَّة. وقد أشاعت المبادرةُ الأمريكيَّة الأملَ في تحسن العلاقات، لا بالاستناد إلى ما جاء في المبادرة فحسب، ولكنْ أيضًا بالأخذ في الحسبان عواملَ التغيير التي طالت بنْية العلاقات الأمريكيَّة ـ الإيرانيَّة خلال العامين الأخيرين على وجه التحديد.

وأولُ عوامل التغيير هذه: الانفتاحُ المتصاعدُ الذي بدأتْ تَشْهده السياسةُ الإيرانيَّةُ، وكان أهمُّ مؤشراته فوزُ الرئيس محمد خاتمي الكاسحُ بولاية ثانية في الانتخابات التي أُجريتْ في يونيو الماضي، بعد النصر الساحق الذي حققه التيارُ المعتدل في انتخابات مجلس الشورى الإسلاميّ، الأمر الذي بدأ في تشكيل صورة جديدة لإيران على الصعيد الدوليّ مغايرةٍ لصورة إيران النمطيَّة التي بدت عليها خلال العقد الأول لثورتها وحتى رحيل الإمام الخميني في عام ١٩٨٩. وقد شجَّعتْ هذه الصورةُ الجديدةُ الولاياتِ المتحدةَ على انتهاج توجه جديد ناحية إيران.

أما ثاني هذه العوامل فقد تمثَّل في تصاعد ضغط اللوبي الأمريكيّ الساعي إلى إقامة علاقات طبيعيَّة مع إيران، وهو اللوبي الذي يتكون أساسًا من الشركات الأمريكيَّة العملاقة العاملة في مجال النفط.

ثالث هذه العوامل تمثَّل في وصول الجمهوريين إلى البيت الأبيض، وإعادةِ طرح بوش الابن لعقيدة الرئيس الجمهوريّ الأسبق ريتشارد نيكسون، التي تدعو إلى ضرورة الاعتماد على دول إقليميَّة قويَّة لتنفيذ السياسة الكونيَّة الأمريكيَّة. وفي إطار التوجهات الجديدة لإدارة بوش بشأن إعادة النظر في عمليّات الانتشار العسكريّ الأمريكيّ حول العالم، بدا التقاربُ مع إيران وكأنه ضرورة حتميَّة للحفاظ على المصالح الأمريكيَّة في الخليج وقلب آسيا الوسطى، خاصةً منطقة بحر قزوين الغنيَّة بالنفط. وقد رأت الولايات المتحدة أنَّ من شأن هذا التقارب أن يحدّ من تأثير تصاعد التعاون الروسيّ ـ الإيرانيّ الذي امتدّ ليشمل في مرحلة لاحقة كلاً من الصين والهند، على النحو الذي بدا معه أنَّ هذا التحالف قد يتطور في مرحلة تالية ليشكِّل تهديدًا للمصالح الأمريكيَّة في آسيا.

أمَّا رابع هذه العوامل فقد تَمثَّل في المرونة التي أبداها الموقفُ الإيرانيُّ تجاه عمليَّة التسوية السلميَّة في الشرق الأوسط بشكل عامّ، والعلاقة مع إسرائيل بشكل خاصّ إثر الانسحاب الإسرائيليّ من جنوب لبنان في أيار (مايو) ٢٠٠٠، والذي أدّى إلى إضعاف المؤثِّرات الإسرائيليَّة على القرار الأمريكيّ بشأن العلاقة مع إيران. إذ تقلصتْ عملياتُ حزب الله ضد إسرائيل وانخفضتْ تبعًا لذلك حدةُ الاحتكاكات المباشرة بين إسرائيل وإيران، والاحتكاكات غير المباشرة بين إيران والولايات المتحدة.

بيد أنَّ هذا المشهد الإيجابيّ للعلاقات الأمريكيَّة ـ الإيرانيَّة أخذ يستعيد ذاكرة التوتر بعد قرار مجلس النواب الأمريكيّ في منتصف شهر يوليو الماضي تمديدَ قانون العقوبات ضد إيران الذي كان قد أُقِرَّ في العام ١٩٩٦ لمدة خمس سنوات، بعد أن كان من المفترض أن ينتهيَ سريانُه بعد شهر واحد فقط، أيْ في أغسطس ٢٠٠١. وهذا ما أدّى إلى تدهور في العلاقة بين البلدين، على الرغم من أنَّ قرار التمديد ـ الذي نصّ على معاقبة الشركات الأمريكيَّة التي تَسْتثمر في قطاع البترول والغاز الطبيعيّ الإيرانيّ بأكثر من٤٠ مليون دولار ـ تضمَّنَ آليَّةً جديدةً تمكِّن من إلغاء العقوبات بعد ١٨ شهرًا. ومع الردة التي أصابت علاقات البلدين بدأت الولاياتُ المتحدةُ في إعادة تجديد اتهاماتها التقليديَّة لإيران بدعم الإرهاب والسعي إلى حيازة أسلحة الدمار الشامل وتطويرها. ووجدتْ واشنطن ما يؤكّد اتهاماتِها هذه المرةَ في تصاعد التعاون العسكريّ بين روسيا وإيران، وقيام حزب الله مع اشتعال الانتفاضة الفلسطينيَّة الثانية في سبتمبر ٢٠٠٠ بتنفيذ عدة عمليات في مزارع شبعا اللبنانيَّة المحتلة. وقد أصابت هذه الردةُ الاتجاهاتِ الإيرانيَّةَ الداعية إلى إقامة علاقات طبيعيَّة مع الولايات المتحدة بخيبة أمل كبيرة، بعد أن علَّقتْ هذه الاتجاهاتُ



كان أهم مؤشّرات عوامل التغيير في العلاقات الإيرانيّة ـ الاميركيّة قبل خطاب بوش فوز خاتمي بولاية ثانية

آمالَها على وصول بوش الابن إلى السلطة، وانتظرتْ أن يَحْسم الكثيرَ من قضايا السياسة الخارجيّة الأمريكيّة التي لم تستطع إدارةُ كلينتون السابقة حسمَها، ومنها قضيّةُ العلاقة مع إيران.

مناخ الأزمة الجديدة

في تقديري أنه لا يمكن فهمُ الأزمة الأخيرة التي نشبتْ بشكل مفاجئ بين طهران وواشنطن دون النظر إلى عاملين أساسيَّيْن هما: السياقُ العامُّ لطبيعة العلاقات بين الطرفين، وطبيعةُ الدور الإسرائيليّ في تفجير هذه الأزمة نفسها. فعلى الرغم من أنّ الحرب الأمريكيّة ضد أفغانستان كانت فرصةً لتطبيع علاقات واشنطن وطهران، فإنّ التنسيق بين البلدين كان لا بدّ أن يكون مرحليّاً بسبب الفجوة العميقة في رؤية كل منهما وتوجهاتهما المتضادة بشأن معظم القضايا الإقليميّة والدوليّة إنْ لم يكن كلّها. أيْ أنّ هذا التعاون فرضته ظروفٌ موقّتة تمثلتْ في اتفاق البلدَيْن على الإطاحة بطالبان. فمن ناحية لم يكن لإيران أن تَعْزل نفسَها عمّا يدور على الأراضي الأفغانيّة أو عن المشاركة في صياغة مستقبل أفغانستان بعد طالبان. ومن ناحية أخرى كانت واشنطن تدرك أنْ لا مجال لعزل إيران في هذه القضيّة بسبب النفوذ الإيرانيّ الواسع في أفغانستان؛ كما أنّ من شأن التعاون مع طهران أن يعطي مصداقيّةً لحملة واشنطن على ما تسميه «الإرهاب» بسبب توجهات النظام السياسيّ الإيرانيّ وبنيته.

والواقع أنّ الموقف الإيرانيّ تجاه الحرب الأمريكيّة على أفغانستان كان بالغ الدقة. فعلى الرُّغم من أنّ إيران ـ الرسميّة والشعبيّة ـ سارعتْ إلى إدانة هجوم ١١ سبتمبر على الولايات المتحدة، فإنّ موقفها إزاء الحرب على أفغانستان كان محكومًا بعدة عوامل متناقضة: فهي كانت مع هدف الإطاحة بطالبان، ولكنّ ذلك لم يكن يعني بحال أنّها على استعداد للتضحية بأفغانستان التي تعني لها الكثيرَ سياسيّاً وثقافيّاً وأمنيّاً واقتصاديّاً. ومن ناحية أخرى وجدتْ إيران نفسَها مضطرةً إلى التنسيق مع الولايات المتحدة، عدوِّها اللدودِ الذي يقود هذه الحرب، لأنّ إيران تَعْلم تمامًا أن مدى حريتها في الحركة على الصعيد العالميّ مرتبط إلى حد كبير بمدى الرضى الأمريكيّ. وعلى صعيد آخر فإنّ تأييد حكومة الرئيس محمد خاتمي والتيّار المعتدل لهذه الحرب، لو حدث، كان بوسعه أن يفضيَ إلى تفجير الساحة الإيرانيّة وربما القضاء على مشروع الإصلاح برمته.

في ضوء هذه العوامل المتناقضة كان الموقف الإيرانيّ من هذه الحرب، والذي توافق جزئيّاً مع الموقف الأمريكيّ، مدركًا محدوديّةَ الفرصة التي وفّرتْها هذه الحربُ لتطوير العلاقات مع أميركا مَخْرجًا لتفادي دخول العلاقات دائرةَ التوتر لاحقًا. ومن المؤكد أنّ أحداث ١١ سبتمبر قد أضافت المزيدَ من التوتر على الخلافات القائمة بين البلدين؛ فالموقف الإيرانيّ المعقّد لم يُشْبع الغرورَ الأمريكيَّ الذي كان يريد انصياعًا إيرانيّاً كاملاً لرغبات واشنطن. وهكذا قامت الولايات المتحدة لاحقًا بإدراج حزب الله وحركات المقاومة الفلسطينيّة في قائمة الحركات الإرهابيّة التي قد يتمّ استهدافُها مباشرةً في وقت لاحق. وركّزت الدعايةُ الأمريكيّةُ بسبب هول هذه الأحداث على كافة الأصوليّات الإسلاميّة كمصدر قائم للخطر، لا فرق في ذلك بين نموذج معتدل و آخر متشدد. وأسْهم في تصعيد الخلافات بين البلدين قلقُ الولايات المتحدة من النشاط الإيرانيّ داخل أفغانستان في مرحلةِ ما بعد طالبان، ومخاوفُ إيران من النوايا الأمريكيّة في منطقة آسيا الوسطى ومن أن تكون الحربُ الأمريكيّةُ ضد أفغانستان بدايةً للسيطرة على المنطقة ومن ثم محاصرة إيران من الناحية الشرقيّة والشماليّة. وفي تقديري أنه لم يكن مستغربًا، في سياق هذا المشهد للعلاقات الإيرانيّة الأمريكيّة، ما جاء في خطاب بوش إزاء إيران ووصفُهُ إياها بأنها إحدى دول محور الشر.

أما في ما يتعلق بالدور الإسرائيليّ في الأزمة، فإنّ هناك توافقًا أمريكيّاً ـ إسرائيليّاً على أهميّة توجيه ضربة إلى إيران تحقّق

أبعد من إيران:
محور الشرّ «صناعة» أميركيّة بنكهة العولمة

حـزمـةً من الأهداف المشـتـركـة للجـانبين، ومنهـا: الوقف الكامل لبرامج التسلح الإيرانيّة التي طُورت العديدَ من الأسلحة المتقدمة بفـعل الدعم الروسيّ وتحت ضـغط التـيـار الإيرانيّ المتـشـدِّد؛ وإضعافُ الدعم الإيرانيّ للقضيّة الفلسطينيّة ودعمِها لحزب الله لإتاحة المجال لتسوية هذه القضيّة وفقًا لما تراه واشنطن وتل أبيب. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ إيران تُعتبر عمقًا استراتيجيًا لسوريا، واضعافُهـا يُطْلق يدَ إسرائيل في الجولان. ويستند هذا التوافق الأمريكيّ ـ الإسرائيليّ ضد إيران، بالإضافة إلى أسسه التقليديّة، إلى ما أفرزتْه أحداثُ ١١ سبتمبر من رؤية أمريكيّة جديدة لمكافحة ما تسميه واشنطن الإرهابَ. وإحدى ركائز هذه الرؤية هي التوجُّهُ الأمريكيُّ إلى تشكيل محور هنديّ ـ تركيّ ـ إسرائيليّ لضربِ ما تعتبره واشنطن حركاتٍ متطرفةً في الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا، وإفادة إسرائيل بضرب حركات المقاومة في فلسطين. وقد نشط اللوبي اليـهـوديّ في الولايات المتـحـدة لعـرقلة أيّ تطوير للعلاقات الإيرانيّة ـ الأمريكيّة على خلفيّة توافق البلديْن الجزئيّ في الحرب ضد أفغانستان. ومن المؤكد أن إسرائيل قد لعبتْ دورًا كبيرًا في إشعال الأزمة الأخيرة بين البلدين.

حدود التصعيد

في ضوء هذا التصعيد المستمرّ الذي تَشْهده الأزمةُ الإيرانيّة ـ الأمريكيّة، فإنّ التساؤل الملحّ هنا يدور حول ما إذا كانت الولايات المتحدة سوف تُقْدِم على ضرب إيران في إطارِ ما تسميه المرحلة الثانية للحرب ضد الإرهاب أم لا ؟ للإجابة عن هذا التساؤل نقول إنّ هناك عدة عوامل تدفع إلى إنزال هذه الضربة بإيران. ذلك أنّ الرئيس بوش في حاجة إلى خلق عدوّ جديد بعد أفغانستان، ومن هذه الزاوية تبدو إيران الأكثرَ جاذبيةً من بين دول محور الشر لتـحـقيق هذا الهدف الذي يَخْدم الخطةَ الأمريكيّةَ الرامـيـةَ إلى ترويض الدول الخارجة على النظام العالميّ الجديد الذي تريد الولاياتُ المتحدةُ تكريسَه منذ نهاية عصر الحرب الباردة.

بيد أنّ البعض يرى أنّ الحملة الأمريكيّة الحاليّة ضد إيران تندرج في إطار دعائيّ أساسًا، وأنها لا تعبِّر عن استراتيجيّة أمريكيّة حاليّة تجاه إيران ـ أيْ أنّها حملةٌ لمجرد الاستهلاك المحليّ. والواقع أنّ هناك العديد من الاعتبارات التي تؤكّد الرؤيةَ الأخيرة، إذ إنّ استهداف إيران لا يبدو أولويّةً أمريكيّةً في الوقت الراهن. كما أنّ تكلفة استهدافها لن تكون سهلةً على صُعُد متعددة. فلدى إيران قدرةٌ على إلحاق الضرر بالمصالح الأمريكيّة في المنطقة، وخاصةً في الخليج العربيّ. ثم إنّ إقدام الولايات المتحدة على ضرب إيران سيُفْقد واشنطن المصداقيّة في الحرب التي أعلنتها ضد الإرهاب، على الأقل لأنّ هذا التصعيد الأمريكيّ يأتي في وقت تشيد فيه الأممُ المتحدةُ بالجهود الإيرانيّة لمكافحة الإرهاب. وبعبارة أخرى فإنّ الولايات المتحدة تَهْدف من وراء حملتها على إيران إلى ابتزازها وتحجيم نفوذها في المنطقة، لا إلى مواجهتها في الوقت الراهن. فالولايات المتحدة تشنّ هذه الحرب الكلاميّة ضد إيران من أجل إعادة فرض طوق العزلة عليها، بعد أن تمكنت السياسةُ الخارجيّةُ الإيرانيّةُ في ظلّ تنامي التيار المعتدل من الانفتاح على العالم. كما أنّ واشنطن تسعى إلى تغطية فشلها في القبض على قادة تنظيم القاعدة وحركة طالبان، الأمر الذي يوحي بأنّ هذه الحرب الكلاميّة قد تهدأ قريبًا.

لكنّ ذلك لا يعني أنّ في وسع البلدين تطويرَ علاقاتهما أبعدَ ممّا هو قائم حاليّاً. كما أنّ إيران تظلّ هدفًا مؤجّلاً للولايات المتحدة. ويَدْعم هذا القولَ تلك التناقضاتُ العميقةُ بين الطرفين، وكلُّها تشير إلى أنّ إمكانيات التلاقي الإستراتيجيّ بين البلدين وهمٌ حقيقيٌّ. كما أنّ السهام الأمريكيّة سوف تصوَّب إلى مجموعة الدول ذات النظم السياسيّة المبنيّة على أسس أيديولوجيّة، وإيران إحدى هذه الدول.



إيران تُعتبر عمقًا استراتيجيًا لسوريا، وإضعافُها يُطلق يدَ إسرائيل في الجولان

أيّ مستقبل؟

والسؤال المطروح الآن هو: هل يمكن تصوُّر سيناريو آخر لتطور العلاقات الإيرانيّة ـ الأمريكيّة في المدى البعيد مخالفٍ لمنطق الصدام الحتمي؟ المؤكّد أنّ الأزمة الأخيرة التي اندلعتْ بين الطرفين سوف تُحْبط الجهودَ الحثيثة التي بذلها الرئيس محمد خاتمي إبّان ولايته الأولى لإذابة الجليد المتراكم بين البلدين، ولاسيّما أنّ التيار المتشدد الذي يتقاسم الساحةَ السياسيّةَ مع المعتدلين في إيران يَرْفض من الأصل مبدأ فتح ملفّ العلاقات مع أمريكا إذا لم يحدث تغيرٌ جوهريٌّ في الرؤية الأمريكيّة تجاه إيران، وسيتخذ هذا التيار من هذه الأزمة حجةً قويّةً لتدعيم موقفه، على الرغم من أنّه سبق أن غضَّ الطرفَ عن التعاون الإيرانيّ ـ الأمريكيّ الجزئيّ في الحرب ضد أفغانستان انطلاقًا من مصالح قوميّة. على هذا النحو يبدو مستقبلُ العلاقات الأمريكيّة ـ الإيرانيّة في المدى القريب مرشّحًا للدخول إلى حالة الجمود، إنْ لم تُضَفْ إليه عواملُ توترٍ جديدة. وفي هذا الإطار نشير إلى أنّ المزيد من الزيت سيُصبّ على النار المشتعلة بين البلدين بسبب التقرير السريّ الذي أعده البنتاغون وتمّ الكشفُ عنه أوائلَ مارس الماضي ٢٠٠٢، وجاء فيه أنّ إيران هي إحدى الدول المهدِّدة بتوجيه الأسلحة النوويّة الأمريكيّة ضدها. ومن غير المتوقع أن تُقْدم إيران على اتّخاذ إجراءٍ ما من شأنه دفعُ العلاقات إلى وضع أفضل بعد أن كان التيارُ المعتدلُ مستعداً للإقدام على خطوة من هذا النوع. ويضع ذلك الكرةَ مجدّدًا في الملعب الأمريكيّ. وهكذا ارتدّت الولاياتُ المتحدة بعلاقاتها بإيران إلى نقطة التوتر مرةً أخرى، وعلى واشنطن الآن إذا أرادت دفعَ العلاقات إلى وضع أفضل أن تُقدّم مبادرةً سياسيّةً جديدةً كتلك التي أطلقتْها عقب الانتخابات البرلمانيّة الأخيرة في إيران.

والواقع أنّ قضيّة رفع الحصار الذي تفرضه الولاياتُ المتحدةُ على إيران ليست مربط الفرس في تأسيس علاقات جديدة قويّة بين الطرفين. فالمبادرة الأمريكيّة المطلوبة لتحقيق مثل هذا النوع من العلاقات لا بدّ أن تنطلق من مبدإ احترام دور إيران كقوة إقليميّة لها أولويّاتُها المشروعةُ في المنطقة، وتصرّ إيران على أن تقوم علاقاتُها مع الولايات المتحدة على مبدإ التكافؤ. وعلى هذه المبادرة أن تلبي المطالبَ الإيرانيّةَ الأساسيّةَ تجاه الولايات المتحدة، ومنها: تحريرُ الأموال الإيرانيّة المجمَّدة في البنوك الأمريكيّة منذ سقوط الشاه؛ وشطبُ إيران من قائمة الدول التي تتهمها الولاياتُ المتحدةُ بالإرهاب؛ وتعهُّدُ واشنطن بعدم التدخل في شؤون إيران الداخليّة؛ إضافةً بالطبع إلى إلغاء الحصار.

والحقّ أنّ هناك ضغوطًا على الولايات المتحدة لتقديم مبادرة كهذه من قبل إدارة بوش شخصيّاً التي عارضتْ تمديدَ قانون العقوبات، وضغوطاً مماثلةً من لوبي الشركات الأمريكيّة العاملة في مجال النفط بإيران. ولكنّ هناك في المقابل رؤيةً أمريكيّةً أخرى متشددة ترْفض تقديمَ أيّة تنازلات من هذا النوع لإيران انطلاقًا من أنّ إيران تدعم الإرهاب وتعارض التسوية في الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أنّ الأسباب التي بُنيتْ عليها هذه الرؤيةُ المتشدِّدةُ قد أصبحتْ جزءًا من الماضي، فإنّ أصحابها مازالوا يتمسكون بها، مبرِّرين ذلك بأنّ اتّساع مساحة الاعتدال في الساحة السياسيّة الإيرانيّة لا يعني حدوثَ تحوّلٍ في بنية النظام السياسيّ الإيرانيّ نفسه وأطره الأيديولوجيّة.

وعليه، ففي ظل ثبات أسس السياسة الخارجيّة الإيرانيّة، وعدمِ ميل إيران إلى تقديم تنازلات من النوع الذي يطالبها به المتشددون، بما فيها تغييرُ جوهر النظام الإسلاميّ نفسه، فإنّ تطوير العلاقات الثنائية بين البلدين يظلّ مشكلة حقيقيّة. المعضلة إذن، تكمن، في أنّ الدولتين تحتاجان إلى خلق صيغة لعلاقاتهما المشتركة في المدى القريب تجنِّبُ الطرفين منطقَ المواجهة الحتميّة في المستقبل البعيد.

أحمد منيسي

منسّق برنامج الدراسات الخليجيّة في مركز الدراسات السياسيّة والإستراتيجيّة بالأهرام.

السياسة الأميركيّة
حول محور الشرّ في ضوء القانون الدوليّ

▢ باسيل يوسف

عن الجذور الفلسفيّة والدينيّة لتعبير «الشرّ» وانعكاساته السياسية والقانونيّة الدوليّة

كانت مسألةُ الشرّ كنقيض للخير محلَّ اهتمام كبير من الأديان والعقائد الفكريّة والاتجاهات الفلسفيّة منذ القِدَم. ونظرًا لاهتمام هذه الورقة بالمنظور الأمريكيّ بعد خطاب الرئيس بوش الابن الذين صنَّف ثلاثَ دول ضمن «محور الشرّ»، فإنّه تجدر الإشارةُ إلى تأثُّر الغرب بآراء اللاهوت الكنسيّ، وخاصةً أطروحات القديس أوغسطين في القرن الرابع وتوما الأكويني وما تلاه في القرنيْن الثامن عشر والتاسع عشر من آراء فلسفيَّة . وضمْن هذه البيئة الفلسفيَّة طُرحتْ فكرةُ «الحرب العادلة» Just War لكونها آليّةً للردّ على الشر، بالرغم من أنّ هذه الفكرة تخلَّى عنها المجتمعُ الدوليُّ بصورة متدرجة: إذ حُدِّدتْ أوجهُ استخدام القوة في العلاقات الدوليّة بموجب اتفاقيّة لاهاي عام ١٩٠٧، وبعدها ميثاقُ عصبة الأمم، ثم جاء ميثاق الأمم المتحدة ليحرمَ استخدامَ القوة كما سيَرِدُ تفصيلاً في هذه المساهمة.

وجاء القرنُ العشرون ليَشْهد حربيْن عالميَّتيْن وُصفَت المآسي الناجمةُ عنهما بأنّها تعبير عن ممارسة الشرّ. وأُدرج بين أفعال الشرّ ما أُطْلق عليه في الغرب «المحرقةُ» ضد اليهود (أو الهولوكوست) إبّان النازية. وراحت الدراسات المتعلقة بالصناعة الإعلاميّة للهولوكوست تركّز على أنّ حلّ هتلر لمشكلة اليهود كان شرّاً للشرّ.[1]

وما يجدر التركيز عليه عند الحديث عن أثر مفهوم الشرّ في العلاقات الدوليّة هو موضوع نظرة الفرد والمجتمع إلى الآخر، وما تكتنفها من مفاهيم قد تصل إلى توصيف الآخر بأنه الجانب الملعون لاعتبارات عنصريّة أو دينيّة.[2] وهذا المفهوم انتقل إلى علاقات الدول بعضها ببعض، فأخذتْ بعضُ الدول تَنْظر إلى دول أخرى على أنّها دولٌ شريرةٌ أو مارقةٌ أو ملعونةٌ. وجميعُ هذه المفاهيم المتصلة بالشرّ في علاقات الدول تتمركز على قيم ميتافيزيكيّة ذاتيّة تجاوَزَها العصرُ، بعيدةٍ عن المعايير الموضوعيّة التي تعارف عليها القرنُ العشرون بعد تجربة حربيْن عالميتيْن.

وفي ضوء هذه الخلفيّة يُمْكن تسليطُ الأضواء القانونيّة الدوليّة على سياسة محور الشر الأمريكيّة. فإذا هي مبنيّة على منطلقات تعيد المجتمعَ الدوليَّ إلى الخلف لترسّخَ النظرةَ الذاتيّةَ على حساب الموضوعيّة، وتنظرُ إلى الشعوب والدول نظرةً عنصريّةً، وتستبعدُ كافة أسس القانون الدوليّ للتعامل بين الدول والشعوب ــ وهي الأسس التي تمثلتْ في ميثاق الأمم المتحدة والصكوك الدولية وخاصةً تلك المتعلقة بحقوق الإنسان وحقوقِ الشعوب.

قواعد القانون الدوليّ لعلاقات الدول والشعوب في القرن العشرين

أفرزتْ حضارةُ القرن العشرين مجموعةً من مبادئ القانون الدوليّ أصبحت تشكّل قواعد آمرةً Imperative Norms في العلاقات الدوليّة. وقد ترسختْ هذه المبادئ في ميثاق الأمم المتحدة وفي الصكوك الدوليّة الصادرة عن المنظمة الدوليّة، وأهمُّها:

١ ـ المساواةُ في السيادة بين جميع الدول (الفقرة الأولى من المادة الثانية من الميثاق) .

٢ ـ لكلّ الشعوب الحقُّ في تقرير مصيرها بحريّة ومن دون تدخُّلٍ خارجيّ (الفقرة الثانية من المادة الأولى من الميثاق).

٣ ـ فضُّ المنازعات بين الدول بالوسائل السلميّة، وعدمُ تعريض السِّلْم والأمن الدوليّيْن للخطر (الفقرة الثالثة من المادة الثانية).

١ ـ نورمان فنكلستين، **صناعة الهولوكوست ـ تأملات في استغلال المعاناة اليهوديّة**، ترجمة الدكتور سماح إدريس بمشاركة أيمن حنا حداد (بيروت: دار الآداب ٢٠٠١)، ص ٦٠.

٢ ـ حول صورة الآخر يُراجع كتاب **صورة الآخر العربيّ ناظرًا ومنظورًا إليه**، تحرير الطاهر لبيب (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩).


كونداليز رايس: إنّ العالم سيصير أفضل إذا لم يعد صدّام حسين في السلطة!

٤ ـ الامتناعُ عن التهديد باستعمال القوّة، أو استخدامِها ضدّ سلامة الأراضي أو الاستقلال السياسيّ لأيّة دولة، وعدمُ التدخُّل في شؤونها الداخليّة (الفقرة الرابعة من المادة الثانية من الميثاق).

٥ ـ تعزيزُ واحترامُ حقوق الإنسان والحريّات الأساسيّة للناس جميعًا، بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين، ولا تفريق بين النساء والرجال (الفقرة الثالثة من المادة الأولى من الميثاق).

٦ ـ جعلُ هيئة الأمم المتحدة مرجعًا لعلاقات الدول (الفقرة الرابعة من المادة الأولى من الميثاق).

وتشكّل هذه القواعدُ كلاً مترابطًا في العلاقات الدوليّة لا يبيح لأيّ دولة التصرُّفَ الانفراديَّ خارجها. وتشكّل الإطارَ المرجعيَّ الموضوعيَّ لتوصيف تصرُّفات أيّة دولة، وضمن الآليّات الواردة في ميثاق الأمم المتحدة ـ سواء الآليّات القضائيّة المتمثّلة بمحكمة العدل الدوليّة، أو الآليّات السياسيّة في مجلس الأمن، أو الجمعيّة العامّة أو المجلس الاقتصاديّ والاجتماعيّ واللجان المتفرعة عنه.

وهكذا فإنّ النظام القانونيّ الدوليّ المستقرّ في القرن العشرين استَبْعَدَ التقويم والتوصيفَ الذاتيَّيْن اللذَيْن لا يستندان إلى مرجعيّة موضوعيّة. ومن ثمّ فإنّ وصف الشر أو نقيضه يتعيّن أن يستند إلى الإطار الموضوعيّ المستقرّ في القانون الدوليّ، لا إلى تقدير ذاتيّ لدولة أو مجموعةِ دولٍ بناءً على منظورها النفعيّ والأنانيّ. وإذا كانت لأيّ دولة وجهةُ نظرٍ حول تصرُّف دولة أخرى فإنّه يتعيَّن أن تَطْرحه عبر آليّات الأمم المتحدة لاتخاذ الإجراءات وفقًا لميثاق الأمم المتحدة. وبخلاف ذلك فإنّ تقويم تصرُّفات أيّ دولة برأي انفراديّ خارجَ مرجعيّة الأمم المتحدة وآليّاتها يشكّل خروجًا عن أحكام الفقرة ٤ من المادة الأولى من ميثاق الأمم المتحدة، ويقود إلى سلسلة من الانتهاكات الخطيرة للقانون الدوليّ تبدأ بالتدخل في الشؤون الداخليّة للدول وتصل إلى العدوان المسلّح بالإضافة إلى ممارسات للتمييز العنصريّ.

يجدر التذكير هنا بأنّ النظام القانونيّ الدوليّ الراهن يحظّر الحربَ وسيلةً في العلاقات الدوليّة، ويَمْنع استخدامَ القوة. وهذا ما نصّت عليه الفقرةُ الرابعةُ من المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة، إلا إذا كانت هذه القوّة ممارسةً لحق الدفاع الشرعيّ بموجب المادة ٥١ من الميثاق وضمن إطار الآليّات الواردة في هذه المادة المتّصلة بسلطة مجلس الأمن في اتخاذ التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدوليَّيْن. ومن ثمّ فإنّ مفهوم «الحرب العادلة» بعيد وغريب عن فلسفة ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدوليّ.[1] ويندرج التدخُّل في الشؤون الداخليّة للدول ضمن استخدام القوّة في العلاقات الدوليّة، وهذا ما ورد في الصكوك الدوليّة التي عالجتْ حظر التدخُّل في الشؤون الداخليّة للدول.

سياسة محور الشر الأمريكية وقواعد القانون الدوليّ

تتمثّل الأهدافُ المعلنة من سياسة محور الشرّ الأمريكيّة في التدخُّل في الخيارات الوطنيّة للشعوب في تقرير مصيرها ونظامها، وفرضِ أنظمة تابعة للولايات المتحدة، واستخدام القوّة ضدّ الدول التي أُدرجتْ ضمن محور الشرّ وهي العراق وإيران وكوريا الشماليّة.

نال العراقُ اهتمامًا وثقلاً كبيرَيْن في سياسة محور الشرّ الأمريكيّة. فقد استصدرتْ هذه السياسةُ حوله قانونًا خاصّاً، ورَصَدَتْ له مبلغ ٩٧ مليون دولار تحت اسم «قانون تحرير العراق.» وكلّ ذلك يوحي، وربما يؤكّد، أنّ الهدف المركزيّ من سياسة محور الشرّ الأمريكيّة هو العراق، وأنّ إيراد باقي الدول ليس إلاّ تغطيةً للهدف الحقيقيّ ألا وهو العراق. كما نشرتْ مجلة **Foreign Affairs** الأمريكيّة في عددها الصادر في آذار ٢٠٠٢ مقالاً حول العراق ورد فيه قولُ مستشارة الأمن القوميّ الأمريكيّ كونداليزا رايس إنّ العالم سيكون أفضلَ إذا لم يعد صدّام حسين في السلطة.[2]

١ ـ Jean Pierre Cot et Allain Pellet, **La charte des Nations Unies** (Paris: Economica, 1985), p. 124.
٢ ـ www.foreignaffairs. org

السياسة الأميركيّة حول محور الشر في ضوء القانون الدولي

ولا يختلف اثنان من المعنيِّين بالقانون الدوليّ على أنَّ السياسة الأميركيَّة قد سبقتْ أن انتهكت القانون الدوليّ بقرارها التدخُّلَ في الشؤون الداخليَّة للدول. ونشير من قبيل التوثيق إلى قرار محكمة العدل الدوليَّة حول تدخّل الولايات المتحدة في نيكاراغوا، إذ أصدرت المحكمةُ قرارَها المؤرَّخ في ١٩٨٦/٦/٢٧ القاضيَ بإدانة الولايات المتحدة بسبب تدريبِ وتسليح و تمويلِ قوات الكونترا وتشجيع ومساعدةِ النشاطات العسكريّةَ وشبهِ العسكريّة الموجَّهة ضد نيكاراغوا. وقد تضمّن هذا القرار تعليلاً قانونيّاً معمَّقًا لطبيعة التزام الدول عدمَ التدخل في شؤون الدول الأخرى. ومن أهمّ ما ورد فيه ما جاء في الفقرة ٢٦٨، ومفادُه أنّ استخدام القوّة ليس الأسلوبَ المناسبَ للتحقّق من ضمان احترام حقوق الإنسان. وخلصت المحكمةُ إلى أنَّ الدافع المبنيّ على حماية حقوق الإنسان في نيكاراغوا لا يمكن أن يبرِّر قانونًا.(١)

كما أنَّ سياسة محور الشرّ الأمريكيَّة تنطوي على تهديد الدول بشنّ عدوان عليها. وهو ما يشكّل خرقًا خطيرًا لميثاق الأمم المتحدة، وخاصةً الفقرة الرابعة من المادة الثانية منه. ويشكّل العدوان جريمةً ضد الإنسانيَّة بموجب قواعد القانون الدوليّ العرفيّ. وقد وردتْ جريمةُ العدوان ضمن الجرائم المعاقَب عليها في النظام الأساسيّ للمحكمة الجنائية الدوليَّة المعتمد في شهر تموز ١٩٩٨ في روما. وتَعْمل الولاياتُ المتحدة على استبعاد هذه الجريمة من النظام الأساسيّ للمحكمة بداعي الخلاف حول تعريف العدوان الذي كانت قد اعتمدته الجمعيّةُ العامةُ للأمم المتحدة عام ١٩٧٤، إذ تحاول الولاياتُ المتحدة قصرَ تعريف العدوان على احتلال الأرض دون الأشكال الأخرى للعدوان بالأسلحة الموجَّهة والطائرات وغيرِها من الوسائل.

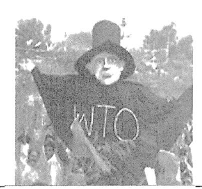
مسألة أسلحة الدمار الشامل وسياسة محور الشر الأمريكية

وضمن مبرِّرات سياسة محور الشرّ الأمريكية طُرحتْ مسألة أسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها بعضُ الدول. ونشرتْ مراكزُ البحوث الأمريكية دراساتٍ حول هذا الموضوع لتبرير تلك السياسة. فقد أصدر مركز الدراسات الاستراتيجيَّة والدوليَّة في واشنطن بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ٢٠٠٢ تقريرًا تناول موضوع أسلحة الدمار الشامل في الدول الثلاثة.(٢)

ولكنْ لو كانت سياسةُ محور الشرّ الأمريكيَّة بصدد امتلاك الدول لأسلحة الدمار الشامل ملتزمةً قواعد القانون الدوليّ وآليّاتِ الأمم المتحدة، لكان يمكن أن تكون موضعَ نظر. إذ إنَّ سياسة القضاء على أسلحة الدمار الشامل يجب أن تكون ملتزمةً قاعدةَ المساواة بين الدول، وعدم الانتقائيَّة وازدواجيَّةِ المعايير. والمثال الحيّ على ذلك هو امتلاك إسرائيل أكبرَ ترسانة من مختلف أسلحة الدمار الشامل، ومع ذلك تَسْكت الولاياتُ المتحدة عن إسرائيل، بل تدعمها وتشجِّعها. ونشير في هذا الصدد إلى إصرار الولايات المتحدة على الانتقائيَّة في موضوع القضاء على أسلحة الدمار الشامل بحسب الفقرة ١٤ من قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ / ١٩٩١ التي تنصّ على أنَّ القضاء على أسلحة الدمار الشامل في العراق هو ضمن القضاء على أسلحة الدمار الشامل في منطقة الشرق الأوسط **بأكملها**. وها قد مضى على اعتماد قرار مجلس الأمن إحدى عشرة سنة ولم تُتَّخذْ أيَّةُ تدابير للقضاء على أسلحة الدمار الشامل في دول الشرق الأوسط إلاّ في العراق، بينما تشير كافةُ التقارير إلى امتلاك إسرائيل أسلحةً نوويَّةً وكيماويَّةً وبيولوجيَّةً وغيرَها من الأسلحة. وفي هذا الوقت شكّلت الأممُ المتحدة اللجنةَ الخاصّةَ التي تجسَّس أعضاؤها لحساب الولايات المتحدة

١ـ **Resumé des arrets, avis consultatifs et ordonnance de la cour international de justice 1948- 1991** (New York: Nations Unies 1992), p. 202.

٢ـ www.csis.org



اليس البنك الدوليّ أو منظّمة التجارة العالميّة أو صندوق النقد عناصر «محور الشرّ»؟

وإسرائيل، باعتراف رئيسها، ثم انسحبتْ في كانون الأول ١٩٩٨ قبل العدوان الأميركيّ ـ البريطانيّ على العراق. كما أنهت اللجنةُ الخاصّة أعمالَ القضاء على أسلحة الدمار الشامل في العراق، ولكنّها تمسكتْ بالبقاء لمجرّد التقصّي عن معلومات لخدمة أغراضها التجسّسيّة بهدف تسويغ العدوان على العراق.

ثم شكّل مجلسُ الأمن لجنةً جديدةً بموجب قرار مجلس الأمن ١٢٨٤، أُطلق عليها اسمُ «لجنة التحقق والرصد» ويرأسها السيد هانز بليك السويديّ. ويُجري العراقُ حوارًا مع الأمانة العامة للأمم المتحدة حول موضوع هذه اللجنة.

وهذا يعني أنّ الولايات المتحدة تتصرّف بصورة انفراديّة دون انتظار نتائج آليّات الأمم المتحدة تجاه العراق. أما بالنسبة إلى باقي الدول فإنّ طرح مسألة امتلاك الدول لأسلحة الدمار الشامل يجب أن يتمّ ضمن آليّات نزع السلاح في الأمم المتحدة، لا بتصرُّف انفراديّ.

الثقافة الأميركية في خدمة سياسة محور الشر

بعد انقضاء حوالى اسبوعين على خطاب الرئيس الأمريكيّ بوش حول محور الشر أصدر ستون مثقفًا أميركيّاً رسالةً موجّهة إلى الرأي العامّ الأميركيّ والدوليّ تصبّ في المحصّلة في خدمة السياسة الأميركيّة في الحرب ضد الإرهاب وما تبعها من طرح مفهوم محور الشرّ. وعُنونتِ الرسالةُ بـ «ما الذي نقاتل من أجله ـ رسالةٌ من أميركا» صادرة عن معهد القيم الأميركية بتاريخ ١٢ شباط ٢٠٠٢. وما يهمنا في هذه الرسالة هو تبني موقّعيها لمفهوم الحرب العادلة لتبرير الحرب الأمريكيّة على دول العالم، رغم أنّ هذا المفهوم قد عفا عليه الزمنُ ويتعارض مع القانون الدوليّ النافذ كما بيّنا سابقًا. وما ورد في هذه الرسالة يؤكّد ما جاء في الفقرة التمهيديّة من هذه الورقة حول الترابط المفاهيميّ بين المنظور الفلسفيّ إلى الشر ومفهوم الحرب العادلة.

تخلص الرسالة إلى انطباع للمثقفين الأمريكان بأنّ حادث ١١ أيلول ٢٠٠١ هو شكل من أشكال الهولوكوست ضد الأمريكان. وهذا تأكيد لصناعة الإعلام لتسويغ العدوان على الدول، إذ أصبح العالمُ أمام سلاح دمار شامل إعلاميّ، على نحو ما ورد في مقال في مجلة **Foreign Affairs** في عددها الصادر في آذار ٢٠٠٢ تحت عنوان «Weapons of Mass-Communication».

وفي المقابل نشرتْ جريدة **le monde diplomatique** الفرنسية في عددها الصادر في شهر آذار ٢٠٠٢ مقالاً كتبه السيد Ignacio Ramonet طرح فيه منظورًا موازيًا لمحور الشرّ الأميركيّ. فذكر أنّ ما يجب أن يُطلق عليه محورُ الشرّ هو صندوقُ النقد الدوليّ والبنكُ الدوليُّ ومنظمةُ التجارة العالمية. وأشار المقال إلى التصرفات الانفراديّة الأميركيّة للعدوان على العراق دون التشاور مع حلفائها. وخلص إلى ضرورة وعي الجميع للتحدي الأميركيّ ومجابهته.

خلاصة

ما يمكن استخلاصُه أنّ سياسة محور الشرّ الأميركيّة تُنْتهك أسسَ القانون الدوليّ، وأنّها بُنيتْ على مفاهيم تجاوزها الزمنُ وتعيد المجتمعَ الدوليَّ إلى الخلف. ويتحمل المثقفون العرب، وبينهم القانونيُّون، مسؤوليّةَ التعمق في المنظور الأميركيّ لمحور الشرّ في العلاقات الدوليّة لكونه صيغةً تنمّ عن ممارسة عنصريّة تنظر إلى باقي الدول والشعوب نظرةً استعلائيّةً وفوقيّةً وعدوانيّةً يجب مواجهتها بمختلف الوسائل وبينها البحوثُ والدراساتُ التي تخاطب العقلَ الغربيَّ المناهض للمنظور الأميركيّ، وحشدُ جبهة فكريّة واسعة في العالم ضد المنهج الأميركيّ المعادي للشعوب.

باسيل يوسف

رئيس قسم الدراسات القانونيّة في بيت الحكمة ـ بغداد.

الاستراتيجيَّة الأميركيَّة تجاه محور الشرّ: مثال العراق

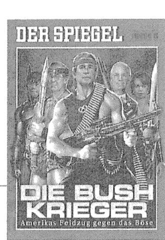
أحمد التهامي

قامت الولايات المتحدة الأمريكيَّة بتدشين المرحلة الثانية من الحرب ضد الإرهاب بإعلان الرئيس جورج بوش أنَّ الاستراتيجيَّة الأمريكيَّة تركّز على استهداف دول محور الشر الثلاث، وهي إيران والعراق وكوريا الشماليَّة. وقد جاء مفهوم «محور الشرّ» كغطاء دعائيّ وإيديولوجيّ يغلّف الأهداف الاستراتيجيَّة للولايات المتحدة فى العالم بعد انتهاء الحرب الباردة، وذلك بعد أن رفضت الإدارة الأمريكيَّة تبني نظريَّة «صراع الحضارات» كموجّه للعلاقات الدوليَّة نظرًا لما تثيره هذه النظرية من إمكانيَّة صراع شامل مع العالم الإسلاميّ، في حين أنَّ مفهوم «محور الشرّ» يشكّل إطارًا محدَّدًا يمكن أن تندرج تحته أيُّ دولة تعتبرها الولاياتُ المتحدةُ بمثابة تهديد رئيسيّ لمصالحها الإستراتيجيَّة دون أن يثير ذلك صداماتٍ شاملةً بين الحضارات كما تنبأ هنتنغتون. وقد أدرجت الولاياتُ المتحدة إيرانَ والعراقَ وكوريا الشماليَّة باعتبارها عناصرَ محور الشرّ فى الوقت الراهن، ولكنَّ المفهوم يمكن أن يتسعَ أو يضيقَ بتغيّر الظروف والأحوال وتغيُّرِ مصادر التهديد، على عكس مفهوم «صدام الحضارات» الذى يتَّسم بثبات وجمود واضحيْن.

وقد أصبح العراق بمثابة الهدف الأول والأقرب فى مثلّث محور الشر لأسباب عديدة. فهو يقع فى دائرة الحصار السياسيّ والعسكريّ بالفعل، ودولتُه مشلولةٌ ومنكشفةٌ عسكريّاً أمام التهديدات الخارجيَّة، وعلاقاتُه متوتّرةٌ ببعض دول الجوار. وقد صار التهديدُ العسكريُّ الأميركيُّ واضحًا ومعلنًا بذرائع عديدة، وهو التهديد الأكثر جديَّةً وخطورةً منذ حرب ١٩٩١، على الرغم من غياب أيّ دليل على تورّط العراق فى أحداث ١١ سبتمبر. وفي حين تقوم السياسة الأمريكيَّة نحو إيران وكوريا الشماليَّة على أساس الاحتواء السياسيّ والردع، فإنَّ الاحتواءَ العسكريّ واستخدامَ القوة المسلحة لتغيير النظام هما أبرز عناصر السياسة الأمريكيَّة تجاه العراق. وقد أشار كولين پاول إلى هذه الإستراتيجيَّة في حديثه أمام لجنة الموازنة فى مجلس النوّاب فى ٢٠٠٢/٣/٨ عندما أكد أنَّ الولايات المتحدة لا تخطِّط فى الوقت الراهن لأيّ هجوم على دول محور الشر باستثناء العراق، الذي أكّد بوش أنه لن يَسْمح له بتهديد مستقبل أمريكا. وجاءت جولةُ نائب الرئيس الأمريكيّ ديك تشيني لإحدى عشرة دولة، من بينها ٩ دول عربيَّة، ليمثّل الطورَ الأولَ فى الحرب. وهكذا، وبعد أن حققت الولاياتُ المتحدة فى لحظة انكسارها بعد أحداث ١١ سبتمبر انتصارًا فى أفغانستان، وبعد انصياع العالم كله لوعدها ووعيدها، جاء الدورُ على العراق فى ظلّ نشوة النصر الزائف.

موقع العراق فى الاستراتيجيَّة الأمريكيَّة

صدر عن البيت الأبيض فى ديسمبر ١٩٩٩ تقريرٌ عن استراتيجيَّة الأمن القوميّ الأمريكيّ للقرن الجديد، حدَّد فيه أبرز مصادر تهديد الأمن القوميّ الأمريكيّ في: التهديدات القادمة من دول وأقاليم معادية تشكّل خطرًا على الدول المجاورة لها وعلى الولايات المتحدة فى الوقت نفسه، وهى تلك الدول التى تحاول التمتُّعَ بقدرات هجوميَّة وحيازة أسلحة دمار شامل نوويَّة أو كيماويَّة أو بيولوجيَّة والوسائلِ الحاملة لها؛ ثم الإرهاب كتهديد عابر للقوميّات؛ وأعمال المخابرات المعادية. واعتبر التقريرُ أنَّ القوة العسكريَّة تلعب دورًا رئيسياً فى تنفيذ استراتيجيَّة الأمن القوميّ الأمريكيّ. ولهذه الرؤية الاستراتيجيَّة أسس ثابتة في ما يتعلق بالمنطقة العربيَّة والإسلاميَّة أو منطقة الشرق الأوسط، وهى تقوم على أساس إبقاء المنطقة فى حالة «فراغ استراتيجيّ» يجعلها أكثرَ اعتمادًا على القوى الدوليَّة الكبرى ومنطقةَ نفوذٍ لها. ويستلزم ذلك تحقيقَ هدفين أساسيَّيْن في التصور الأمريكيّ للمنطقة هما حمايةُ أمن إسرائيل وضمانُ تفوقها العسكريّ النوعيّ من ناحية، وحمايةُ منابع النفط وطرقِ مواصلاته من ناحية أخرى. وتبنت الولايات المتحدة حزمةً من السياسات لتحقيق هذه الأهداف تقوم على أساس تحقيق تسوية



من عوائق هجوم أميركا على العراق معارضة حلفائها: غلاف ديرشپيغل الألمانيَّة، نهاية شباط ٢٠٠٢

شاملة سلميَّة للصراع العربيّ - الإسرائيليّ، والاحتفاظِ بوجودٍ عسكريّ أمريكيّ في الخليج العربيّ والمياه المجاورة، ودعمِ استقرار الأنظمة العربيَّة المعتدلة، والاحتواءِ المزدوج للعراق وإيران. وتركّز الولايات المتحدة أنشطتها لمواجهة «قوس الأزمات» الممتدّ من إيران والعراق واليمن وليبيا وأفغانستان، وتشْمل هذه الأنشطة إجراءَ الاحتواء العسكريّ والخنقِ الاستراتيجيّ والعقوباتِ الاقتصاديَّة، مع الأخذ فى الاعتبار أنَّ إيران هي التي ستشكّل فى المدى المتوسّط التهديدَ الإقليميَّ الرئيسيَّ بسبب تطوير قدراتها العسكريَّة خصوصًا صواريخ شهاب ١ و٢. وقد دفعت الولايات المتحدة فى اتجاه توسيع حلف الناتو شرقًا، وتبنّي فكرة الخطر الذى يأتي من دول الجنوب وخاصةً من العراق وإيران، وذلك كبديل عن الخطر السوفييتيّ السابق. وفى جميع هذه المراحل تمّ تغليفُ الاستراتيجيَّة السياسيَّة والعسكريَّة بديباجات واعتذاريّات ثقافيَّة وإيديولوجيَّة تارةً باسم «صراع الحضارات،» وتارةً باسم «محور الشرّ.» وطوال العقد الأخير من القرن العشرين كان العراق يشكل هدفًا استراتيجيّاً أساسيّاً فى الرؤية الأمريكيَّة ينبغي حصارُه وعزلُه واحتواؤه سياسيّاً أو عسكريّاً. فالعراق كان يسعى باستمرار إلى حيازة أسلحة الدمار الشامل، كما أنه يشكّل أحد أهمّ مصادر تهديد الأمن الإسرائيليّ بتدخله طرفًا رئيسيّاً فى العديد من الحروب العربيَّة - الإسرائيليَّة، وبإطلاقه الصواريخ فى العمق الإسرائيليّ أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١.

من الاحتواء السياسيّ إلى الاحتواء العسكريّ: تغيير النطاق

بعد انتهاء حرب الخليج ١٩٩١ بذلت الولاياتُ المتحدةُ قصارى جهدها من أجل احتواء العراق بالأساليب السياسيَّة من خلال الحصار الاقتصاديّ والسياسيّ وفِرَقِ التفتيش عن الأسلحة العراقيَّة. وقد واجهتْ واشنطن التململَ العراقيَّ من استمرار العقوبات، ومن استمرار عمل لجان التفتيش دون بارقة أمل، بالتهديدات العسكريَّة والهجمات الصاروخيَّة. لكنَّ عامَ ١٩٩٨شهد تغييرًا فى السياسة الأمريكيَّة بعدما أوْقف العراقُ تعاونَه مع اللجنة الدوليَّة المكلَّفةِ إزالةَ أسلحة الدمار الشامل (أونسكوم) وما أعقبها من قصف أمريكيّ كثيف للعراق خلال عمليَّة «ثعلب الصحراء» فى ديسمبر ١٩٩٨. وركّزت الاستراتيجيَّةُ الأمريكيَّةُ على بعديْن أساسيَّيْن هما: التحول من الاحتواء السياسيّ شبهِ السلْميّ الذي يَعْتمد التفتيشَ والرقابةَ الدوليَّةَ من خلال الأمم المتحدة، إلى احتواء عسكريّ عن طريق القوة المسلَّحة بصورة فرديَّة دون بناء تحالف دوليّ من ناحية أولى، والاهتمامِ بمحاولات إسقاط النظام العراقيّ أو الإطاحة بالرئيس صدّام حسين من ناحية ثانية. ويمكن القول إنَّ البعد الثاني لم يكتسب أولويَّة متقدمة بسبب الصعوبات التى تكتنف تحقيقَه فى المدى القصير على الأقل. ولذلك ظلت الأولويَّة للاحتواء باستخدام القوة العسكريَّة بغطاء دوليّ إنْ أمكنَ توفيرُه، وبدونه إنْ تعذّر ذلك. أما الإطاحة بالنظام عبر التورُّط فى حرب بريَّة فإنها مهمَّة شبهُ مستحيلة بسبب تكلفتها البشريَّة الباهظة.

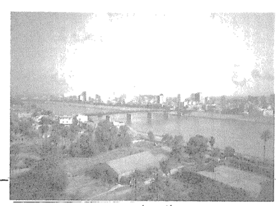
وقد واجهت الولاياتُ المتحدةُ مأزقًا متعددَ الأبعاد فى تعاملها مع العراق نظرًا لاستمرار النظام، وعدمِ قدرة القوة العسكريَّة على إخضاع العراق أو التأكد من عدم تطوير قدراته العسكريَّة. فالقوة لا تكفي لحلّ مشاكل معقدة، والأسلحةُ الذكيَّة لا تعني سياسةً ذكيَّة، والقوةُ العسكريَّةُ لم تَضْمن التخلصَ من النظام ولا التخلصَ من الأسلحة وإنما أثارت انقسامًا دوليّاً وغضبًا عارمًا فى الشارع العربيّ يهدِّد بعدم استقرار المنطقة. وقد جاءت انتفاضةُ الأقصى فى ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ لتُضْعف من الموقف الأمريكيّ الذى يساند آلة القمع الإسرائيليَّة فى مواجهة الشعب الفلسطينيّ. وعادت إسرائيل لتَبْرز باعتبارها هي، لا العراق، الخطرَ الرئيسيَّ على الدول العربيَّة. وبناءً على ذلك أخذ نظامُ العقوبات في التآكل،

واستعاد النظامُ السيطرةَ على جانب من عائدات تصدير النفط وتهريبه بوسائل مختلفة عبر دول الجوار. كما استعاد جزءًا من النفوذ السياسيّ الإقليميّ والدوليّ من خلال بيع النفط بأسعار تفضيليّة مخفَّضة لبعض الدول مثل الأردن وسوريا، ومن خلال فتح الأسواق أمام البضائع الواردة من دول الجوار مثل تركيا ومصر، فتشكلتْ شبكةٌ واسعةٌ من المصالح الاقتصاديّة أتاحت له هامشًا أكبرَ للمناورة. وحاولت الولاياتُ المتحدةُ ترقيعَ ثوب العقوبات الممزَّق من خلال اقتراح نظام جديد للعقوبات يسهِّل وصولَ السلع التي يحتاجها المواطنون العراقيون، ويحاول ـ في الوقت نفسه ـ تشديدَ السيطرة الدوليّة على عائدات النفط، وعلى واردات العراق من السلع المحظورة التي يُمْكن استخدامُها فى المجالات العسكريّة. وأُطلق على هذا النظام اسمُ «العقوبات الذكيّة.» ولكنَّ مآله كان الفشلَ الذريعَ بسبب المعارضة الدوليّة والإقليميّة، وتهديدِ روسيا باستخدام حقِّ النقض فى مجلس الأمن ضد القرار. وفي ظلّ هذه الظروف شهدت الاستراتيجيّةُ الأمريكيّةُ ارتباكات واضحةً وانتكاساتٍ بيِّنة. ثمّ جاءت أحداثُ ١١ سبتمبر لتعود الولاياتُ المتحدةُ بروح هجوميّة عسكريّة أكثر قوةً، خصوصًا بعد ما بدا من مظاهر انتصار عسكريّ سريع في أفغانستان، ووجودِ تحالفٍ دوليّ واسعٍ ضد الإرهاب. فجاء الطرحُ الأمريكيُّ الجديدُ الذي يركِّز على مفهومِ محور الشر، واعتبارِ العراق الهدفَ التالي لحرب الإرهاب، على الرغم من عدم وجود أيّة أدلةٍ على تورطه في أحداث ١١ سبتمبر.

الضربة العسكريّة المتوقّعة: الحدود والقيود

في أعقاب أحداث ١١ سبتمبر جاء الطرح الأمريكيّ الجديد حول محور الشر ليورِّط الولايات المتحدة في العراق، ويَفْرض عليها استخدامَ القوة العسكريّة من أجل الإطاحة بالنظام هناك. والذرائع والمبرِّرات جاهزة وتدور حول تطوير العراق أسلحةَ دمارٍ شامل، وتهديدِه الجيرانَ، وعلاقته بالإرهاب. كما تمّ تجريبُ الأسلوب العسكريّ فى أفغانستان من خلال الحرب الجويّة دون الحاجة إلى حشود بريّة، ومن خلال استخدام النظم العسكريّة الحديثة ـ وأهمُّها القنابلُ الذكيّة والاعتمادُ على المعارضة. وتوفُّر الظروفُ الداخليّةُ فى الولايات المتحدة أرضيّةً مناسبةً لهذا العمل العسكريّ الذى يَدْفع نحوه بقوةٍ صقورُ الإدارة الأمريكيّة في وزارة الدفاع ونائبُ الرئيس، معتمدين على نفوذ اللوبي الصهيونيّ، وتيارِ اليمين المسيحيّ القويّ داخل الحزب الجمهوريّ. وقد بدأ الإعداد سريعًا للمسرح الدوليّ والرأي العام الأمريكيّ والعالميّ من خلال الدعاية وأساليب الحرب النفسيّة. وبدأ العملُ الاستخباراتيّ، وجسُّ نبض المعارضة، ومغازلةُ الجنرالات السابقين فى الجيش العراقيّ الذين يُعتبرون عنصرًا أساسيّاً فى أيّ تحرك أمريكيّ ــ وبخاصةٍ الجنرال نجيب الصالحي الذي كان يَشْغل منصبَ رئيس أركان وحدة فى الجيش، ويُعدّ من أعلى القيادات التى انشقّت عن الحرس الجمهوريّ.

وعلى الرغم من كل ذلك فالهجوم الأمريكيّ ليس وشيكًا، بسبب ما يراه بعضُ المحللين من نفاد مخزون الأسلحة الدقيقة، وتردُّدِ حلفاء واشنطن، إلى جانب الرغبة فى ضمان أن تنتهي المهمةُ على النحو الملائم الذى يحقِّق الأهدافَ الأمريكيّةَ. فإدارة بوش اتخذت القرار بالفعل وقررتْ إسقاطَ النظام العراقيّ، ولكنّ القرارَ هو مجرد خطوة أولى، ولا يعني بالضرورة أنَّ الطريق نحو إسقاطه سهلٌ واضحُ المعالم. وإذا كان من الممكن أن تبادر الولايات المتحدة إلى هجوم عسكريّ منفرد من دون حاجة إلى تحالف دوليّ واسع، فإنَّ هناك عوائقَ وقيودًا عديدةً تعرقل ذلك التحرُّك. ومن هذه العوائق المعارضةُ الدوليّةُ الواسعةُ، حتى من حلفاء واشنطن مثل ألمانيا وكندا وفرنسا. فقد ورد فى وسائل الإعلام الألمانيّة نقد حادّ لسياسة واشنطن عبَّرتْ عنه صحيفة **دير شپيغلْ** فى نهاية فبراير، حيث تصدرتْ غلافَها صورةُ بوش برشاش، وصدره



سيبقى الإقليم العراقيّ موحّدًا ولكنّه غير قادر على الخروج من قواعد اللعبة الأميركيّة

نصفُ عارٍ، ورأسُه مربوطٌ بحزام على غرار رامبو، ومن خلفه يقف معاونوه حاملين السيوفَ والبنادقَ وهم تشيني وباول ورامسفلد ورايس. كما ظهرت انتقاداتٌ داخل مجلس الشيوخ والنوّاب حول استراتيجيّة الحرب في أفغانستان وبدء حرب عصابات ضد القوات الأمريكيّة، وحول المواقف المتعجرفة من الحلفاء الأوروبيين، وحول استخدام تعبير «محور الشرّ» الذي قد تترتب عليه عواقبُ وخيمة. وتشير المعارضة الدوليّة، وخصوصًا الأوروبيّة، إلى أنّ قادة العالم بدأوا يشعرون بحقهم في إعلان الاختلاف مع السياسة الأمريكيّة، وذلك بعد ستة شهور من العنجهيّة الأمريكيّة.

أما الرأي العامّ العربيّ والإسلاميّ فتسوده موجةُ كراهية شديدة للولايات المتحدة أشارت إليها «غالوب» من خلال نتائج استطلاع للرأي في العالم العربيّ والإسلاميّ أظهر تنامي المشاعر العدائيّة للسياسة الأمريكيّة، وأنّ الغالبية تَعْتبر أنّ أمريكا تسعى إلى تحطيم مراكز الإشعاع التاريخيّة في العالم الإسلاميّ. وأمّا المواقف الرسميّة العربيّة فهي تفضّل الصمتَ أو تعلن خلافَ ما تضمره، لأنّها تخشى من تقسيم العراق في ظل أيّة ضربة عسكريّة للجيش العراقيّ. وقد عملتْ واشنطن على احتواء المشاعر العربيّة الملتهبة بسبب المواقف الأمريكيّة المنحازة إلى إسرائيل، من خلال طرح مبادرة سلميّة جديدة في موضوع الصراع العربيّ - الإسرائيليّ.

وتبقى المشكلةُ الأكثرُ أهميّةً، وتتعلق بقدرة الولايات المتحدة على إحداث تغيير حقيقيّ في النظام العراقيّ أو الإطاحة برئيسه، خاصةً بعد أن تبيَّن في ضوء خبرة سنوات الحصار أنّ الرهان على انقلاب عسكريّ رهان خاسر. كما أنّ الرهان على انتفاضة شعبيّة رهان خاسر بدوره؛ فلم تعد لدى الشعب العراقيّ الرغبةُ أو القدرةُ على التمرد، وأصبح أكثرَ إدراكًا لمواقف القوى الدوليّة التي تتلاعب به ولا يبدو أنها جادّةٌ في إسقاط النظام وإنّما تكتفي بإبقائه ضعيفًا معزولاً. صحيح أنّ ثمّة احتمالات تمرد عسكريّ في صفوف الجيش العراقيّ، ولكنّ النظام أَثْبت قوةً غيرَ عاديّة في السيطرة على الجيش والتحكم فيه. ويبقى سيناريو تقسيم العراق قائمًا باللجوء إلى قصف جويّ مستمرّ يؤدّي إلى تمرد الأكراد في الشمال والشيعة في الجنوب، ولكنّه غير وارد نظرًا إلى إدراك القوى الدوليّة والإقليميّة للمخاطر الحقيقيّة لتقسيم العراق على استقرار الإقليم بأكمله.

والواقع أنّ المحتوى العمليّ للسياسة الأمريكيّة يؤكد أنّ الحديث عن التغيير الكامل للنظام أمرٌ لا يتجاوز دائرةَ الاعتبارات الدعائيّة وحسب. أما مركزُها الأساسيّ فيتضمن إنهاكَ النظام، وإرباكَه، وإبقاءَه في إطار محدد قوامُه: الاحتواءُ العسكريّ، والتعرُّضُ الدائم للضغوط الخارجيّة والعزلة السياسيّة، وذلك من أجل عدم الإخلال بالتوازن العامّ في المنطقة. وعليه يبقى الإقليمُ العراقيُّ موحّدًا، ولكنّه مقيَّد وغيرُ قادر على الخروج من قواعد اللعبة الأمريكيّة. أما محور الشر فهو الغلاف الإيديولوجيّ والدعائيّ الذي يخفي جوهرَ هذه الاستراتيجيّة، ويحيطها بغلالة رقيقة من أجل استمرار سياسة الخداع والمناورة طبقًا لقواعد اللعبة السياسيّة.

القاهرة

أحمد التهامي

باحث في العلاقات الدوليّة في المركز القوميّ للبحوث الاجتماعيّة. وله عدد من الكتب منها **التكلفة الإنسانيّة للصراعات العربيّة**.

جريمة بحقّ الإنسانيّة
تدمير مجلس الأمن للعراق مستمرّ منذ ١٩٩١

عمر نشّابة

محور الشرّ والبعدُ عن الديبلوماسيّة

أعلنت الإدارةُ الأميركيّةُ مؤخّرًا أنّ «محور الشرّ» يتألّف من كوريا الشماليّة وإيران والعراق. وسمحتْ هجماتُ ١١ أيلول (سبتمبر) لذلك الإعلان وللتهديدات الأميركيّة الموجّهة إلى قوى «الشرّ» (وإلى مَنْ يساندها) بأن يعمَّمَ بقوّةٍ وبزخمٍ إعلاميّ وسياسيّ لافت. وتهدِّد الإدارةُ الأميركيّةُ اليومَ بضرب العراق بوجه خاصّ، وتُضفي على تهديداتها عنوانًا جديدًا ذا عبارات ميثولوجيّة وثيولوجيّة بعيدةٍ عن السياسة والديبلوماسيّة: فالعراق بالنسبة إلى الإدارة الأميركيّة يمثّل «الشرّ»؛ وعبارةُ «اللّه أكبر» التي أضافها صدّام حسين على العلم لتدلّ على إسلاميّة العراق قد تساعد الإدارةَ الأميركيّةَ على التأكيد للأميركيّين وللعالم أنّ العراق المسْلم يجب أن يدمَّر كما دُمّرتْ أفغانستانُ الإسلاميّة. ذلك لأنّ الإسلام والمسلمين، من وجهة نظر الأميركيّين، أمران مترابطان، بل مسؤولان عن دمار ١١ أيلول. وهذا يعطي «مصداقيّةً» أميركيّةً (وغربيّةً إلى حدٍّ ما) لخطّة تجويع العراقيّين التي بدأتْ منذ مطلع التسعينيّات ومازالت مستمرّةً حتى اليوم، وتنفَّذ تحت مظلّة مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.

خلال الخمسين سنة الأولى من وجود منظمة الأمم المتّحدة قام مجلسُ الأمن، بناءً على الفصل السابع من ميثاق المنظمة، وفي عشر مناسبات مختلفة، بفرض عقوبات اقتصاديّة متفاوتة القسوة ضدّ عدد من البلدان. ولعلّ أشدّ تلك العقوبات هو ما فُرض على العراق. لا بل إنّ العقوبات التي فُرضتْ على هذا البلد منذ عام ١٩٩١ تبدو وكأنّها تهدف ـ أكثر من أيّة تجربة سابقة في هذا المجال ـ إلى تدمير البنى التحتيّة البشريّة والماديّة في هذا البلد.

في النص التالي سأقدّم بعض النقاط التي تدلّ على حقيقة الهدف من عقوبات مجلس الأمن على العراق.

السبب الحقيقيّ للعقوبات ولإدراج العراق في محور الشرّ

تبنّت الأمم المتّحدة مشروع عقوباتها المتكامل والإلزاميّ ضد العراق وفقًا للفصل السابع من ميثاقها، وكردٍّ مزعوم على الاجتياح العراقيّ للكويت في الأول من آب (أغسطس) من العام ١٩٩٠. وفي السادس من ذلك الشهر أصدر مجلسُ الأمن قرارَه رقم ٦٦١ الذي يَمْنع استيرادَ السلع من العراق وتصديرَها إليه، وجمّد ودائعَ الحكومة العراقيّة والمواطنين العراقيين في الخارج، كما أوقف كلَّ العقود التجاريّة الجارية مع العراقيين والمؤسسات العراقيّة. ونصّ القرارُ نفسُه على إنشاء لجنة عقوبات تضمّ ممثلين عن الدول الأعضاء في المجلس، وهدفُها الإشرافُ على تطبيق العقوبات بشكل كامل وصارم. وسرعان ما تمّ تعديلُ برنامج العقوبات وتوسيعُه: ففي القرار ٦٦٦ أوْكل مجلسُ الأمن إلى لجنة العقوبات مهمّةَ تحديد ما يمثّل «الظروفَ الإنسانيّةَ» ضمن موادّ القرار ٦٦١ لتقليص فرص «التهرّب» من تنفيذ العقوبات. وأمر مجلسُ الأمن بموجب القرار ٦٦٦ / ١٩٩٠ أن يتمّ شحنُ الأدوية والمواد الغذائيّة إلى العراق تحت إشراف المؤسسات الإنسانيّة الدوليّة بدلاً من المؤسسات التابعة للحكومة العراقيّة. ولتنفيذ الحظر التجاريّ بشكل كامل، أَمَرَ مجلسُ الأمن الدولَ باعتراض سفن الشحن الداخلة إلى العراق والخارجة منه، وتفتيش حمولة السفن المشتبه بأنها تمارس التجارةَ مع هذا البلد. ومَنع مجلسُ الأمن أيضًا حركةَ الطيران من العراق وإليه، وَطَلَبَ إلى الدول الأعضاء منعَ الطائرات العراقيّة من ممارسة حقّها في المغادرة (قرار ٦٧٠ / ١٩٩٠).

وقرّر مجلسُ الأمن، بعد أن ادّعى أنّ نظام العقوبات المفروضَ فشل في حصد النتائج المطلوبة لإخراج القوات العراقيّة من الكويت، منحَ الدول الأعضاء حقَّ استخدام كافة الوسائل لتحقيق ذلك الهدف بموجب القرار ٦٧٨. فاعتدت على العراق جيوشُ دولٍ



الطفل العراقيّ زعيم «محور الشرّ»!

«التحالف» تحت أمرة العمّ سام (وهي جيوش مازالت منتشرةً في الخليج). وقامت بهجمات جويّة وبريّة وبحريّة ضد المنشآت العسكريّة والمدنيّة والاقتصاديّة العراقيّة، تبعها انسحابُ الجيش العراقيّ من الكويت. ومع ذلك، لم يَحُلْ خروجُ القوات العراقيّة من الكويت دون استمرار العقوبات. فما هو الهدف الحقيقيّ للعقوبات المستمرّة على العراق حتى هذا اليوم؟

على الرغم من الانسحاب العراقيّ وتوقيع اتفاق وقف إطلاق النار، قرّر مجلس الأمن بموجب القرار ٦٨٧ /١٩٩١ استمرارَ العقوبات على العراق. فبات واضحًا أنّ مطالبة مجلس الأمن بانسحاب الجيش العراقي من الكويت لم تكن سوى ذريعة لفرض هذه العقوبات وليست هدفًا حقيقيًا لها. وقد تجلّى إصرار مجلس الأمن على تدمير العراق إثر الانسحاب من الكويت. كما تبيّن أنّ أعضاء مجلس الأمن الدائمين كانوا (ولايزالون) قلقين إزاء التهديد الذي قد يشكّله العراقُ لإسرائيل، خصوصًا بعد انتهاء الحرب الإيرانيّة ـ العراقيّة، أكثر مما كانوا «قلقين» على الكويت ودول الخليج العربيّة. وللأسف فإنّ الكثير من الكويتيين والخليجيين لم يتنبّهوا إلى هذا الأمر.

ادّعى مجلس الأمن أنّ العقوبات على العراق تنتهي حين ينفّذ العراقُ القرارَ ٦٨٧ الذي ينصّ على ضرورة تدمير العراق لأسلحة الدمار الشامل التي قيل إنّه يَمْلكها، وحين يَسْمح بمراقبةٍ دوليّةٍ لتنفيذ التزامه عدمَ معاودة إطلاق برامج التسلّح النوويّ ـ الكيميائيّ والبيولوجيّ. وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٢ أقنعت الولاياتُ المتحدة مجلسَ الأمن بإصدار القرار ٧٧٨ الذي يجمّد ما تبقى من الحسابات المصرفيّة العراقية في الخارج، التي كان العراقُ يستخدمها لشراء الحاجات الإنسانيّة الملحّة.[١] وفي الوقت عينه تمعن إسرائيل في تطوير برامج أسلحة الدمار الشامل لديها، وفي تطوير برامجها النوويّة في صحراء النقب، وتستمرّ في خرق قرارات مجلس الأمن من خلال احتلالها المستمرّ لأجزاء من جنوب لبنان والجولان وغزّة والضفة الغربيّة، وتتلقّى مبالغ هائلة («مساعدات») لدعم مقوّماتها الاقتصاديّة والمؤسّساتيّة والخدماتيّة وتحديثها.

رفض العراق سياسةَ ازدواجيّة المعايير التي يطبّقها مجلسُ الأمن. فرفض الرضوخَ الكاملَ للقرار ٦٨٧، ولاسيّما المواد المتعلقة بتدمير أسلحة الدمار الشامل التي (ربّما) يملكها. ومع استمرار الرفض العراقيّ لا تزال نصوصُ الفصل السابع من ميثاق هيئة الأمم قيد التطبيق من دون تغيير جذريّ منذ عام ١٩٩٠.

ورغم العقوبات القاسية وسياسة التجويع والقصف الأميركيّ ـ البريطانيّ المتقطّع للعراق، ظلّت القيادةُ العراقيّةُ تهدّد إسرائيل وتنادي بزوال الاحتلال الإسرائيليّ عن الأراضي العربيّة (كما تنصّ قراراتُ مجلس الامن)، بل راحت تؤسّس في بغداد ـ ثم تستعرض ـ جيشًا لتحرير القدس. وهذا هو السبب الحقيقيّ لاعتبار العراق جزءًا من «محور الشرّ»؛ فكلُّ مَنْ يعادي إسرائيلَ يُعتبر شريرًا أو إرهابيّاً ضمن المعايير الأميركيّة المعولمة. وليس صحيحًا أنّ الأميركيّين والأوروبيّين حريصون على احترام حقوق الإنسان في العراق. فهناك أمثلة كثيرة عن أنظمة ارتكبتْ أبشعَ الجرائم بحقّ الإنسانيّة وحظيتْ بالدعم الكامل الأميركيّ (والأوروبيّ أحيانًا)، ومنها إيرانُ زمنَ الشاه وتركيا وإسرائيل وعددٌ كبيرٌ من دول أميركا اللاتينيّة الرأسماليّة الديكتاتوريّة القامعة للشيوعيّين ولليسار عامةً.

١ ـ Eric Rouleau, "The View from France: America's Unyielding Policy Toward Iraq," **Foreign Affairs** (January/February 1995), pp. 64-65.

جريمة بحق الإنسانيّة
تدمير مجلس الأمن للعراق مستمر منذ ١٩٩١

العقوبات خرقٌ للسيادة وجريمة ضد الإنسانيّة

تُلحق عقوباتُ الأمم المتّحدة الإلزاميّة ضد العراق أذىً قاسيًا بالشعب العراقيّ. ويَعْلم مجلسُ الأمن ولجنةُ العقوبات التابعة له معاناةَ الشعب العراقيّ المعاقَب منذ أكثر من عشر سنوات والمحروم من العيش في كرامة وسلام. وتحت وطأة الضغط الإنسانيّ، ومع العرض الأول للصور الفظيعة لمستشفيات الأطفال في بغداد، طلب مجلسُ الأمن من لجنة العقوبات تخفيفًا شكليًّا لحدّة العقوبات على المدنيين العراقيّين، وسَمح لها بإدخال بعض الاستثناءات على الحظر الشامل المفروض. وهكذا أَوْجَدَ مجلسُ الأمن مَخْرجًا يقضي بالسماح للعراق بتصدير النفط مقابل شراء الغذاء واللوازم الإنسانيّة الأخرى بموجب القرارين ٧٠٦ و ٧١٢.

لكنّ مشروع «النفط مقابل الغذاء» يَخْرق سيادةَ العراق لأنّه لا يَسْمح بحريّة تصرّف العراقيّين بأموالهم. فهو يُبقي السيطرةَ الخارجيّةَ على الموارد العراقيّة، فيودع المبلغَ المخصّصَ لتزويد العراق بالأغذية والأدوية في حسابٍ مصرفيٍّ في نيويورك بإشراف الأمم المتّحدة التي تديره. كما أنّه يخصّص مبلغًا كبيرًا من أموال النفط (التي كان يُفترض أن تكون مقابل الغذاء!) للتعويض عن ضحايا الاجتياح العراقيّ للكويت. كما يخصّص مبلغًا آخر لنفقات اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتّحدة والمشْرفة على نزع العراق لأسلحة الدمار الشامل. وهذا يعني أنّ الشعب العراقيّ الجائع يضطرّ إلى دفع جزء من المبلغ المخصّص لغذائه إلى العائلات الكويتيّة الثريّة، وإلى الخبراء العسكريّين الغربيّين! كما أعلن الصليب الأحمر الدوليّ في ورقة كان قد قدّمها إلى الأمم المتحدة عام ١٩٩١، وأعاد التأكيدَ على محتواها عامَ ١٩٩٩، أنّه لا يُمْكن للمساعدات الإنسانيّة المرسلة إلى العراق ـ مهما كبر حجمُها ـ أن تؤمّن الحاجات الأساسيّة لـ ٢٢ مليون عراقيّ.(١)

أدت العقوبات إلى تدهور ملحوظ في الوضع الاقتصاديّ والاجتماعيّ والصحّيّ للشعب العراقيّ، وانهار الاقتصاد انهيارًا شبهَ كامل. فقبيل فرض الحظر، كان النفط يشكّل ما نسبتُه خمسةٌ وتسعون في المئة من عائدات العراق التجاريّة. أما الخدمات الطبيّة المميّزة وغيرها من الخدمات المتقدّمة فكانت تؤدّى من قبل رعايا أجانب. وتراجع الدينارُ العراقيُّ من ٠٫٦ دولار أميركيّ إلى ألف ومئتيْ دينار للدولار الواحد في نيسان ١٩٩٥. وبلغتْ نسبةُ التضخم، استنادًا إلى أسعار ذلك العام، ستةَ آلاف في المئة. وانخفضت الصناعةُ إلى نسبة متدنية تراوحتْ بين عشرة وخمسة عشر في المئة من مستوى تشغيلها المعهود. وارتفعتْ نسبةُ البطالة إلى حدود السبعين في المئة.(٢)

طالت العقوباتُ شريحةَ الفقراء بشكل قاسٍ ومباشر، إذ ارتفعتْ أسعارُ بعض السلع الأساسيّة كالخبز والفاكهة والخضار عدة آلاف بالمئة على نحو ما أشارت أرقامُ برنامج الغذاء العالميّ. أما فئات المهنيين والخبراء ففوجئوا بأجورهم تتآكل، واضطروا إلى بيع ممتلكاتهم الخاصة والعائليّة للحصول على لقمة العيش.(٣) وهبط مستوى المعيشة إلى حد أنّ قيمة الدخل الشهريّ تراجعتْ

١ ـ ICRC, "Iraq: A Decade of Sanctions," www.icrc.org.

٢ ـ Reuther, "UN Sanctions Against Iraq," in D. Cortright and G.A. Lopez (eds.), **Economic Sanctions: Panacea or Peace Building in a Post-Cold War World?** (Boulder: Westview Press, 1995), p. 121 - 127.

٣ ـ ICRC, op. cit.

٤ ـ المصدر السابق.



ما الفرق بين الإبادة باستخدام الحرب، والإبادة باستخدام العزل والحصار والتجويع؟

إلى ما يساوي دولارين أمريكيّيْن. ولايزال الوضع يزداد سوءًا منذ ١٩٩١،[١] وإنْ ظهرتْ بعضُ الانفراجات المحدودة هنا وهناك من جرّاء التهريب.

وأنْتج تدهورُ الاقتصاد العراقيّ ارتفاعًا مذهلاً في معدّلات الجريمة، ولاسيّما في المدن. كما أدّت العقوبات الاقتصاديّة على العراق إلى أزمات غذائيّة وصحيّة وتربويّة. فقد أظهرتْ دراسةٌ نشرتْها إحدى المجلات الأكاديميّة أنّ عقوبات الأمم المتحدة سبّبت ارتفاعًا كبيرًا في معدّل وفيات الأطفال في العراق منذ بدء الحصار.[٢] وحذّرت المؤسساتُ الدوليّة، بما فيها الصليبُ الأحمر الدوليّ، من أنّ خمسين في المئة فقط من معامل تكرير مياه الشفة ومعالجة المياه المبتذلة تعمل حتى اليوم. وفي الإطار نفسه وجدت اليونيسيف أنّ ما لا يزيد عن خمس وعشرين مضخّة مازالت تعمل من أصل مئة وخمس وثلاثين مضخّة للمياه المبتذلة في البصرة.[٣] ونقل خبراءُ منظمة الأغذية والزراعة العالميّة (الفاو) أنّ العراق على مشارف مجاعة حقيقيّة في ظل الارتفاع الجنونيّ للأسعار، وشحِّ المداخيل الخاصة، وازديادِ أعداد الفقراء. كما نقلت اليونيسيف أنّ ثلاثة ملايين ونصفَ مليون عراقيّ ـ بينهم مليونٌ وخمسمائة وثمانون ألف طفل تقلّ أعمارُهم عن خمس عشرة سنةً، ومئتان وثلاثون ألف امرأة حامل أو مرضعة ـ يواجهون خطرَ سوء التغذية الذي قد يؤدّي إلى الوفاة بسبب العقوبات. وذكرتْ منظمةُ الصحّة العالميّة وجودَ نقص في الأدوية والأجهزة الطبّيّة والمواد الغذائيّة وتكرير المياه والتعقيم.[٤] فما لا يزيد عن عُشْر حاجات العراق من الأدوية متوفّر للمرضى. وبعضُ العمليات الجراحيّة الصغيرة كانت تتمّ من دون بنج لعدم توفّره.[٥] وذكر الصليب الأحمر الدوليّ أنّ المستوصفات الطبيّة تفْتقر إلى أبسط الأدوات الطبيّة ووسائل التعقيم، بل وإلى أوراقِ التدوين أيضًا.[٦]

وأشارت الأمم المتحدة نفسُها إلى أنّ ثلاثة وعشرين في المئة من الأطفال دون خمس سنوات يعانون سوءَ التغذية، وأنّ إهمال أجهزة معالجة مياه الشفة أدى إلى تعطيل هذه الأجهزة وتسبّب بأمراض كثيرةٍ ـ مصدرُها المياهُ ـ كالسلّ والملاريا.

ودقّت مجموعاتُ بحثٍ طبّيةُ بريطانيّةٌ وألمانيّةٌ، إضافةً إلى منظمة الصليب الأحمر الدوليّ، ناقوسَ الخطر حول الأزمة الصحيّة في العراق. وفي ظلّ هذا التدهور، تشير الأمم المتحدة أيضًا إلى أنّ واحدًا على خمسة من الطلاّب يغادر المدرسة بسبب النقص في المعدّات والتجهيزات التربويّة وبسبب الصعوبات الماليّة.

١ ـ المصادر السابق.

٢ ـ Ascherio et al.,"Effect of the Gulf War on Infant and Child Mortality in Iraq," **New England Journal of Medicine,** September 24, 1992, p. 931.

٣ ـ ICRC, op.cit.

٤ ـ Clark, "Sanctions on Iraq Take Toll on Children," **NY Times**, January 21, 1991, p. 22 (letter to editor); Gibbs, "A Show of Strength: Clinton's Charge Sends Saddam into Retreat, but Taming Him is Another Matter," **Time**, October 24, 1994, p. 34; "Easing of Iraq Sanctions Urged," **Christian Century,** March 1, 1995, p. 231.

٥ ـ "Down but Not Out," **Economist**, April 8, 1995.

٦ ـ ICRC, op. cit.

جريمة بحقّ الإنسانيّة

تدمير مجلس الأمن للعراق مستمرّ منذ ١٩٩١

الطفل العراقيّ ضمن محور الشرّ!

مارس عدد من الدول الأوروبيّة ضغوطًا لإنهاء العقوبات على العراق. لكنّ الهدف الأساسيّ لمعظم هذه الدول كان الاستفادة من التبادل التجاريّ مع العراق، لا القلقَ على مصير الشعب العراقيّ أو الحرص على حقوق الإنسان كما يدّعي بعضُها.

وفي المقابل حرص الديبلوماسيُّون الأميركيُّون على جعل أمر خرق العقوبات من جانب العراق مهمةً شديدةَ الصعوبة. فقد قال نائبُ ممثّل الولايات المتّحدة لدى الأمم المتّحدة في إحدى كلماته: «لقد صمّمنا نظامَ العقوبات هذا على قياس غشّاش [المقصود الرئيس صدّام حسين]؛ فنحن نعرفه جيّدًا.»[١] لكنّهم لو كانوا فعلاً يَعْرفون صدّام حسين لعلموا أنّه لا هو شخصيّاً، ولا كلُّ رجال السلطة العراقيّين، يعانون العقوبات؛ فكلّ الرسميين العراقيين يتغذّون بشكل جيّد. والأرجح أنّ ما كان يقصده نائبُ ممثّل الولايات المتحدة في مجلس الأمن هو أنّ الشعب العراقيّ لن يتمكن من التهرّب من حرب التجويع التي يشنّها مُجلسُ الأمن ضده. والمؤسف أنّ هذا الشعب غيرُ قادر على ذلك حقّاً.

تدّعي بعضُ السلطات الغربيّة أنّ معاناة الشعب العراقيّ تَطْرح عائقًا حقيقيّاً أمام تطبيق نظام عقوبات متكامل وفعّال. وتجزم تلك السلطات أنّ النظام العراقيّ يسعى عن قصد إلى تشديد العقوبات وأثرها على الضعفاء ليبني علاقاتٍ عامّةً هدفُها خدمةُ حملته التي تستهدف شرعيّةَ هذه العقوبات.

غير أنّ دورَ الحكومة العراقيّة وواجبَها، بغضّ النظر عن سياسة النظام العراقيّ، هما كدورِ وكواجبِ أيّ حكومة أخرى خاضعةٍ للظروف نفسها: أن تسعى وأن تنادي بصوت عالٍ لإلغاء العقوبات على شعبها. فالأرقام والإحصائيّات تدلّ وبشكل واضح على إبادة للشعب العراقيّ، وعلى تدميرٍ بطيءٍ للمدن والقرى العراقيّة من جرّاء عقوبات مجلس الأمن.

لا يجوز السكوتُ عن أيّ مشروع إبادة يتعرّض له أيُّ شعب، أيّاً تكن قيادتُه. وينبغي على دول الغرب التي تتباهى بأخلاقيّتها وإنسانيّتها الكفُّ عن استخدام مسألة حقوق الإنسان وسيلةً سياسيّةً تتميّز بازدواجيّة المعايير. فلا يجوز أن تُعتبر دولُ الغرب إبادةَ الشعب العراقيّ مسألةً تدخُلُ في إطار مكافحة الإرهاب، ويعتبرها الرئيس بوش حربًا على «الشرّ» العراقيّ، في حين أنّ الحصيلة هي ملايينُ الأطفال العراقيّين الذين يموتون جوعًا ومرضًا في المستشفيات، وعشرات الفلسطينيّين الذين يُذْبحون كلَّ يوم على يد الجيش الإسرائيليّ والعصابات الصهيونيّة.

لكنّ خشية أميركا على «حقوق الإنسان» تزداد كلَّ يوم، وإصرارَها على تدمير «قوى الشرّ» و«الإرهابيّين» (والكثيرُ منهم لم تندرجْ بعدُ أسماؤهم في لائحة الإرهابيّين المطلوبين لدى البنتاغون)، يشتدّان إلى حدّ طلب البيت الأبيض من العسكريّين الأميركيّين وَضْعَ خطّة عاجلة للجوءِ محتملٍ إلى السلاح النوويّ ضدّ الصين وروسيا والعراق وكوريا الشماليّة وإيران وليبيا وسوريا.

ولكنْ ما الفرق، يا ترى، بين الإبادة باستخدام آلة الحرب والقنابل النوويّة، والإبادةِ باستخدام العزل والحصار والتجويع؟

بيروت

عمر نشّابة

كاتب لبنانيّ. مُحاضر في مادّة حقوق الإنسان في الجامعة اللبنانيّة - الأميركيّة، وفي مادة العلوم الاجتماعيّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت.

١ - Crossette, "Iraq Gets Approval to Sell Oil to Meet Civilian Needs," **NY Times**, December 10, 1996.

هوس الشرّ في غسق الجحيم الأميركيّ
هيروشيما، ملجأ العامريّة؟ رام الله وأرض البشر

لطفيّة الدليمي

مفتونةً بيأسها الكونيّ ومتطرفةً في التأنسن الشرير، تَدْخل أميركا عماءَ الصعاب في غسق حضارتها الأخير.

عصرُها العنيف يبثّ موسيقى الفوضى والخراب في أقاليم الشرق والعرب، ليَنْحدر الجنسُ البشريُّ إلى احتمالات الانقراض.

عندما تتحدّث أميركا المستفيقة من ١١ أيلول عن الشرّ، تَهْطل المقابرُ من كلماتها، وتُمْطر الآفاقُ العالميّةُ نُعوشًا تَخْفق وراءها أعلامُ الدول متبوعةً بصهيل القذائف.

تتحدّث أميركا هنا وهناك مع نُصُبٍ ومومياءات تَرْشق القولَ وتَصْمت. تتحدّث أميركا مع الأشباح، مع سَدَنَةٍ مزيَّفين. فيَنْزعج الحاضرُ العربيُّ في نومته المريرة، وتسحبُ أصابعُه أطرافَ الكوفيّات على العيون المطْبقَة، وتغمغم الأصواتُ الوسنانةُ بنبرة مُتَلْتَرَةٍ متوسّلة:

- هلاّ كففتِ يا سيّدتنا المباركة عن الحديث؟ دعينا نكملْ نومَنا الشهيَّ على ذراع أحلامك. هلاّ تركتِنا نستلقِ في فراديس ممالكنا قبل زوالها ونمنحك توكيلاً إلهيّاً مؤبّدَ المفعول لتدبّري عنّا شؤونَنا وشؤونَ العالم بكفالةِ ما تشتهين من الثروات والمناجم؟

وتَمْضي أميركا في حديث الشرّ المثير، حاكمةً بأمر الفناء. وتتعالى سحائبُ الموت ما بين كفَّيْ بغداد وقلبِ رام الله. عندئذ تُمْطر ذاكرةُ المقاومة أولادًا يترنَّحون ما بين الدم والحجارة، ورجالاً يَنْسفون نظريّةَ الشرّ من أول تاريخ الكهانة حتى شرفات هانتنغتون ونوافذ فوكوياما الموصَدة. تُمْطر ذاكرةُ الأسى، وذاكرةُ الرسالات والغد، بناتٍ يسجّلْنَ تاريخَ الأُمّة الملتبسَ بمدائحَ من شهيداتٍ وأسفٍ ومستقبل.

تقول أميركا في هذر المصعوق:

- الناس هنا ليسوا في حاجة إلى شيء سوى قنابلنا النوويّةِ الرحيمةِ التي ستَهبهُم موتًا مجانيّاً صاعقًا بديموقراطيّةٍ فذّة.

الناس ليسوا في حاجة إلى شيء غير وليمة احتضارٍ في بهاء الإشعاع الكبير الذي سيضيء ما بين النهريْن ووادي رَم وما بين جبل الأرز وشعابِ مكّة وغوطةِ الأمويِّين ووادي الملوك وسدّ مأرب.

هكذا سَأَهَبُ الناسَ ثروةً من ضوء مشعّ، وسحبًا بهيئةِ جزيرةٍ طافيةٍ في الهواء بدرجة حرارة صاهرة. سوف أَمْنح البشرَ مصائرَ تُنْقذهم من وباء الماضي ووجع الذاكرة، وتقود ما يتبقّى منهم إلى حظيرة الحريّة. سيَعْبرون معي من الموت إلى الرماد، ومن الألم إلى حريّة الخرس. هكذا نَصْنع سلطةَ السلام ليعمّ الخيرُ عالمًا جاحدًا أَمْنحه التقنيّةَ والقمحَ والسلاحَ فيطعنُ في غفلةٍ من طقوس الشكر أبراجَ المنايا في مدينتي الكوزموبوليتانيّة العظمى.

هيّا، إنْ لم تساندوني فإنّي كفيلةٌ بتحويل الأمل إلى حرب مؤبّدة. سوف أُلْزمكم مستقبلَ الكارثة، وأُطْعمكم كعكةَ الشرّ المرقّشة بأيقوناتٍ عصري، كعكةً لم تتذوّقوها قبل سلطةِ الصورة وفخاخ المرايا. سوف تتحوّلون من رهاب الحياة وإرهابها في بلدانكم إلى عقلنة الموت اللامرئيّ. هي ذي نهايةُ التاريخ الرثّ لعوالمكم المنقرضة. وستعترفون بأيقونتي الخيِّرة وبتدويني بداية تاريخٍ جديدٍ للعالم ينمو في قبضتي النوويّة. أنا مَنْ يَصْنع النهاياتِ والبداياتِ والتحوُّلاتِ من حقبة إلى أخرى، وأنا مَنْ يَحْفر وشمَ التأسيس الجديد على لحوم الأمم.

فاغتنموا السلامَ المنزَّه عن إرهابكم، وتجوّلوا بين أنقاض ماضيكم وأطلالِ حضاراتكم البائدة وحاضركم الهشّ الذي انقضى تاريخُه وغيَّبَه الزمانُ في المدوَّنات الخرافيّة.

خُذوا حريّتَكم. فأنتم الآن أحرارٌ في قَضْم تفّاحة المستقبل إذا واريتُم جثّةَ أوهامكم وثقافاتكم المتعظّية ومضيتُم في مسار العاصفة الضوئيّة، حيث يتطابق المعقولُ مع الواقع وتمتدّ نهايةُ التاريخ في لحظتها المطلقة إلى ما لانهاية بعد انهيار الإيديولوجيّات واليوتوبيّات والتشكّلات الزائفة لأحلامكم.

هيا انغمسوا معي في النسيان، وحرّكوا ذبذباتِ النخاع الأخيرة في زمنٍ بلا حدود. ها أنتم تَرَوْنني أقدِّم لكم الحاضرَ في قنبلةٍ وقبضةِ طحين، لتستغرقوا في الخلود وتساندوني في نسج سلامِ العالم من خشخشة الأكفان ورقصةِ الواقع واحتضارِ التاريخ.

طقوس الشرّ في غسق الجحيم الأميركي
هيروشيما، ملجأ العاصفة؟ أم أشلاء وأرض الحشر

مدّوا أيديَكم بعلامة الظُّفر. مدوا أصابعَكم من ثقوب النعوش، وأشيروا إلى طرقاتي الساطعة. اصطفافًا اصطفُّوا وراء دلالاتي، وبشروط إنكاركم لإقامتكم العتيقة في اللُّغة؛ فأنتم كائناتُ الصوت والصدى والغياب.

اتبعُوني... أو البثوا في ضفّة محور الشرّ، وعندئذ لن تنالوا مغفرتي ولا لقمةَ الزاد ولن تفوزوا حتى بلذّة النوم على شظايا قنبلةٍ حنون.

هيروشيما

كتبَ القائد اليابانيّ جاساتاكي إكوميا في تقريره عن رحلته إلى هيروشيما مساءَ قصفها:

«عندما وصلنا هيروشيما كانت الشمسُ قد جنحتْ للمغيب. ولكنْ في اليوم الثاني كان يَنْبعث من المدينة ضوءٌ مروِّعٌ مخيف: إنَّها هيروشيما المشتعلة، ونيرانُها تَعْكس أضواءً قانيةً كالدماء المرتجفة المصحوبةِ بالدخان الأسود وهو يتصاعد من الأرض.

اختفى المطارُ تمامًا، وشاهد رجالُنا المحلّقون فوق أواكوني الانفجارَ الرهيبَ على مبعدة خمسةٍ وخمسين كيلومترًا. فقد أرسلناهم لنجدة القوات ولكنَّهم لم يتمكّنوا من الوصول إلى هيروشيما لأنَّ اللهب طَوّقَ المدينةَ من كل الجهات وعادوا وقد احترقتْ جلودُهم.

وفي الصباح التالي اقتحمْنا هيروشيما ولم يعد هناك أيُّ شيء. كان العدمُ بطلَ الزمن الجديد.

أفنت القنبلةُ هيروشيما، ولم يتبقَّ في الفضاء بعد رحيل نبتة الفطر النوويَّة العملاقة سوى صرخات عشرات آلاف الضحايا التي تَبْحث عن غوث ومنقذين. واختلط رمادُ المباني بالأجساد المحترقة. والتوت عظامُ الضحايا، واعوجّت الأذرع، وجفَّ الماءُ من المدينة، ولبث الضحايا يحترقون أحياءً ويتّكئون على موتاهم. ثم جرى تدوينُ الأحياء، ورُتِّبتِ الجثثُ صفوفًا صفوفًا حتى نهاية الموت.»

هيروشيما التي سبقتْ، هيروشيما التي بقيتْ، هيروشيما التي فرّختْ في بلداننا وأجسادنا كوارثَ السلام لأنَّ الحروب فقدتْ دلالةَ المعنى وماتت اللغاتُ بموت المدلولات.

هيروشيما صحراء نوويَّةٌ ذائبة، والمصوِّر الأميركيّ يلتقط صورَ الحدث مبهورًا بالنتائج.

يقول أحدهم:

«لم يكن أمرًا عاديًّا. لقد مات مئاتُ الآلاف، ولكنّ أميركا انتصرت. ولو طلبوا منِّي اليومَ أن ألقي قنابلَ هيدروجينيَّةً، إذنْ لفعلتُ من أجل أميركا. وليمتْ مئاتُ الآلاف من جديد.»

شمسُ القتل باهرة، والمدينةُ مُحيتْ بضغطة زرّ على جهازِ إرسالٍ لاسلكيّ أَرْسَلَ القنبلةَ لتفتحَ بابَ الجحيم على مصاريعه الأمميَّة.

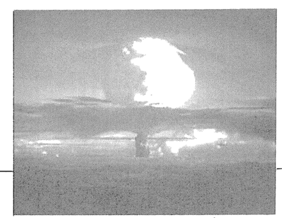
ضفائرُ النساء تساقطتْ على رصيف الموتى. كدّسوا شعرَ النساء وسطَ الساحة، وحَبَكوا منه ليلاً يابانيّاً حالكًا، وتوّجوا الليلَ بجمجمةِ طفلٍ مفزوعٍ وقمرٍ جريح.

فراغُ السلام لم يكن أبيض. فراغُ القنوط كان رمادًا حاولوا إخفاءه بتلالٍ من زهور الأقحوان البيضاء. قطعانُ زهور مالحة ترعاها فتياتٌ عمياوات يُرْضِعن أطفالاً خرجوا للتوّ من رَحِمِ سحابة الموت النوويَّة بأظلافٍ وذيول. وعن قربٍ، امرأةٌ تمزّقتْ أحشاؤها واندلقتْ مع جنين تدحرج على التراب الملَّح بالإشعاع.

من دفاتر ملاحظات طاقم طائرة إينولاجاي التي ألقت أولَ قنبلة ذريَّةٍ على هيروشيما

«.. قال فيربي: بقي من الوقت دقيقتان ـ أوكي، لقد نلتُ منها. وجلس أمام زناد قنبلته النائمة على جحيم محبوس.

كانت الطائرةُ على بعد أربعين ميلاً من الهدف لحظةَ إطلاق الإشارة اللاسلكيَّة، ولم يكن أحدٌ يَعْلم ما سيحدث بعدُ في اللحظة التالية. اخترق ضوءٌ خاطفٌ كالسِّهام نظّاراتِنا الجلديَّة، وغمر هذا الضوءُ المكانَ بأسره ثم انتشرتْ في السماء أشعةٌ رهيبة ونفذتْ حرارتُها إلى قمرة الطائرة مثلَ سيلٍ جارفٍ أعمى انهَمَرَ فوق



البطولة الأميركيّة في هيروشيما: مئة وثلاثون ألف ضحيّة في اللّحظة الأولى

سطح الطائرة واقتحمها. لم يكن هناك أيُّ تفسير؛ فلم يسبقْ لعينٍ بشريّةٍ أنْ رأت مثل هذا الجحيم.»

وكتب الكابتن لويس مساعدُ الطيّار:

«.. إنّني أتمزّق بينما نَقْصف هدفَنا بالقنبلة. أبْحث عن الكلمات فلا أجدها. همستُ: يا إلهي ماذا فعلنا؟ إذا ما عشتُ مائة عامٍ فلن تُمْحى من ذاكرتي لحظاتُ الجحيم هذه...

لقد أُصبنا بالعمى، ولم نستطع رؤيةَ شيءٍ لشدّة الوهج، مع أنّنا ألقينا القنبلةَ من ارتفاع ستة آلاف متر. ثم رأينا ما لا عيْن رأت وسمعنا ما لا أُذن سمعتْ. لقد حدث برقٌ مروِّعٌ إثر الانفجار، ثم ضوءٌ خاطفٌ، وظهرت السحابةُ النوويّةُ على شكل نبتةِ الفطر العملاقة، وبدا سطحُ مدينة هيروشيما مثلَ بحرٍ هائج من الاسفلت المغليّ. وقلتُ شيئًا.. بل فكرتُ بأمر تلك الخنازير المسكينةُ التي تلتهمها الكارثةُ تلك اللحظة.»

الخنازير المسكينة التي فكّر بها الأميركيُّ «الطيِّب» كانت مئة وثلاثين ألف ضحيَّة يابانيَّة احترقتْ في اللَّحظة الأولى، ونثروا رمادَ الضحايا على شرفِ البطولة الأميركيَّة في ساحات الألم.

وقال الرئيس الأميركيّ ترومان:

«... لقد وجّهنا القنبلةَ الذريَّةَ إلى أولئك الذين اعتدَوْا علينا دون سابق إنذار، وضدَّ مَنْ لم يحترموا القوانينَ الدوليَّةَ، لنحميَ الآلافَ من الشباب الأميركيّ. ونرجو من اللّه أن يوفِّقنا لاستخدام القنبلة الذريَّة في هدفها المحدَّد...»

الخنازير اليابانيَّة ـ التي احترقتْ في مدينة تغلي ـ كانت في عرف الأميركيّ الخيِّر كائناتٍ دنيا لا يَجْدر بها أن تحيا في عالمٍ واحدٍ مع الأميركان السوبرمان. اليابانيّ، وكذلك العربيّ والمسلم، العراقيّ والفلسطينيّ والأفغانيّ والفلبينيّ والمصريّ والليبيّ والسوريّ والصوماليّ والصينيّ والإفريقيّ والكوريّ، إنَّما هم كائنات رقميَّة لا وجودَ لها حقيقةً على الأرض، وإنَّما لها موقعٌ متَّسع في الآخرة ـ أعني الجحيم، لأنَّها كائناتٌ شريرةٌ يشكّل وجودُها على الأرض فضيحةً للعصر ما بعد الحداثيّ. وأميركا مُوكَلَةٌ الآن بتطهير الأرض من البشر والفضيحة، مثلَ رسولٍ دجّالٍ يرى العالمَ بعين واحدة، ويُطْلق رصاصةَ الخير على فصيل الأشرار الذي يشكّل ثلثيْ سكّان العالم. وبعضٌ منّا، نحن العربَ، هنا وهناك، في البلاد التي تتآخى في التصريحات مع جنرالات السلام والخير، يتوقون إلى النجاة بإعلانِ البراءة من الحياة، وإعلانِ البراءة من القيمة، وإعلانِ اليأس من جذورهم وعصر الظلام، ويتوقون إلى إلقاء مستقبلهم الغامض بين أصابع الحلم الذي تهاوى.

العامريَّة

االساعة تشير إلى محاق الهول الأخير. البلادُ في محاق القمر. القمر يغفو منسحبًا إلى رماده وينام على وسادة من أحلامنا المسروقة وأسماءِ موتانا. الموتى يحلِّقون فوق جحيم القصف. سبعون ساعةً من القصف؛ هل بقيت السماواتُ سبعًا طباقًا؟

الأبواب تتساءل من رجّة الانفجار:

ـ هل لديكم معاطفُ واقيةُ من الخلود؟

يصرخ جلجامش من وراء مياه الموت:

ـ هل يَمْلك الصغارُ مرهمًا ضدّ الدود، أو طوّافاتٍ مطاطيَّةً ضدَّ الغرق في الدم؟

تقول له البنتُ الصغيرة التي تساقط شعرُها بالعلاج الكيمياويّ:

ـ أتَدْري يا عم جلجامش أنَّهم انتهكوا براءتي باليورانيوم؟ أترى ما أَحْمل بيدي. لقد باعت أمي قميصَ أبي الميِّت لتشتري لي مرآةً تأخذني إلى المستقبل.

ـ الأشجار تمتصّ الليل بدل الأوكسجين، وتخبئ النجومَ في جذورها. السقوف تصير شفّافةً لفرط الوميض. السقوفُ تنسى وظيفتها فتتضامن معنا، ولا تدرك أنَّها المخوَّلةُ بالإجهاز علينا إذا داعبتْها قذيفةٌ لامعة. أين نهرب من سقوفٍ لا تدير اللّعبةَ كما يَنْبغي لبيوتٍ عزلاءَ إلاّ من النصوص؟

هوس الشرّ في غسق الجحيم الأميركي
هيروشيما، ملجأ العامريّة؟ رام الله وأرض البشر

ـ عند الانفجار العاشر يتصدّع جدار. ينهمر زجاجٌ. تنغلق الأرضُ، وتستوي وردة كالدهان. نفرّ ضاحكين لفرط الهلع. الروح تتهجّى السؤال بين الجدار المفطور وصدى الانفجار:

ـ هل تعرفون لماذ نَرِثُ الموتَ ولا نموت؟

لا أحد يُعنى بالإجابة، فكلنا نعلم أنّنا الوارثون!

سبعون وقتًا للقتل. خمسمائة غارة. مائة ألف فرصة للتخفُّف من الجسد والتحوُّلِ إلى هياكل من طباشير تنثّ البياضَ على أروقة الأمم. خمسون ألف اقتراح لمقابر عصريّة تَدْخل إلى دوراتنا الدمويّة فنَزْفر شاهداتٍ من رخامٍ وأكاليلَ من زنبقٍ مدمّى.

يقول الأميركيُّ الأشقر للأميركيِّ الأسود، وهو يتلمّس الجسدَ المدملج لصاروخٍ مهيَّأٍ للإطلاق من سفينةٍ في بحر العرب:

ـ القمرُ في المحاق. حسنًا سنضيء ليلهم بملايين الدولارات الحارقة. هل تكفي مائة صاروخ لليلة واحدة؟

ـ أظنُّها تكفي. أجل تكفي لإضاءة المدى بين درب التبانة ونهر الفرات.

ـ لعلّها تكفي. دع المتبقّي من القذائف لنزهةٍ تاليةٍ فوق برج بابل وبوّابات نينوى والقصر العبّاسي.

الآن، وفي كل آن، كان للزمن أن يبقى. تهزّ أميركا جديلةَ الهنديّ الأحمر وجلدَ رأسه المدبوغ على عصًا من الألكتروم. ثم تضع قدميْها على ظهر الصحراء و«لسان العرب.»

تقيم سرادقاتٍ ملكيّةً لقادة الموت، تَحْرسها قوافلُ من كائنات الرمال. وترسل قذائفَها على هوادجَ لها محرّكاتٌ إلكترونيّةٌ مركّبةٌ في رأس جملٍ من طراز پاتريوت متّجهة إلى بغداد.

ابنة الجيران يُغْمى على صباها في انفجارِ آخرِ الليل، فلا تقوم من ثلج جسدها. شظيّة صغيرة تنام في زهرة الجوريّ على صدرها. دعوها.. فعيناها مفتوحتان على بياض النهاية.

أَسْمعُ أثينا تنوح على الوارثين. الصواريخ الفاتكة ميراثُ ألف عامٍ من الفلسفة والديموقراطيّة. وأثينا تنوح على الوارثين. أين بيانات أرسطو؟ أين عباءة أفلاطون، وكأس سقراط الأخيرة؟

المدن السبع المقصوفة تَنْفرط في فضاء اللهب. زوايا البيوت تَنْغلق على عتماتها وتطوي الجدرانَ على كنوزنا، حيث خبّأنا ألواحَ المعرفة ونصوصَنا المخطوطةَ ورسائلَ الحبّ وبياناتِ الغد ولوائحَ الموتى وصورَ المهاجرين وتذكاراتِ الصبا. تَنْغلق الزوايا على وثائق وجودنا قبل أن تقع الواقعة.

العامريّة ضحكة اليورانيم

قبل يوم أو اثنين، ربما بالأمس في ١١ شباط ١٩٩١، حوّمت الطائراتُ الأميركيّةُ فوق حيّ العامريّة ـ حيث أقيم. حوّمتْ طوال النهار، ولم تُلْقِ قذائفَها. جحيم الطائرات يدنو من قمم النخل وأسطح البيوت ـ تدور الطائراتُ حينًا فوق الملجإ. يرونها من شارعنا، ومن باحة مسبح الرشيد، أو من سطح مدرسة سعد بن معاذ. تدور خطفًا، ثم تَخْتفي وتغيب. لكنّ الموت كان يتثاءب في القذائف المؤجّلة. تسير النساءُ والصغارُ في الموكب الليليّ في الطرقات المظلمة إلى ملجإ العامريّة، وهم يُضلّلن البردَ عن أجسادهم. لكنّ الرجفة تجري في الجوارح، لا من بردٍ بل من توقُّع الموتِ عند كل خطوة وهدير. القصفُ لمّا يبدأ بعدُ، ولكنّهم يصلون الملجأ. وعند الباب يودعون فكرةَ الموت على حافات الطريق، ينبذونها مع أعقاب السجائر وقشورِ البرتقال.

في الساعة العاشرة يُحْيون حفلَ عيد الميلاد لفتاة في الخامسة عشرة. يوقدون الشموعَ على كعكة العيد، وتوزّع الأمُّ قطعَ الحلوى، ويَعْزف فتًى جميلٌ على الأُورغ أغنية «طولي يا ليلة.» زغاريدُ ومخاوفُ وحدوسٌ. والأمّهات يَرْقبن البنات والأولادَ وهم يسكبون الضحكات في جوف الملجإ المضاءِ كأنّها الينابيعُ تسيل من أعالي الحياة.

تأتي الطائراتُ على متن الظلام، وبغدادُ موحشةٌ بلا كهرباء.



يخترق الصاروخ سقف الملجإ وينفجر، بادئًا فاجعة «العامريّة»

ويهبّ الموت، ويموت الموت، لكنّنا نقْدح شررَ الوجود من ضحكاتنا ولعبة الشطرنج. الحرّاسُ يدخلون قلعةَ الشطرنج مع الفتيان العاشقين. لدى بوّابة الملجإ، تنحني البنتُ على حيرة اللاعب الجميل، وتكشُ ملكَ الموت عن فتًى أيقظ فيها الفراديسَ، ثم تَمْتطي الفيلَ في بهجة العرس. وقبل أن تَمْضي إلى هناك، تُلقي إليّ بكتاب الألم.

تجيء الضواري

تجيء طائراتُ الضواري الأخيرة وتُطْلق في الساعة الرابعة فجرَ الثالث عشر من شباط ١٩٩١ صاروخًا يَنْفلق عن ثقبٍ ليزريٍّ لولبيٍّ يخترق سقفَ الملجإ، ليُحدث عصفًا هائلاً تَنْغلق بفعله أبوابُ الملجإ الفولاذيّةُ العملاقةُ. ويمرّ الصاروخُ الثاني من خلال الخرق الذي أحدثه الصاروخُ الأول، وينفجر بادئًا فاجعةَ العامريّة. يبتدئ جحيمٌ علامتُه «صُنِعَ في الولايات المتحدة» وجرى تسويقُه عبر المتاجر العالميّة والعربيّة. موت، جحيم، خراب، فناء، جثث وأشلاء، دمٌ وأعصاب، لحمٌ متناثر لأربعمائة شخص أو أزْيَدَ قليلاً (فقد مات عشراتُ الناجين بعد أيام). أجسادٌ احترقتْ وانقذفتْ متفجِّرةً لتلتصق بالجدران، ودرجةُ الحرارة بلغتْ آلافًا من الدرجات المئويّة. مصهرٌ نوويّ يغلي أذاب كلَّ شيء: أذاب الأسمنتَ والأجسادَ الصغيرة، وتفحمت الأخرى في المحرقة أو نضجتْ في المرجل الجحيميّ.

الموتُ كان متعجِّلاً وهو يَنْشر وجوهَه الكثيرة في زوايا الملجإ. فقد حدَّد بوصلةَ القصف وتوقيتَ الفاجعة، وعَقَد اتّفاقًا داميًا مع أميركا، ورَسَمَ لها ـ ومعها ـ شكلَ المحرقة، ونفَّذ عهده الوحشيَّ بالتمام. تحالَفَ الموتُ الميتُ مع القاتلِ الميتِ، واقتسما الزمن.

انخدع الموتُ بخطّته ذاتها. انخدع بها حتى آخر قطرة دم ولطخةِ نخاعٍ انفجر على جدران الملجإ.

انفرجَ الليلُ عن جهنّمٍ من ابتكارٍ أميركيّ، وانفجر الوقتُ، وتناثرت الثواني مع الدم. مات الزمن. في لحظةِ الحرق تضرّج الليلُ بالدهور العتيقة والكوارث الماضيات. لم تترطّب الأرضُ بالدم؛ فقد جفَّ كلُّ شيء، وتيبّس واسودَّ كلُّ جسدٍ، وتفتَّتتِ الأحداقُ، وتلطَّخ الوقتُ بالعار الدوليّ.

من العامريّة إلى رام الله

فاضت أرواحُ الضحايا نحو الأعالي. كنتُ أحلِّق معها. رأيتُ كلَّ شيء. رأيتُ البحيراتِ والريحَ تدوِّم حول المدن وتلفُّها بدوّامات من غبار وأشذاءِ برتقال. وكلّما ارتفعنا في فيوض أرواحنا السديميّة كنتُ أكتشف أعجوبةً جديدة. رأيتُ الظلمات الأميركيّة تزْحف على الكوكب الأرضيّ، بينما يتقدّم النهارُ على النصف الآخر. ثم شاهدتُ الطوفانَ والبراكينَ والحرائقَ. رأيتُ معهم في الفضاء العلويّ أرواحًا كثيرة تتفرّج على بؤس كوكبنا. رأينا ما رأينا، ثم أبْصرنا أطفالَ القدس يَجمعون الحجارةَ السجّيلَ من أنقاض الحضارة ويُلْقونها على قتلةٍ مدجَّجين بالخوف من سجّيل الأمل.

ثم رأينا أطفالاً يقومون بخفّة الرؤيا من صبرا وشاتيلا وقانا وتلّ الزعتر، والخليل. ونهض صفٌّ طويلٌ من البشر من رام الله، حتى ازدحمت السماءُ بأسراب الأرواح الراحلة إلى الأعالي وهم يُنْشدون المراثي للكوكب الرامي.

كنّا نطير والقذائفُ تلاحقنا، والصواريخُ العابرةُ القاراتِ تتْبع مسارَنا متوهِّمةً أنّنا نترك في الهواء أثرًا حراريًا يمكن أن تقتفيَه عقولُها الإلكترونيّة، فكانت تتهاوى في الفراغ وراءنا.

قام أطفالٌ من كل بلاد الشرق المهدورةِ الدم. لحق بنا أطفالٌ من كابول، وأطفالٌ من الشيشان، وأطفالٌ من تيمور الشرقيّة، حتى سدَّتْ جموعُ الأرواح أُفقَ الأرض. وتبعنا سربٌ صغارٌ من كشمير. واختلط اللّيلُ بالنهار، والشرقُ بالغرب، في أونة القيامة الطفوليّة.

كنّا نحدِّق من أعالي الحبور، ونرى الحروبَ تتقدَّم في الصحارى مثل الضواري العمياء. كنّا نرى الحمائم تفرّ إلينا وتَحْتمي بأرواحنا التي آلت إلى غمام.

هوس الشرّ في غسق الجحيم الأميركي

هيروشيما، ملجأ العامرية؟ رام الله وآخر البشر

مررنا فوق دلهي وكوالالامبور، ومضينا إلى نجمة القطب. ثم دفعتنا أمواجٌ خفيّةٌ نحو أقاصي الشمس، فرأينا بركان فوجي ياما... لا إنّها هيروشيما التي تحترق. استدرنا وعُدْنا إلى فضاءات بلادنا، وانحدرنا جنوبًا نحو بحر العرب الذي تعوم فيه البوارجُ الأميركيّةُ، وإحداها تَنْفث النيرانَ من ثغره في جانبها وقد توهمتْ وجودَ جنة عدن هاهنا، لكنّها بوغتتْ بجحيمات الثأر.

رأينا ما رأينا، ورأينا ما لم يحدثْ بعدُ. وكنّا نرى الأحداث تأتي من الغيب مكتملةً بالأسباب والخواتيم. فلم نشأ أن نفهم، لأنّنا لا نرى أن نكدِّرَ حبورَنا الروحيَّ ونحن نطفو فوق عالم الحروب والطوفان والحرائق.

الساعة لم تُخطئ

بل تنذرنا الساعاتُ بمخاطر قادمة. حروبُ الإبادة تتواصل، والقتلة الأبديُّون يَخْرقون مرايا الوقت إلى ذاكرتنا. والصغارُ يتكررون ويتكاثرون في الحياة والموت ما بين بغداد والقدس ورام اللّه وبيت لحم وبيت جالا وغزّة. مرايا الوجود تكرِّرهم في كل مدينة، مثلما تكرِّرهم غرغراتُ الموت. والساعةُ ما أخطأتْ أبدًا، إنّما هي تدقّ دقّتها المُنْذِرةَ لتوقظ مَنْ ينام على الخديعة. تُنْذره بما لم يَحْدثْ بعدُ لأيّامنا.

يمرّ صفٌّ من شباب معصوبي الأعين وقد وَشَمَ السجّانون الصهاينةُ على أذرعهم أرقامًا ووقّعوا تحتها باسم معلّمهم هتلر أو تلميذِه شارون، وساقوهم نحو السجن أو المحرقة.

يمرّون الآن في رام اللّه، وكأنّهم أسرةُ خرافة الهولوكوست. يُساقون إلى معتقل أوشفيتز: فالخُرافة صُنعتْ لتطبَّقَ على سواهم فيما بعد... والأسطورةُ انزاحت من أمكنة وأزمنة لتسيل في أمكنة وأزمنة أخرى.

المقاومون المرقومون يمرّون على الشاشات وقد رُبطتْ أيديهم وراء ظهورهم على طريقة أسرى غوانتانامو. في الجهة الأخرى من شاشات التلفزة يرجع الآخرون ممرِّغين جباهَهم في تراب التسويات، ويَصْرخ الأسرى المرقومون بأغنيات وَهُمْ معصوبو الأعين.

تؤنسن أميركا القتلَ، وتؤسلب مفهومَ الشرّ، وتؤقلم الإرهابَ، وتؤفغن العراقَ، وتطبِّع الجريمةَ، ويشْهر حكماءُ صهيون لفائفَ البروتوكولات منذرين العصرَ بتحقق الوصايا.

◆ ◆ ◆

خلاصةُ حديث الشرّ هي شرُّ ما يقال. وشرُّ ما يقال هو أنّ الشرّ شرقٌ يفيض من جهات الشمس ويشير إلى بداية تاريخ القهر مرةً أخرى رغم غسق النهايات الهيجليّة.

فهل نحن أشرارٌ بامتيازِ مقاومتِنا للفاشيَّة الجديدة التي تَعْتزم الترويجَ لديموقراطيّة الموت بالأسلحة النوويّة؟

إنّ أَمْرَكَةَ الأرض هي آخرُ مرحلةٍ أو طبعةٍ للفاشيَّة الديكتاتوريَّة التي لا تسمع سوى خشخشةِ الأكفان وحشرجةِ الموتى. إنّها نهايةُ تاريخ الأقطاب، وبدايةُ تاريخ المشروع الذي لا تاريخ له: مشروعِ صياغةِ العالم على وفق شهوةِ حذفِ كلِّ ثقافة وكلِّ فكرة وكلِّ مقاومة لينغمسَ العالمُ في سيولة دفّاقة دونما بوصلات أو نجمة قطب. هذه هي بداية الفوضى الشريرة ـ عندما تُلغى كلُّ النظريات، وتُصفَّى كلُّ المشاريع، من أجل طرح فكرة الدولة العظمى الواحدة المُخْضِعة للأمركة التي تَنْتحر مراتٍ ومراتٍ بحروبها وأوهامها عن خير مُطْلق تَنْتمي إليه دولُ الغرب وعن شرٍّ مطلقٍ تدين به دولُ الشرق وحاضناتُ الإسلام والقوميّات والمقاومة.

إنّ مقولة أحد صانعي الميديا الأميركان حول ضرورة أن تبقى أميركا في قمّة العالم يُكمِّلها قولٌ آخر عن أهميَّة اجتثاث كلّ نزعة قوميَّة باعتبارها عَرَضًا لمرضٍ نفسيٍّ يَنْبغي علاجُه بالجراحة، ليَنْدرجَ الجميعُ في مدى مركزيّةٍ تقاس بمعايير واحدة.

بغداد

لطفية الدليمي

روائيّة وقصّاصة ومبدعة عراقيّة.

أرقام الآداب

إعداد: ك.ش.

نسبة الميزانيّات العسكريّة لدول «محور الشرّ» مجتمعةً، إلى الميزانيّة العسكريّة للولايات المتحدة وحدها: ١ : ٤٨,٦

النسبة المئويّة من الصراعات الدوليّة الحاليّة التي تُشنّ بأسلحة أميركيّة: ٩٢٪

المبلغ التقديريّ الأدنى للأسلحة التي أرسلتها الولايات المتحدة عام ١٩٩٩ إلى دول تَنْتهك حقوقَ الإنسان انتهاكًا صارخًا: ٧,٦ بليون دولار

عدد منتهكي حقوق الإنسان الذين عُيِّنوا في مواقع عليا في الإدارة الأميركيّة بعد طرد أميركا من مفوضيّة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة: ٣

العدد التقريبيّ للإيرانيّين الذين قُتلوا على يد الشاه المدعوم من أميركا في عام ١٩٧٨ وحده: ٤٥,٠٠٠

العدد التقديريّ للمدنيّين الأميركيّين الذين قَتَلهم «إرهابيّون» أجانب منذ عام ١٩٦١: ٢٦٦١

العدد التقديريّ للمدنيّين الأفغان الذين قتلهم أميركيّون «يثأرون» لأحداث ١١ سبتمبر خلال ٥ شهور من قصف أفغانستان: ٣٦١٢

المبلغ الأدنى الذي دفعتْه الـ CIA لكلّ قائد عسكريّ إيرانيّ دعمها لتنفيذ انقلاب عام ١٩٥٣ ضد مصدِّق: ٥٠,٠٠٠$

نسبةُ العجز في الميزانيّة الإيرانيّة الذي تمّت تغطيتُه ببيع امتيازات لشركات نفطيّة أميركيّة وأوروبيّة عام ١٩٦٣، فساعد ذلك على ترسيخ حكومة الشاه: ٦٦٪

السنوات التي ضمن حكمُ الشاه خلالها الهيمنةَ الاقتصاديّة والعسكريّة الأميركيّة في الشرق الأوسط: ٢٥

الأيام التي احتُجز خلالها ٥٢ أميركيًّا في السفارة الأميركيّة عام ١٩٧٨ في طهران: ٤٤٤

المبلغ الذي قدّمته الـ CIA لوزير الدفاع الإيرانيّ لإبقاء الرهائن إلى ما بعد إجراء الانتخابات الرئاسيّة الأميركيّة عام ١٩٨٠: ٥٠٠,٠٠٠$

عدد الحروب التي خاضتها أميركا في كوريا قبل حلول الشيوعيّة فيها: ٢

عدد المدنيّين الكوريّين، من أصل ٣٠ مليون كوريّ، الذين قُتلوا بين عاميْ ١٩٥٠ و١٩٥٣، بسبب القصف الأميركيّ أساسًا: ٣ ملايين

عدد المآسي المماثلة لـ ١١ أيلول التي يمكن أن تساوي الخسائر الكوريّة البشريّة بين ١٩٥٠ و١٩٥٣ التي سبّبها القصف الأميركيّ أساسًا: ٧١٢٥

عدد الجنود الأميركيّين المتمركزين في كوريا الجنوبيّة عام ٢٠٠٢: ٣٧,٠٠٠

عدد السنوات التي بقيت فيها القوات الأميركيّة في كوريا خلافًا لمعاهدة هدنة عام ١٩٥٣: ٤٩

عدد السنوات بين تأميم العراق لنفطه واندراجه في اللائحة التي أعدّتها وزارة الخارجيّة الأميركيّة للدول الداعمة للإرهاب: صفر

عدد السنوات التي كشف فيها، قبل غزو الكويت، عن تورّط العراق ببناء رادع نوويّ دون أن يثير ذلك حفيظة الأميركيّين: ٣

عدد الشهور، قبل غزو الكويت، مَنَعَ المدّعي العامّ في أميركا أيَّ تحقيق في استخدام العراق للمعونات الماليّة الأميركيّة المخصّصة لشراء الغذاء، من أجل بناء ترسانته العسكريّة: ٦

النسبة المئويّة من النفط الأميركيّ الحاليّ القادم من العراق: ٢٥

المبلغ الذي تخصّصه الأمم المتحدة لكل فرد يوميًّا لتغطية جميع حاجات الشعب العراقي (الغذائيّة والطبيّة...): ٠,٣٧$

عدد المآسي المماثلة لـ ١١ أيلول التي يجب أن تحدث شهريًّا لتعادل عددَ الأطفال العراقيّين الذين يموتون شهريًّا بسبب العقوبات الأميركيّة: ٢,٢٥

نسبة الأطفال في العراق وفي كوريا الشماليّة الذين عانوا سوءَ التغذية آخر التسعينيّات: ٣٢٪ و٥٧٪

عدد البلدان التي وقّعتْ ميثاقًا للأمم المتحدة يُقرّ بحقّ الإنسان الأساسيّ في الطعام، ولم توقّعه أميركا: ١٣٩

نسبةُ ما تَصرفه الدانمرك على المساعدات الإنسانيّة للخارج، إلى ما تَصْرفه أميركا على مساعدات شبيهة: ١٠ : ١

عدد المرّات، منذ الحرب العالميّة الثانية، التي فَرضتْ فيها أميركا عقوبات اقتصاديّة من جانب واحد: ٩٢

عدد المواثيق أو الاتفاقيّات الدوليّة التي ألغتها أميركا عام ٢٠٠١ أو عدّتْها بائدة: ١٣

من بين ٣ قوى إقليميّة (السعودية وإيران والصين) «كان نيسكون وكيسنجر قد ساعداها على النمو» لكي «لا تجازف أميركا بتدخّلات في ما وراء البحار»، العددُ الذي مازال يؤدي هذا الدورَ اليومَ: ١

مصادر أرقام الآداب (ص ٩٧)

إعداد: ك.ش.

1 + 16) BBC, "Analysis of 'Axis of Evil' capabilities," Feb. 13, 2002, http://www.bbc.co.uk.

2+3) Federation of American Scientists, "Facts & Figures," http://www.fas.org.

4) **Al-Adab** Research: John Negroponte, Otto Reich, and Elliott Abrams.

5+18) Ramsey Clark, "Fire and Ice", International Action Center, Jan. 10, 2002, http://www.iacenter.org.

6) US Dept. of State, Office of the Historian, Bureau of Public Affairs, Oct. 31, 2001, http://www.fas.org.

7) Marc Herold, "Update to Appendix 4 - Daily Casualty Count of Afghan Civilians Killed in US Bombing Attacks, Oct. 7 - Present Day," Feb. 12, 2002, http://pubpages.unh.edu/~mwherold.

8) "CIA History of Operation TPAJAX," ed. Malcolm Byrne, National Security Archive, Nov. 29, 00, http://www.gwu.edu/~nsarchiv.

9) U.S. Library of Congress, "Country Study - Iran," http://lcweb2.loc.gov/frd/cs/irtoc.html.

10+14) Gilder Lehrman Institute of American History, http://www.historyonline.com.

11) **Al-Adab** Research

12) Robert Parry, "October Surprise: Finally, Time for the Truth," The Consortium, http://www.consortiumnews.com/archive/xfile9.html.

13) Zoltan Grossman, "From Wounded Knee to Afghanistan," Internet's Progressive Gateway, http://www.igc.org.

15) Robin Miller, "Washington's Own Love Affair with Terror," Znet, http://www.zmag.org.

17) John M. Swormy, "North Korea: The Land Americans Aren't Permitted to Know," in **Humanist**, May, 1999.

19+20) Russ Baker, "Iraqgate: The Big One That (Almost) Got Away; Who Chased it - and Who Didn't," **Columbia Journalism Review**, March/April, 1993.

21) Energy Information Administration, Department of Energy, http://www.eia.doe.gov.

22) Hadani Ditmars, "Iraqis Fear it Can Only Get Worse," **San Francisco Chronicle**, Feb. 14, 2002.

23) World Trade Center & Pentagon Memorial, http://www.WorldTradeCenterMemorial.com and Ramsey Clark, op.cit.

24) UNICEF, Nov. 1997, http://www.unicef.org and Nicholas Eberstadt, "Disparities in Socioeconomic Development in Divided Korea," **Asian Survey**, Berkeley: University of California Press, Nov. - Dec. 2000.

25) Committee on Economic, Social, and Cultural Rights, "The Right to Adequate Food (Art.11) : 12/05/99. E/C.12/1999/5, CESCR General comment 12," United Nation Human Rights Website, April 26 - May 14, 1999, http://www.unhchr.ch/tbs/doc.

26+28) Richard DuBoff, "Rogue Nation," Znet, Dec. 21, 2001, http://www.zmag.org.

27) National Association of Manufacturers, http://www.nam.org.

29) Gilner Lehrman Institute of American History, "Détente," http://www.gliah.uh.edu/database.

كتـاب الخبـرِ والحبِّ

• عبد الإله عبد الرزاق*

لقم تمّ كلّ شيء بهدوء. جاء بمُشترٍ وسيط من شارع المتنبّي. وقف الوسيط طويلاً أمام المكتبة الضخمة، وظلّ يتأمّل عناوين الكتب. كان يقرأ عناوينها بتروٍّ عنوانًا عنوانًا، يقلّب بعضَها، يَضْرِب على أغلفتها الجلديّة والكارتونيّة بإصبعه ضرباتٍ خاصةً كما لو أنّه يَفْحص آنيةً زجاجيّة. كوَّم بعضَها على الأرض وترك بعضَها في رفوفها دونما ترتيب، ولم يتوانَ في أنْ يدوس على بعضها بحذائه المُغْبَرّ ليعلو بجسمه قليلاً فتتهيّأ له رُؤيةُ الرفّ العلويّ. كان يعلم أنّه مايزال يدوس عليها، وكان يصل إليه شيء من كلمات التحذير من البائع. أصمّ أذنيْه، وأشاح بوجهه عنه كما لو كان الأمر لا يعنيه بشيء؛ فالمهمّ أن يتأكّد من سلامة البضاعة.

كلُّ ما في داخل نفسه كان قاحلاً يسكنه الهدوءُ. ذلك ما كان قد قرّره منذ لحظةٍ بدأ يفكّر ببيع مكتبته، لأنّ أيَّ محاولة لإظهار شيء من الحزن أو الألم سيُفْسد عليه هذه الصفقة، التي لا مفرّ الآن من الإقدام عليها: فذلك وحده هو الكفيل بأنْ يكون في بيته شيء من الطحين والسكّر والحليب والزيت. لقد باع الكثيرَ الفائضَ عن الحاجة وأبقى القليلَ في بادئ الأمر، ولكنّه بعد سنوات قليلة باع جزءًا ممّا هو في حاجة إليه. والآن لم يَعُد ثمّة ما يبيعُهُ غيرُ كتبه.

ليلةَ اتّخاذه هذا القرار لم يبتْ مؤرقًا كما هو شأنه لدى اتّخاذ القرارات الحاسمة. عَزَمَ فجأةً على أن يذهب صباحَ اليوم التّالي ليتّفق مع مشترٍ ما على بيع مكتبته. كان شعارُهُ: ينبغي لنا أن نعيش، وعند ذاك يمكن التعويض عن كل شيء. المهم أن نعيش!

رأى الوسيطُ كتابًا مقلوبًا على وجهه يجثم على كرسيّ مهترئ غيرَ بعيدٍ عن المكتبة. وكأنّ هذا الكتاب هو الذي يعنيه على قَدْر عنايته بالكتب الكثيرة التي عبثتْ بها يداه، فاندفع نحو الكرسيّ ليجيء بالكتاب المقلوب. لكنّ صاحب المكتبة وضع يده أمامه في إشارة منه أن يتوقّف ويتركَ الكتابَ وشأنَه. قال المشتري وهو يهزّ كتفيه: «أريد أن أراه فحسب.» رفع الكتابَ إليه، فاستطاع المشتري أن يقرأ بسرعة على غلافة الأول وبخطّ كوفيّ: **العراق في**... ولم يستطع قراءة باقي العنوان إذ إنّ صاحب المكتبة أعاد الكتاب بسرعة إلى الكرسيّ.

ظلّ يتأمّل الكتاب بشيء من الدهشة. كان كتابًا قديمًا جداً تمزّقتْ فيه الزوايا الأربعُ من غلافه الورقيّ غير السميك، وكانت أوراقه الصفر المفكّكة يَبْرز بعضُها من دَفّتيْه. كان المشتري يحدّق في وجه الرجل كأنّه ينتظر منه أن يقول له شيئًا عن هذا الكتاب الذي يَرفض التفريطَ به، بحيث رفض السماحَ له بتقليبه أو في الأقلّ قراءة عنوانه كاملاً. قال الرجل بهدوء كأنّه يخاطب نفسه:

«إنّه إرْث عزيز تركه لي والدي، يرحمه اللّه، قبل أكثر من خمسين سنة.»

هزّ الوسيط رأسه ليُعربَ عن عدم فهمه لِمَا سَمَعَ، واستدار إلى المكتبة ليعاود تقليبَ الكتب.

اتّفقا على السعر دون تأخير. قال الوسيط بسرور لا يخفى: «اترك كلَّ شيء في مكانه. سآتي بعد قليل بالمال وبسيارة.»

غادره بعد دقائق. وجد رجليه لا تطاوعانه. رفع كتابه وقعد على الكرسيّ، وعيناه على الكتب المبعثرة على الأرض بطريقة بدتْ له انتهاكًا لمشاعره هو فضلاً عن إهانةٍ للكتب نفسها ـ إذ لم يسبقْ له أن رآها بهذه الطريقة العدوانيّة أبدًا. بعض هذه الكتب انفتح غلافُه فاستقرتْ عليه كومةٌ أخرى من الكتب، وبعضُها الآخر انزلقَ تحت المكتبة، وبعضُها مايزال يحمل آثار أقدام مُتْربة وبقع ماءٍ من الكأس التي شرب منها المشتري قبل قليل. كان يتفحّصها بشيء من عدم الاهتمام؛ فقد أحسَّ أنّها لم تَعُدْ تعنيه في شيء لأنّها لم تَعُدْ ملْكًا له. غير أنّ تكوُّمها بهذا الشكل هو الذي ضايقه وكان يستعجل الوقت ليجيء صاحبُها ويحملَها كي يخلّصَها من هذا العذاب.

---

* ـ كاتب من العراق.

• عبد الإله عبد الرزاق

قال له وهو يُلقي بين يديه بكيس من النايلون: «كل رزمة بخمسة وعشرين ألفًا. تستطيع أن تعدَّها بهدوء ريثما ننقل الكتب.» كان معه سائقُ السيارة، واستطاعا بعد أقل من ساعة رَفْعَ الكتب وحمْلَ المكتبة الفارغة إلى السيارة. كانت يَدُه اليسرى على كيس النقود، ويدُه اليمنى تُمسك بكتابه بقوّة كأنّه يخشى أن تغفلَ عيناه عنه فيحملَه أحدُ هذين الرجلين كما حَمَلا أكوامَ الكتب إلى السيارة. وبوعي مقتول كان يقرّب الكتابَ من صدره، في الوقت الذي ارتختْ فيه أصابعُه على كيس النايلون فسقط في حجْرِه بإهمال. تركه على الكرسيّ وخرج إلى الباب الخارجيّ وهو يحمل كتابه إلى صدره. لوّح له المشتري بالتحيّة وعيناه تنظران إلى كتابه. شعر بحرارة نظراته تسقط على الكتب كما تسقط على يده. حين غادرته السيارةُ رأى رأسَ المشتري يطلّ منها وهو يومئ بإصبعه إلى صدره كما لو أنّه يومئ إلى الكتاب. وتراءى له ظلُّ ابتسامة ساخرةٍ مُشفقةٍ ترتسم على وجهه. واختفت السيارة بعد أن استدار من فرع جانبيّ من الشارع.

وضع الكتاب على الكرسيّ وحمل كيس النقود. دخل على زوجته في غرفتها. رمى أمامها بالكيس. نظرتْ إليه زوجتُه باهتمام. لم ترَ وجهه أكثر هدوءًا ممّا تراه الآن، خلافًا لما توقّعتْه. أشعرها ذلك بشيء من الاطمئنان. وضعتْ يدها على يده قبل أن تضعها على كيس النقود. حاولتْ أن تهيّئ على وجهها ابتسامةً ما. رأى في عينيها شبهَ دمعتين، واختلاجةً بطيئةً تَنْبض في شفتها السفلى كأنّها تقول له شيئًا: كلمةَ تشجيع، أو امتنانٍ، أو تعزية.

شغلتْه اهتماماتُ البيت والسعي إلى شراء حاجاته الضروريّة عن الاهتمام بكلّ شيء، حتى نسي كتابَه الذي تركه على الكرسيّ في الصالة. بعد يومين، وقد استقرّ كلُّ شيء في نفسه، راح ينظر بعين الرضى إلى كيس الطحين والسكّر وصفيحة الزيت والصابون وأكياس الحليب الصغيرة الملوّنة. تذكّر كتابه الذي نسيه على الكرسيّ. دُهِش حين لم يَرَه في مكانه. سأل زوجته وأولاده. أنكروا رؤيته وإنْ كانت زوجته قد أكّدت أنّها رأتْه قبل ليلتين في مكانه على الكرسيّ. مضَوا جميعًا يفتّشون البيت. تملّكه غيظٌ اكتظّتْ به نفسُهُ وجعله يلمّ قبضتَه كما لو أنّه يريد أن يَصْفع شيئًا ما وهو يدخل من باب ويخرج من آخر، متعثّرًا بقطع الأثاث القليل. لكنْ دونما فائدة. لقد بدا كتابه وكأنّه قد اختفى تمامًا وبطريقة يستحيل العثورُ عليها. سأل نفسه: «لماذا لا يكون المشتري قد اختلسه في غفلة منه؟» غير أنّه أسكت في نفسه هذا الوهمَ لأنّه مطمئنّ تمامًا إلى أنّ كتابه بقي على الكرسيّ مع كيس النقود عند خروجه وراء المشتري وسائق السيارة.

في كلّ ليلة حين يضع رأسه على الوسادة لينام، يقول لنفسه: «في الغد قد أعْثر على الكتاب.» إنّ اختفاءَه غير المعقول لا يمكن أنْ يغطّي حقيقة أنّه هنا موجود، في زاويةٍ ما، أو تحت شيء ما. لكنّه يعلم أنّه لم يعد ثمّةَ شيءٌ لم تعبث به يدُهُ أو يدُ زوجته وأولاده. غير أنّه يظلّ يكرّر «لا بُدّ أنْ أعثر عليه.»

لقد بدا الأمر كما لو أنّ يدًا خفيّةً أرادتْ أن تعبث بهم فأخفت الكتاب. وإلاّ فأين ذهب؟ ولِمَ لَمْ يعثر عليه أحد إلى الآن؟

عشر سنوات والرجلُ ـ العجوزُ الآن ـ يَحْلم بأنْ يجد كتابه. في هذه الليلة كان نَفَسُهُ يتقطّع وكان صدرُه ثقيلاً. وكانت زوجته إلى جانبه تجفّف نضْحَ عرقِ وجهِه وتُمْسك عن عينيها هطولَ دمعة. تَسْمع صوتَه المتقطّعَ إليها من بعيد. عيناها على شفتيه اللتين لا تتحرّكان. غير أنّها كانت تسمع صدى صوت ضعيف متقطّع يملأ كيانها وهو يقول: «إذا عثرتِ عليه فسلّميه لابني عليّ. وإلاّ فليبحثْ هو عنه. يجب أن تعثروا عليه.. يجب!»

بغداد

قصص قصيرة

فلسفةُ التَّداوُل

• الأزهر الصحراوي*

كان سيدي أحمد يدفن وجهه بين صفحتيْن من صفحات جريدة **القدس** بتاريخ ١٠ أفريل ٢٠٠٠. وفجأةً رمى بها على الأرض بحركة عصبيّة. همّ النّادلُ بإعادتها إليه، غير أنّه تراجع عن ذلك حين غمزه صاحبُ المقهى أن «أتركْه وشأنه.» كانت يدُه اليمنى التي قُطعتْ سبّابتُها في حرب ١٩٤٨ تبدو ككمّاشة وهي تُزيل القذى عن عينه اليسرى وتداعب شاربيْه المفتوليْن الأشيبيْن فتَلُوحُ عينُه اليمنى العوراء التي فقدها في تلك الحرب أشبهَ بحفرة مُعتّمة في جدار. غير أنّ رميه للجريدة لا يمكن أن يتعدّى احتمالين اثنيْن: فإمّا أنّه غضب من زيارة وفد الكنيست إلى موريتانيا، وهي زيارة تُوّجتْ بتشكيل جمعيّة برلمانيّة موريتانيّة ـ إسرائيليّة؛ وإمّا أنّه انزعج من أصوات الطبول التي كانت تَدُقّ في المدينة منذ ثلاثة أيّام معلنةً قدومَه.

فقد كان أنصارُه يجوبون الشّوارع هاشّين باشّين مُبشّرين بمجيئه، وكان هاتفُهم يَهْتف في الجموع قائلاً: «سيشرِّف مدينتَنا... سيجيء وحيدُ زمانه وفريدُ عصره... سيجيء الديموقراطيّ الأول والأخير...» وكانت اللاّفتات القماشيّة مُثبّتةً في الأشجار وأعمدة الكهرباء، وعليها اسمُه وبعضُ كلمات التّرحاب. وكانت جدرانُ المدينة مزدانةً بالملصقات الحائطيّة التي عليها صورتُه الأنيقة. وكانت النّسوة الجميلات يحفظن عن ظهر قلب بعضَ كلمات التّرحاب القصيرة التي تَقْطر وِدّاً ورقّةً وأنوثةً. أمّا النسوة الأقلّ جمالاً فكنّ منشغلات بإعداد البخور والتدرّب على الزّغاريد الأنيقة الصّافية. وأمّا الأطفال فكانوا منتظمين فِرَقًا فِرَقًا ومنهمكين في التدرب على ذلك النشيد القديم الحديث: «أَقْبَلَ البدرُ علينا،» غير أنّهم حرّفوه بعضَ التّحريف فاستبدلوا: «المبعوث فينا» بـ «الآتي إلينا.»

وعمومًا كانت تلك الأيّامُ الثلاثةُ كفيلةً بإعداد السكّان إعدادًا نفسيّاً وذهنيّاً وبدنيّاً لتقبّل الحدث الجَلل. فكان الناسُ ينضمّون طائعين إلى المواكب التي تجوب الشّوارع يوميّاً، فيهتفون باسمه، ويرقصون، وينظّمون الصفوفَ، ويلوّحون بقبضاتهم في الفضاء، ويُحرّضون الواقفين على الأرصفة على الانتماء إلى الجموع المتدافعة، ويَمْسحون العرقَ المتصبّب من جباههم ووجوههم. وما إنْ جاء اليوم المنشود حتّى قُدَّت المنصّةُ الكبيرة، وزُيِّنتْ بالورود والقرنفل والنّسرين، ووُضعتْ مضخّماتُ الصّوت بعناية دقيقة ليصل صوتُه بكلّ صفاء إلى كلّ الناس الذين توافدوا إلى ملعب كرة القدم، ونُصبتْ نحوه آلاتُ التّصوير الثّابتة والمتحرّكة، وحضر ممثّلون عن الصّحافة المكتوبة والمسموعة لتوثيق الحدث المهيب. كانت ساحة الملعب ومدارجُه غاصّةً بالحضور، حتى إنّ سيدي أحمد الذي لم يعثر على مكان شاغر جعل يُردّد مدهوشًا: «كل النّاس هنا! ألم يبق أحد في بيته؟» فاضطرّ إلى الوقوف مع الواقفين. ولعلّ الصدفة وحدها جعلتْه يقف قريبًا من صحفيّ وطالب من طلاّب الفلسفة. كان الناس ساكتين ينتظرون ويَعدّون الدّقائق عدّاً، وعيونُهم مركّزة على المنصّة الجميلة.

فجأةً صعد المنصّةَ أربعةُ رجال، أحدُهم يحمل بين يديْه حقيبةً سوداءَ كبيرة، والثّاني يحمل على كتفه حقيبةً بنيّةً كبيرة، والثّالث يتأبّط حافظةَ أوراقٍ صغيرة، أمّا الرابع فقد أخذ المِصْدَحَ وجعل يقول والنّاس خُشّع: «أيُّها الملأ الكريم. أيُّها الجمع الغفير. تسمعون اليوم محاضرة الشّيخ العلاّمة والحَبْر الفهّامة الأستاذ الدكتور... أستاذ الكرسيّ... الدكتور الزّائر... أيُّها الناس اسمعوا وعوا. إنّه رضع الدِّيموقراطيّة رضاعةً، وقد شرّق في أرض اللّه وغرّب ليشربها من نبعها الصّافي ويقطفها من منابتها الأولى...»

بدا الرّجل المُبجّل من على المنصّة أسمرَ البشرة طويلاً أصلع الرّأس، يرتدي نظّارات سوداء وعليه بذْلة سوداء. كان يبتسم ويُحرّك رأسه راضيًا عن الإطراء الذي كان المتكلّم يخلعه عليه. ثمّ أومأ المتكلّم برأسه إلى حامل الحقيبة البنيّة أن افتح الحقيبةَ، ففعل، ووضعها فوق المنصّة، وجعل الخطيبُ يقول: «أيُّها الإخوة الأعزاء. هذا وسام الحوار الديموقراطيّ ـ يَعرضه أمام الملإ ـ وقد أَحْرزه من مملكة النرويج. وهذا وسام الاستحقاق الديموقراطيّ أسنده إليه حاكمُ بوسطن. وهذا نيشانُ الكفاح الديموقراطيّ

* ـ كاتب من تونس.

• الأزهر الصحراوي

استحقّه من القائد الأعلى لعاصفة الصحراء...» وكان يُوسّمه بالأوسمة والنّياشين حتّى كاد الرّجل ينهار بفعل الثّقل. ثمّ أومأ إلى حامل الحقيبة السوداء أن أفتح الحقيبة واجعلْها على المنصّة، ففعل، فجعل يُخرج الكتبَ ويرفعها ليُشاهدها النّاس وهو يقول: «هذا كتاب **الديموقراطيّة في العالم الثالث**. وهذا **ديموقراطيّة الثورة أم ثورة الدّيموقراطيّة**؟ وهذا **موقف الحجّاج بن يوسف من الدّيموقراطيّة**. وهذا **مائة نصيحة لتعلّم الديموقراطيّة**.» علت موجةُ تصفيق وهتاف. فرفع الخطيب صوته على أثرها قائلاً: «أيُّها النّاس، أيُّها النّاس. لم تبق إلاّ محاضرة دكتور الدكاترة وشيخ الشيوخ، حاصدِ الأوسمة، ومُصنِّفِ هذه التّصانيف، ومؤلّفِ هذه التآليف. وقد حَدّد مداخلتَه بنصف ساعة، وخَصّص حضرتُه ثلاثَ ساعاتٍ للمناقشة والإجابة عن الأسئلة المحيِّرة والقضايا الغامضة. أمّا عنوانُ المحاضرة فهو فلسفة التّداول الدّيموقراطيّ. ولم يبقَ لي إلاّ أن أفسح المجالَ للأستاذ الدكتور...»

تناول الديموقراطيّ المصْدحَ فداعبه بأنامله فتجاوبتْ أصداؤه في الأرجاء، وهمس بصوت ناعم مُخَنَّث قد عَلته لكنةٌ افرنجيّة: «مساء الخير...» فردّد الجمع الغفير: «مساء الخير...» ساد بعضُ الصّمت ثُمّ انبرى يقول: «نحن أربعةُ مسافرين، ولنا جحش واحد، والمسافة التي سنقطعها تقدّر بأربعين ألف متر، فيجب أن يركب كلُّ واحد مسافةَ عشرة آلاف متر. هذه هي فلسفة التّداول الديموقراطيّ.» إنفلتت بعضُ الضّحكات العفويّة. واصل يقول: «إنّ الخليفة عمر بن الخطّاب عادل، لكنّه لا يؤمنُ بفلسفة التّداول على الحكم، فسعى النّاس إلى قتله من أجل هذا المبدإ...» تعالت بعضُ القهقهات والتعليقات السّاخرة. إحمرّت عيناه وغلُظَ صوته واحتدّ، وراحت قبضتُه تدقّ المنصّة دقّاً وهو يقول: «إنّ الدّيموقراطيّة هي العصا الغليظة. فلا ديموقراطيّة لأعداء الديموقراطيّة. إنّي أرى رؤوسًا أينعتْ. اقتلوا أعداءكم واغزوهم قبل أن يغزوكم. إنّ هذا لا يُفهم إلاّ بفهم الماديّة التاريخيّة وتحديد مسألة الهويّة وصراع الإمبرياليّات. وإنّي ـ والقولُ لي ـ قد مَزَجتُ بين الديموقراطيّة البرجوازيّة وديكتاتوريّة البروليتاريا، فيجب أن نجعل من القمع أشدّ قمعًا بأن...»

تجاوز المحاضرُ الوقتَ بساعتين دون أن يتوقّف عن الكلام. وصعدتْ زوجةُ أحد أنصاره إلى المنصّة وجعلت تُجفّف وجهَه وصلعتَه بمنشفة. وأخذ النّاس يُغادرون المكان بأعداد كبيرة، ذاهلين منكسرين. كان المحاضر يَخْطب قائلاً: «واللّه، لولا الخوف والحياء لقبّلتُها... إنّ الديموقراطيّة الأخلاقيّة هي أن تُقَبِّلَها بين الرّصافة والجسر، وأن تَسْقني خمرًا وتقول لي هي الخمر، ولا تسقني كأسَ الحياة بذلّة...»

اشتعلت الأضواءُ الكاشفة في الملعب، وجعل النّاسُ يعودون إلى بيوتهم، ولم تبق إلاّ فئة قليلة لا تتجاوز العشرة وقد أحاطوا بسيدي أحمد والصُّحفي والطّالب وهم يصرخون مطالبين بالنّقاش وإبداء الرّأي. غير أنّه واصل يقول: «سأبادلكم أدبًا بأدب... إنّ المصْدح معي، والنّاس معي، وصوتي سيبلغ كلّ أرجاء الأرض. لن أناولكم الكلمة يا أعداء الديموقراطيّة...»

مضت أربعُ ساعات وهو يخطب في النّاس، ومضت على سيدي أحمد وجماعته ساعتان ونصف وهم يُطالبون بالنّقاش والحوار وإبداء الرّأي قائلين: «ناولْنا الكلمةَ يا عدوّ الديموقراطيّة...»

فجأة انقطع النّورُ الكهربائيّ، فغرق الجميع في ظُلمة حالكة، وساد صمت نظيف.

تونس

الحفلة

• منار إدريس*

«نحتاجك غدًا الساعة الثانية عشرة ظهرًا. حمْل محْرز. فيه رزقة جيدة. اتّفقنا؟ الساعة الثانية عشرة في الساحة. سلام.» ربّت على كتفه وانصرف.

«هيه. شغلة محرزة. يعني كم؟! مئة ليرة؟ مئتان؟ يعني ثمن الخبز والبصل؟ تفه! ولكن الحمد للّه على كل حال. يعني يا علي، ما الذي تَقْدر عليه ولم تفعله؟ أنت في آخر المطاف عتّال، شيّال، كل رأسمالك هو ظهرك... وكيس خيش.»

اقترب من واجهة محلّ للملبوسات، ابتسم عندما رأى السعر. مضى في الشارع المضاء بالمصابيح وأضواء المحلات. نظر إلى الناس. رجال ونساء، شباب وبنات، كلٌّ منهم لديه ما يشغله: عائلة، حبيب، أو مجرّد أمل. رأى رجلاً في متوسط العمر، له كرش خفيفة وصلعة خفيفة؛ ربّما كان موظّفًا، وربّما كان راتبه خفيفًا أيضًا. لا بدّ أن يشتري لابنته بنطالاً ما؛ عيب لقد أصبحتْ في الجامعة.

طفل يمسك بقوّة بيد أمّه حتى لا يأخذه الغريب ويمضي. حبيبة تمرّ بسرعة متجهّمة: هكذا الأصول. تسمع كلمةَ غزلٍ من هنا، وكلمة من هناك، وتمضي.

كانت الحركة في السوق نشطة. المحلات ملأى بالناس. الهواء عليل. الطقس دافئ. الناس تمشي وتبتسم.

أخيرًا وصل إلى بيته... أو بالأحرى إلى غرفته؛ فالبيت أحيانًا يكون أكبر من ساكنيه.

«يومًا ما ستُفْرج.» نظر إلى صورتها. ابتسم. جميلة. بريئة. عيناها خضراوان واسعتان. فمها صغير ومبتسم. شعرها الأشقر متهدّل على كتفيها كأميرة نائمة. من عينيها ترى روحها، حنونةً كمطر نيسان يحيي قلبه. رائحة الورد تدخل أنفه. خلع ثيابه. استلقى على سريره. كان حقًّا يشعر بالفرح.

في صباح اليوم التالي، وقف أمام المرآة. لاحظ ذقنه النابتة. ارتدى قبعة الصوف الزرقاء وخرج.

الزمن لايزال يتحرك. أناس يتحرّكون، وآخرون يتوقّفون، والباقي يموت. طلاّب يذهبون إلى مدارسهم. موظّفون يرتدون بذلات رثّة. سيّارات فخمة تسير حولهم وتمضي، وحياتهم تسير وراءهم وتمضي.

ـ حمْل بيانو. شغل جيّد، أجر كبير.

ـ لا بأس. إلى أين؟

ـ قاعة الاحتفالات في...

ـ كم رجل معنا؟

ـ ثلاثة، وأنا وأنت.

عندما رأى البيانو، توقّفت الدهشةُ أمامه. بيانو كبير أسود مزركش، له ثلاثُ أرجل، يَرْبض أمامه كملكٍ متوَّج. حملوه برفق. وضعوه بالشاحنة، وانطلقوا.

في القاعة استقبلهم رجلٌ له لحيةٌ صغيرة، وشعر أبيض طويل. يضع نظّارات صغيرة، ويتكلّم بما لم يفهمه. ولكنْ يبدو أنّه إنسان طيّب. يرافقه رجل سمين، وجهُه مدوّر، وفي يده عدّة خواتم ذهبيّة لمّاعة. كان الرجل السمين يُصدر أوامره هنا وهناك: «احملوه ببطء. بهدوء. هذا بيانو، لا كيس بطاطا.»

---

* ـ كاتب شابّ من سوريا.

• مــــنـــــار إدريـــــس

عندما وضعوا الملك على الأرض، اقترب الرجلُ ذو الشعر الأبيض منه، فداعب قطعه البيضاء والسوداء، وعاد للتحدّث مع الرجل السمين بكلام لم يفهمه. خلع طاقيَّته الصوفيَّة الزرقاء. أمسكها بيديه، عصرها، ودنا منهما.

ـ أستاذ، يعني يمكن إذا سمحت، هل ستقيمون حفلة عزف؟

نظر إليه الرجلُ السمين كأنَّه ينظر إلى حشرة:

ـ وما شأنك أنت؟!

ـ يعني أستاذ، ممكن لو تكرّمت أن تعطيني بطاقتين. وسأدفع ثمنهما. يعني أنا أحب الموسيقى وأريد... أريد أن أحضر الحفلة.

كان الرجل السمين ينظر إليه وكأنَّه لا يصدِّق ما يسمعه. كانت عيناه تقولان: «أنت تسمع الموسيقى يا حثالة؟!»

اقترب الرجل ذو الشعر الأبيض. تكلَّم مع الرجل السمين. هزّ رأسه. ابتسم. مدّ يده إلى جيب معطفه. أخرج منه بطاقتيْن وأعطاه إياهما.

ـ يقول إنَّه سينتظرك.

نظر إلى الرجل ذي الشعر الأبيض. ابتسم له. شكره بانحناءة. لم يصدِّق عندما رأى البطاقتين بين يديه. قلَّبهما. قرأهما. كاد أن يقبِّلهما. أسرع إلى أول هاتف وجده أمامه. «ألو، سلمى؟ هل ترافقيني إلى حفلة عزف؟ حسنًا. سأنتظرك في الساعة السادسة في الساحة.»

في الساعة السادسة كانت هناك: جميلةً كأنَّها الحياة، دافئةً كأنَّها شمس، خضراءَ كأنَّها بستان، شقراء كأنَّها ملاك، حبيبةً كأنَّها حبيبة.

ابتسم. كان لونُ السماء مختلفًا. سار وقد أمسكتْ بكوعه. شاهدا الناسَ كلَّهم سعداء. حتى الطفل الرثّ الثياب، المشعّث الشعر، الذي ألحَّ عليهم أن يشتريا منه علكةً كان سعيدًا.

سألتْه وهما يسيران: كيف العمل؟

ـ لا بأس. قريبًا سأشتري غرفة النوم، وربما كنبةً أيضًا.

احمرّ وجهها وداعب النسيمُ وجنتيْها. رأى بقلبه الفراشاتِ تطير في مساحات عينيها الخضراويْن.

ـ هل تُجْهد نفسَكَ في العمل؟

ـ يعني... حتى أتزوّج بسرعة.

ـ انتبهْ على نفسك.

أمام صالة العزف، وقف أناسٌ ينتظرون. كان الجوّ عبقًا بروائح مختلفة: عطور، رائحة أدوات زينة. لكنّ رائحة القلوب كانت غائبة.

كانت هناك سيداتٌ كثيرات. أجسادٌ كثيرة. ثرثرةٌ كثيرة. شبابٌ وشاباتٌ، الله يعلم من أين أتوا. ربّات بيوت واسعة، فيها غرف واسعة، ومطبخ واسع، وخادمٌ أو خادمةٌ. دخلوا إلى الصالة، جلسوا على مقاعدهم. كان البيانو في منتصف المنصّة، جليلاً مهيبًا.

قال لها: «أنا والشباب حملناه إلى هنا، أليس جميلاً؟»

وأخيرًا ظهر الرجل ذو الشعر الأبيض. غنّى للجمهور. صفّقا له بشدّة. «هو الذي أعطاني البطاقتيْن، رجل طيب. بروفيسور.»

جلس الرجل ذو الشعر الأبيض على كرسيّه وبدأ العزف. خرج النغم هادئًا ناعمًا، انسابت معه ذكريات قديمة. أحسّ أنّ النغم يدور حول نفسه كفراشة تدور حول زهرة، ثم أصبح أقوى وأسرع. أحسّ به عميقًا كالبحر في عينيْها. وما لبث النغم أن أوصله إلى الشاطئ، وعاد هادئًا كليلة صيف.

الألم القديم المدفون في قلبه أحسّ به يَبْعث فرحًا غامرًا يحيط به. أغمض عينيْه. رأى قلبه بستانًا فيه شمس صغيرة تبتسم لهما، وكوخٌ جميل صغير يعيشان فيه مع طفل صغير، ذي شعر أشقر وعينين خضراوين كأمّه، وساعدين فولاذيّيْن وظهرٍ كالصخر مثل أبيه. ورأى قرب الكوخ جدولاً صغيرًا، وحوله أشجار كثيرة: كرز، خوخ، تفاح، والطفل يلعب ويركض وصراخُه يملأ المكان.

أحسّ يدها في يده. أمسك بيدها وقرّبها إلى وجهه وقبّلها.

استمرّ العزف رقيقًا وعذبًا، إلى أن توقف العجوزُ ذو الشعر الأبيض، وانحنى للناس. حينها أدرك أنّ النغم توقّف. والحلم توقّف. ولكنّه صفق بحرارة شديدة. رأى العجوز ينظر إليه ويبتسم، وما لبث أن غادر المنصّة.

في الطريق الفارغ كانا يسيران، وكلٌّ منهما يحمل قطعة من البوظة. كانا يضحكان من طريقة أكلهما. أخرجتْ من محفظتها منديلاً مسحتْ به فمه. أحسّ بأناملها خلف المنديل تتحرك على فمه.

ـ كانت أمسية جميلة، أليس كذلك؟!

ـ أجل، جميلة.

ـ هل ستذهبين إلى العمل غدًا؟

ـ نعم.

ـ لن أراكِ إلاّ يوم الخميس المقبل.. أتعرفين؟ سأشتاق إليك.

نظرتْ إليه. حدّقتْ في عينيْه لأول مرّة.

ـ وأنا سأشتاق إليك.

في اليوم التالي ارتدى بنطالَ العمل، وقميصَ العمل، وطاقيةَ العمل الصوفيّة الزرقاء. وعندما رآه أبو محمد في الساحة هتف بصوت عالٍ:

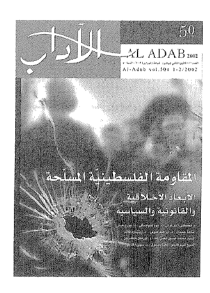
ـ نحتاجك اليوم. حمْل محرز. فيه رزقة جيّدة.

وربّت على كتفه، ومضيا.

دمشق

صقر أبو فخر*

لم نقرأ مثلَه منذ اندلاع الانتفاضة الثانية



لعلّني لا أجازف في القول البتّة إنّ الملفّ الذي أعدّه كلٌّ من سماح إدريس وعمر البرغوثي، ونشرتْه مجلةُ الآداب في عددها المزدوج (كانون الثاني ـ شباط/يناير ـ فبراير ٢٠٠٢) ربما كان من أفضل المساهمات الفكريّة في الجدال السياسيّ الدائر اليومَ على الانتفاضة الفلسطينيّة ومستقبلها ووعودِها الخلاّبة. وربما لا أبالغ في الكلام أيضًا إذا قلتُ إنّنا لم نقرأْ، منذ اندلاع الانتفاضة في ٢٠٠٠/٩/٢٨ حتى اليوم، تحليلاتٍ ووجهاتِ نظر ذاتَ إحاطةٍ وشمول، مثلما قرأنا في هذا الملفّ المتشعّب والمتكامل معًا. وقد تابعنا، بالتأكيد، الكثيرَ من المقالات والدراسات المهمّة هنا وهناك، ورَصَدْنا، بشغف، آراءَ بعض الكتّاب اللامعين في هذه المجلّة أو تلك؛ غير أنّ الآداب كانت، من بين جميع رصيفاتها، الوحيدةَ التي سارعتْ إلى تدشين هذا الجهد النقديّ الثاقب الذي يتمثّل، أكثرَ ما يتمثّل، في صوغ اثنيْن وثلاثين سؤالاً مبتكرًا في الأبعاد الثلاثة للكفاح المسلّح الفلسطينيّ: البعد الأخلاقيّ، والبعد القانونيّ، والبعد السياسيّ. وهذه الأسئلة، في حدّ ذاتها، شائقةٌ وشديدةُ الأهميّة معًا، وهي تَحُوط معظمَ المشكلات الشائكة التي تواجهها الحركةُ الوطنيّةُ الفلسطينيّةُ اليوم.

إنّ هذه الأسئلة من شأنها، بالفعل، أن تَفْتح بابَ المبارزة في هذا الحقل من المعرفة، مع ما تعنيه كلمةُ «مبارزة» من شجاعةٍ فكريّةٍ ونزاهةٍ نقديّةٍ ورفْعةٍ في السجال والمحاججة. لكنّ هذه الأسئلة نفسَها قد تَفْتح، في الوقت ذاته، صندوقَ پاندورا في ما لو جَنَحَ الحوارُ إلى الغوغائيّة التي طالما اتّسمتْ بها آراءُ بعض التيّارات السلفيّة الصاعدة، أو جَنَحَ إلى الخطابيّة التي ما فتئتْ بعضُ الشِّيَع القوميّةِ المهزومة ممسكةً بها فلا تحيد عن مفرداتها أو تتبدّل. ومهما يكن الأمر، فهذا الملفّ يضع بين أيدينا، إحصائيّاً، آراءَ أحد عشر كاتبًا (ثمانية من العرب ـ لبنانيّان وستة فلسطينيّين، وثلاثة من الأميركيّين). لكنّه لا يتضمّن، في الحقيقة، ثمانيةَ آراءٍ عربيّة بحساب المطابقة مع عدد المشاركين، بل خمسة آراءٍ فقط بحسب التصنيف السياسيّ. فثمّة وجهةُ نظر يساريّة (بالمعنى الضيّق جداً لكلمة «يسار» تبعًا لمفهومها الراهن في الواقع الفلسطينيّ) عبّر عنها كلٌّ من عصام مخّول وسهيل الناطور؛ ووجهةُ نظر إسلاميّة استخلصها كلٌّ من السيّد محمد حسين فضل الله وأسامة حمدان ونعيم قاسم؛ ووجهةُ نظرٍ قوميّةٍ تقدّميّة تستند إلى تجربة عميقة

* ـ عضو في هيئة تحرير **مجلة الدراسات الفلسطينيّة**، وكاتبٌ في جريدة **السفير**.

وخبرة نضاليَّة ضاربة في التاريخ المعاصر للثورة الفلسطينيَّة عبَّر عنها الدكتور جورج حبش؛ ووجهةُ نظر وطنيَّة ليبراليَّة مع ميلٍ إلى اليسار عبَّر عنها مصطفى البرغوثي؛ وآراء قوميَّة تقليديَّة مع ميل إلى الشعبويَّة تكلَّم فيها إبراهيم علّوش.

ملاحظات أولى: بين الرسوخ المبدئيّ والسياسات المتغيِّرة

لفتني في الملفّ أنَّ الأسئلة أعمقُ بكثير من بعض الإجابات. وأكثرُ من هذا، فقد راعني الفارقُ الكبيرُ جداً في المستوى النقديّ وفي طريقة عرض الأفكار بين أجوبة الأميركيِّين وأجوبةِ بعض الكتّاب العرب. فريتشارد فالك، على سبيل المثال، يقاربُ موضوعَه بتفكير منهجيّ وبدقّة علميَّة وبمستوًى رفيع من المجادلة النقديَّة، بينما الإجاباتُ العربيَّةُ ـ في معظمها ـ ما انفكَّتْ تتجرَّد للقضيَّة الفلسطينيَّة بعباراتٍ بدهيَّة لا تضيف شيئًا إلى معرفة تفصيلات الواقع الملتبس والمتشابك؛ حتى إنَّ البعض تصدَّى للإجابة عن أحد الجوانب وهو لا يمتلك الحدَّ الأدنى من المعرفة به. لذا احتدمتْ بعضُ الإجابات بعبارات سياسيَّة عامَّة وفقيرة بلا مشاكلة نقديَّة مع الأسئلة المعروضة، على طريقة: «لا تفريق بين المدنيّ والعسكريّ في إسرائيل» و«الإعلام والرأي العامّ لا يهمّنا البتَّة» و«لا سلام للمدنيِّين الإسرائيليِّين بوجود الاحتلال وباستمرار قتل المدنيِّين الفلسطينيِّين» (سهيل الناطور) أو «نحن لا نعوِّل كثيرًا على خلافات اليمين واليسار في إسرائيل» (نعيم قاسم). لكنْ ما راعني، حقّاً، هو استسهال الكلام على المدنيِّين الإسرائيليِّين بطريقة تَسْتحلب شهوةَ الدم كالقول: «إنَّ الأفراد اليهود الموجودين في فلسطين اليوم أعداء للمجتمع العربيّ حتى لو ادَّعوا أنَّهم يساريُّون أو إنسانيُّو النزعة أو مؤيِّدون لحقوق الشعب الفلسطينيّ» (إبراهيم علّوش). وبحسب ما أرى فإنَّ فكرة «المسؤوليَّة الجماعيَّة» هي فكرة فاشيَّة بامتياز، لَفَظَها الفلسطينيُّون ـ إلاَّ القليل منهم ـ منذ فترة طويلة. فإذا كان الإسرائيليُّون قَتَلَة، فإنَّ الفلسطينيِّين مقاتلون، وطرائقُهم في القتال تخالف ـ بل يجب أن تخالف على طول الخطّ ـ طرائقَ الإسرائيليِّين الهمجيَّة؛ ولا نَحْتاج في هذا الشأن إلى تفصيل. ثمَّ إنَّ الكثير من الإسرائيليِّين اليساريِّين أو غيرهم من مؤيِّدي حقوق الشعب الفلسطينيّ، حتى لو سَكَنوا الأراضي الفلسطينيَّة، لهذا السبب أو ذاك، هم أرفعُ مقامًا من بعض العرب الناعقين يومياً بشعارات المقاومة ومواجهة التطبيع، والذين يَخْدمون، في الوقت نفسه، النظمَ الديكتاتوريَّةَ العربيَّةَ.

هؤلاء العرب هم، فضلاً عن خدمتهم السلاطينَ والعَسَسَ وحرّاسَ نواويسهم، فاشيُّون؛ وإنْ وصلوا إلى السلطة قَتَّلوا شعوبَهم تقتيلاً. ولا أجد وجهًا للمفاضلة قطّ بين هذا الرهط من المثقفين العرب، وشخصيَّاتٍ يهوديَّة من طراز أميرة هاس وسيمون بيتون وشولاميت ألوني وليئة تسيمل وفيليتسيا لانغر وإيهود أديف ورامي ليفنه وأوري أفنيري وأوري نير وإسرائيل شاحاك وإيلاّ شوحاط. فهذه الأسماء أَفْنَتْ حياتَها دفاعًا عن الفلسطينيِّين، وأمضى بعضُها أعوامًا في السجون بتهمة مقارعة الصهيونيَّة، وألجأ الصهيونيُّون عددًا منها إلى مغادرة فلسطين.

والحقيقة أنَّني دهشتُ، قليلاً، لبعض العبارات الواردة في جواب السيِّد محمد حسين فضل اللَّه مثل قوله: «يَصْعب جداً أن نجد امرأةً في الكيان الصهيونيّ أو المستوطَنات لا تمثِّل حالةً عسكريَّة.» إنَّ هذه العبارة تُشْبه، في بعض جوانبها، الكلامَ الشائعَ في الأفواه والسائرَ على الألسنة، والذي يَعْتقد أنْ لا مدنيِّين في إسرائيل مادام كلُّ فرد منها يَخْدم في الجيش؛ فالإسرائيليّ بحسب هذا الكلام مرصود، منذ ولادته، لهذه الخدمة، وسيبقى عسكرياً حتى بعد تسريحه. إنَّ هذا الكلام يلائم التفكيرَ الصهيونيّ تمامًا. فالصهيونيُّون يقولون الأمرَ نفسَه عن السوريّ مثلاً: ليس ثمَّة مدنيّ في سورية مادام أيُّ مواطن فيها يَخْدم في جيش بلده؛ والفتى في سورية يتدرّب في المدارس والجامعات؛ والشابُّ هو عسكريٌّ بالضرورة؛ والكهل هو احتياطٌ بالفعل.

مهما يكن الأمرُ، فإنَّ إجابات العرب كانت، في بعض جوانبها، نوعًا من البدهيَّات التي لا تفيد شيئًا في السياسة، بل ربّما تكون لها فائدةٌ في المدارس فقط. فالمبادئ العامَّة والمواقف المبدئيَّة تريح الضميرَ، ولعلَّ فيها أهميَّةً ثقافيَّةً أو دلالاتٍ أخلاقيَّةً، لكنَّها لا تقدِّم شيئًا في العمليَّة السياسيَّة ولا تؤخِّر. ومن أسهل الأمور على المرء أن يتمترس وراء مواقف أوَّليَّة أو مبادئ مجرَّدة ولا يحيد عنها حتى لا تتلوَّثَ مواقفُه أو مواقعُه بالسياسات المتغيِّرة. غير أنَّ الكائن المبدئيّ لن يكون، في المحصِّلة، أكثرَ من راويةٍ للوقائع وللتاريخ وأحداثه.

قصارى القول إنَّ السياسة، بما هي فعلٌ مباشرٌ، هي الأساسُ في أيّ حركة للتغيير؛ وهي فنُّ معرفة الحقائق، وفنُّ اجتراح البدائل، وفنُّ الوصول إلى الأهداف، لا فنُّ المواعظ. ففي حلقات البحث الأكاديميَّة ربما يكون النقاشُ في المبادئ المجرَّدة أمرًا مقبولاً أو جديرًا بالتأمُّل، لكنْ حينما يتعلَّق الأمرُ بمصير الشعوب التي تتعرَّض في كلّ يوم للأذى وتتطلّع إلى خلاصها، يصبح من

الضروريّ أن يفكّر المرءُ سياسيّاً، أيْ أن يفكّرَ بمسؤوليّة وبصيرة، لا في المبادئ وحدها، بل في التبعات الناجمة عن اتّخاذ هذا القرار أو ذاك أيضًا.

فنُّ التفكير

إنّ قراءة نصوص نورمَن فِنْكلستين وريتشارد فالك ونوم تشومسكي تزوّدنا، فضلاً عن المتعة المعرفيّة، بطرازٍ رفيع من فنّ التفكير. واللافت في أجوبة هؤلاء مدى الاهتمام بالتفصيلات الكثيرة والجوانبِ الغامضة من الكفاح المسلّح الفلسطينيّ؛ وهو ما يدلّ على الحِرْفيّة العالية والتمكُّن المنهجيّ. وفي أيّ حال، فإنّ أفضل ما تزوّدنا به آراءُ فِنْكلستين وتشومسكي وفالك هو حثُّ العقل العربيّ النقديّ على التفكير فيها، وتقليبِ وجوهها، وتمرينِ الذهنيّة العربيّة على مبدإ إمعان النظر في آراء الآخر مهما تكن هذه الآراءُ مخالِفةً لما استقرّت عليه الذهنيّةُ العربيّةُ، ثم رسم خطط المواجهة، لا تطبيق العادة العربيّة المعهودة، أيْ إدارة الظَهر. وسيَمطّ الكثيرون شفاهَهم، بالتأكيد، حينما يقرأون آراء تشومسكي في الكفاح المسلّح الفلسطينيّ. فهذا الكاتبُ المثيرُ للسجال كان أحدَ المصادر الحاسمة للمثقفين العرب حينما يتصدّوْن لدحض الأفكار الصهيونيّة، أو لإدانة إسرائيل وسياساتها في فلسطين. وهنا، في مجلة الآداب، سيتعرّف القارئُ أكثرَ على تشومسكي، الإنسانيِّ النزعة، وكأنّه من يسارِ حزب العمل؛ فآراؤه السياسيّة في فلسطين تَظْهر كأنّها يمينيّةٌ مقارنةً بآرائه الجذريّة في الإمبرياليّة والديموقراطيّة والغرب. ثم إنّه لا يتردّد في الإفصاح عن هذه الآراء كالتالي:

المزارع الذي يَعْمل في الحقل، والمرءُ الذي يتبضّع في الشارع، والطفلُ الراجع من مدرسته إلى بيته، كلُّ هؤلاء مدنيُّون حتى لو كان المزارعُ يَمْلك بندقيةً ويعيش على أرض محتلّة؛ إنّ قصف باص يُقِلّ مستوطنين هو عملٌ إرهابيٌّ إجراميٌّ؛ إنّ الكفاح المسلّح لتحقيق البرنامج الرسميّ لمنظّمة التحرير الفلسطينيّة كان ولايزال وسيَبْقى مشروعًا انتحاريّاً؛ الكفاح المسلّح في المناطق المحتلّة سنة ١٩٦٧ مُضِرٌّ بقضيّة التحرير، وهديّةٌ للمتشدّدين الإسرائيليّين؛ إنّه أمر يبعث على السخرية أن يَعْتقد المرءُ أنّ المقاومة الفلسطينيّة المسلّحة ستَهْزم جيشَ الدفاع الإسرائيليّ؛ المقاومة الفلسطينيّة المسلّحة ستشكّل وحدةً داخل إسرائيل داعمةً لأكثر العناصر وحشيةً وقسوةً؛ أعمالُ الهجوم على المستوطنين شنيعةٌ أخلاقيّاً ومعتوهةٌ تكتيكيّاً؛ العمليّات العسكريّة الفلسطينيّة ضدّ إسرائيل بحدودها المعترف بها دوليّاً ستكون بالغةَ الضرر على الفلسطينيّين.

يدين تشومسكي الديانات بقوله إنّ بعض الكتب المقدّسة هي أكثرُ الأدبيّات إباديّة. ثم يَعْرض أفكارَه السِّلاميّة بالقول إنّ المقاومة غيرَ العنيفة هي أكثر الوسائل فاعليّةً في دفع قضيّة التحرير قدمًا؛ فالكفاح المسلّح وصفةٌ للبؤس والكارثة. ويَضْرب لنا تيمورَ الشرقيّةَ مثالاً على صحّة آرائه. فالولايات المتحدة الأميركيّة دعمتْ علنًا العدوانَ الأندونيسيَّ على تيمور الشرقيّة، وسكتتْ عن الفظائع الهائلة فيها طوال ربع قرن، وعن طرد ٨٥٪ من السكان من بيوتهم، وعن تدمير البلاد وقتلِ الآلافِ من السكّان، وظلّت تدعم الجيشَ الأندونيسيَّ حتى أيلول (سبتمبر) ١٩٩٩. وفي ذلك التاريخ أَصْدر الرئيس كلينتون أوامرَه إلى الجنرالات الأندونيسيّين، تحت ضغط دوليّ ومحليّ متواصل، بأنّ اللعبة انتهت. وخلال ٤٨ ساعة قَلَب الجنرالاتُ مسارَهم ١٨٠ درجة، وبدأوا الانسحابَ من هذه الجزيرة لتدخل إليها قوّةُ سلام دوليّةٌ تقودها أستراليا من دون أن تلقى معارضةَ الجنرالات.

في هذا المقال لنا تفصيلٌ وكلامٌ: فالحقّ أنّ بعض آراء تشومسكي فيها الكثيرُ من الديماغوجيّة. وعلى سبيل المثال، لم يدّعِ أيُّ فلسطينيّ قطّ أنّ المقاومة الفلسطينيّة المسلّحة ستَهْزم الجيشَ الإسرائيليّ. وجلُّ ما تطلعتْ إليه الحركةُ الوطنيّةُ الفلسطينيّة، مثلها مثل أيّ حركةِ تحرُّرٍ وطنيّ في العالم، هو جعلُ تكلفة الاحتلال باهظةً جداً بحيث تصبح إسرائيل غيرَ قادرةٍ على احتمالها، تمامًا مثلما حصل في فيتنام أو الجزائر أو جنوب لبنان؛ فلم يَعْتقد أحدٌ البتّةَ أنّ الفيتكونغ أو جبهةَ التحرير الوطنيّ الجزائريّة أو حزبَ الله أقوى من الجيش الأميركيّ أو من الجيش الفرنسيّ أو من الجيش الإسرائيليّ، على التتابع. لكنْ كان كلُّ طرف من هؤلاء، في صراع الإرادات المرير، يتشبّث بإيقاع أقصى ـ بل أقسى ـ الخسائر بالخصم كي يُرْغم خصمَه على الصدوع لمطالبه، ولاسيّما بعد أن يوقِنَ أنْ لا سبيلَ إلى كسر إرادته. وعندما يصل الخصمُ إلى هذه النقطة من التفكير تُفْتح أبوابٌ كانت مغلقةً تمامًا، كالتفاوض السياسيّ على الجلاء، أو حتى الجلاء من غير تفاوض.

أمّا نورمن فِنْكلستين، فمع اختلافه الواضح عن نوم تشومسكي في موقفه المبدئيّ من الكفاح المسلّح، إلاّ أنّه يتّفق معه في أنّ تفجير الباصات المليئة بالمدنيّين عملٌ خاطئ. وهو يَعْتبر الأطفالَ والشيوخَ في خانة المدنيّين حُكْمًا، بينما يرى أنّ مفهوم «المسؤوليّة الجماعيّة» غامضٌ تمامًا، وفي الديكتاتوريّات لا يَمْلك المواطنون أيّ رأي في سياسة حكوماتهم. وفي هذا السياق يبدو فنكلستين يساريّاً فلسطينيّاً، فيرى أنّ المستوطنين أهدافٌ مشروعةٌ للمقاومة المسلّحة، وأنّ اغتيال وزير في الحكومة الإسرائيليّة إنّما هو انتقامٌ مشروعٌ. غير أنّ فنكلستين (اليساريّ الفلسطينيّ!) يتطابق موقفُه مع تشومسكي (اليساريّ الإسرائيليّ!) في أنّ الأعمال الإرهابيّة ذاتُ

فاعليَّةٍ مشكوكٍ فيها؛ فهي تمكّن إسرائيل من وضع ثقل قوّتها العسكريّة، وتوحّدُ المجتمعَ الإسرائيليَّ، وتقلّب الرأيَ العامَّ العالميَّ ضدّ الفلسطينيّين. وهو يَعْتقد أنَّ العصيان المدنيَّ اللاعنفيَّ هو ما سيأتي للفلسطينيّين بالظفر: فلا الحربُ التقليديّةُ ولا حربُ العصابات تبدوان خيارًا قابلاً للتطبيق، بل إنّ عصيانًا مدنيّاً لاعنفيّاً شأنَ ما حدث في أثناء الانتفاضة الأولى قد يُغْرق الجيشَ الإسرائيليَّ ويُبْطل تأثيرَه.

في جانب آخر يَمْتاز ريتشارد فالك بالدقّة المنهجيّة الرفيعة حينما يتصدّى لمعالجة إحدى النقاط التي أثارتها أسئلةُ الآداب. فهو يقول: «إنّ القانون الدوليّ لا يَسْمح أبدًا باستهداف المدنيّين عن سابق تصوُّرٍ وتصميم، لكنّ العنف الموجَّه ضدّ المستوطِنين والمستوطنات لا يمكن اعتبارُه إرهابًا». ويفاجئنا بأنّ من غير الصحيح أنّ الأمم المتحدة أجازت المقاومةَ بكافة الوسائل؛ فهي أثبتتْ حقّ الفلسطينيّين في تقرير مصيرهم ولكنْ من غير الموافقة الصريحة على الكفاح المسلّح. وهذا الاستنتاجُ يُلْزمنا إعادةَ فحصِ قرارات الأمم المتحدة على أيدي خبراء قانونيّين من عيار ريتشارد فالك.

يَعْترف فالك بأنّ قيام إسرائيل أَوْقع بالفلسطينيّين ظلمًا كبيرًا من النواحي الإنسانيّة والأخلاقيّة والسياسيّة والقانونيّة، لكنّه يعتقد أنّ تصحيح هذا الظلم مسألةٌ صعبةُ اليوم، وأنّ السعيَ إلى قلب ما حدَثَ في سنة ١٩٤٨ لا جدوى منه من الناحية القانونيّة والسياسيّة ـ وإنْ يكن مفهومًا من الناحية الأخلاقيّة.

إنّ تطبيق حقّ العودة، على سبيل المثال، مسألةٌ معقّدة جداً بحسب ريتشارد فالك، لأنّ ثمّة قبولاً دوليّاً بوجهة النظر الإسرائيليّة القائلة إنّ ممارسة هذا الحقّ القانونيّ ستدمِّر هويّةَ إسرائيل بوصفها دولةً يهوديّة. والقانون الدوليّ يعطي أيَّ دولةٍ الحقَّ في الدفاع عن بقائها، وليس فيه ما يَمْنع شعبًا من إنشاء دولة تَسْتند إلى معتقدات إثنيّة أو دينيّة. ولهذا ليست إيران، بوصفها دولةً إسلاميّةً، دولةً غيرَ شرعيّة (وهذا يَنْطبق على الباكستان أيضًا) مع أنّ إسرائيل كانت ثمرةَ الاستيطان ولم تكن خيارًا للكسان الأصليّين.

يتّفق فالك وفنكلستين، إلى حدٍّ كبير، على «أنّ الترتيباتِ المتّفقَ عليها والتي تَثْبت عقودًا من الزمن تُعْتبر في القانون الدوليّ مولِّدةً للقانونيّة» (فالك)؛ وعلى الرُّغم من أنّ «القوّةَ لا تَصْنع حقّاً، إلاّ أنّ القوّة، مع مرور الوقت، تَصْنع حقّاً بالفعل» (فنكلستين). إنّ فالك أقلُّ تشدُّدًا من فنكلستين، ولعلّه يلائم التفكيرَ السياسيَّ للسلطة الفلسطينيّة؛ فهو يَعْتقد أنّ من الضروريّ أحيانًا التنازلَ عن حقوق مشروعة من أجل تحقيق أفضل حصيلةٍ سياسيّة، لأنّ التبعات السياسيّة قد تَمْنع ممارسةَ الحقّ القانونيّ. وفي هذا المجال لا يتورّع فالك عن القول إنّ إصرار الفلسطينيّين على الحقوق المشروعة للاّجئين يَفْرض عائقًا سياسيّاً حاسمًا وربّما يَمْنع أيَّ عمليّة تسوية في المستقبل المنظور.

إنّ الأفكار والآراء التي توصّل إليها كلٌّ من تشومسكي وفِنْكلستين وفالك تُظْهر، للأسف، الفارقَ الكبيرَ في طرائق التحليل والاستنتاج بين الكتّاب العرب والكتّاب الأميركيّين في هذا الملفّ. ولا ريب في أنّ النقاط الخلافيّة التي أثارتْها نصوصُ هؤلاء الثلاثة جديرةٌ، لا بالوقوف عندها مليّاً فقط، بل بشحذِ العقل العربيّ، وإعمالِ الفكر لاستنباط أجوبة متينة وحججٍ قويّة وأفكارٍ تستند إلى المنطق في مقارعة الصهيونيّة. وهذه المقارعة هي مجرَّدُ رحلةٍ فقط في شوطٍ طويلٍ من تاريخ الصراع المحتدم في منطقتنا العربيّة منذ أكثر من مئة عام.

وفي هذه الرحلة الممتعة في رحاب الأفكار، وكطريقة في هذا السجال النقديّ، أُوجز بالقول التالي:

ـ إنّ فكرة «المسؤوليّة الجماعيّة» لا يُمْكن تطبيقُها على الحال الإسرائيليّة نفسها، على الرُّغم من التاريخ الطويل من المآسي والمذابح. فالفلسطينيّون يقاتلون دفاعًا عن حقّهم الإنسانيّ في الحياة والعيش بحريّة وكرامة. ومن هو الأجدرُ منهم في فهم عذابات الآخرين وحريّة الإنسان وكرامته؟! لذلك فهُمْ، حين يقاتِلون ويموتون، ينبغي أن يكون قتالُهم من أجل المستقبل، أيْ من أجل الحياة؛ فلا تأْسرَهم فكرةُ «عبادة الموت» ولا تتملّكَهم غريزةُ قتلِ الآخرين، كلِّ الآخرين، كيفما كان.

ـ ليس صحيحًا أبدًا القولُ إنّه لا يوجد مدنيُّون إسرائيليُّون لا يَرْغبون في قتال الفلسطينيّين. إنّ هذا الكلام يدلّ على جهلٍ تامٍّ بالتشقُّقات التي تَعْصف بالمجتمع الإسرائيليّ. لقد انتهى عصرُ القلعة والسُّور في إسرائيل. وثمّة جيلٌ جديدٌ من الإسرائيليّين ذو صلةٍ واهيةٍ بجيل الروّاد، وهو جيل مضطرب لا يَبْغي في الحياة إلاّ المالَ والتجارةَ والسفرَ والاتصالَ والمتعةَ و«السلام».

ـ إن مَنْ لا يرى التشقُّقات في القلعة الإسرائيليّة هو، بكل بساطة، لا يَمْتلك أيَّ قدر من المعرفة بالعدوّ. ومَنْ يرى المجتمعَ الإسرائيليَّ كلاً موحّدًا ومتماسكًا إنّما هو، في الواقع، غيرُ قادر على رؤية أيّ شيء. ففي الأوساط الدينيّة اليهوديّة جماعاتٌ معاديةٌ للصهيونيّة، مثل «ناطوري كارتا» التي ترى في قيام إسرائيل كفرًا لأنّها عملٌ من أعمال الربِّ في الأساس لا من أعمال بن غوريون

ـ إنّ فلسطين الحرّة والديموقراطيّة تتّسع للعرب واليهود معًا. فإذا كان الصهيونيُّون طَرَدوا العربَ في سنة ١٩٤٨، فالعربُ لن ينفِّذوا أيَّ عمليّة طرد بحقّ اليهود الذين يعيشون في فلسطين الحرّة. فالوقائع التاريخيّة تَخْلق حقوقًا لأجيالٍ لم تَقْترفْ جريمة طردِ الفلسطينيّين أو احتلالِ فلسطين.

بيروت

قبل أن تتكسَّر الأحلام

بقلم: عربيّ حر

لقد فاجأتْ حربُ «الأعين» إسرائيل - وربما فاجأتنا جميعًا كذلك: ففي عين عريك سقط ستةُ جنود؛ وفي عيون الحرامية سقط عشرة جنود ومستوطنان. بدا فجأةً وكأنَّ أعين فلسطين تدفقتْ بطولاتٍ قلَّ نظيرُها في العقديْن الأخيريْن. حتى حزبُ الله - المثال، بل الحلم - لم يتمكَّنْ من قتل هذا العدد من الجنود بإمكانيَّات بدائيَّة كتلك التي في يد الفلسطينيِّين. إذًا، هناك صحوة، عودة، بداية جديدة، نهاية سعيدة، انتصارٌ للأصالة على الانحراف السياسيّ الذي دام عقدًا، انطلاقةٌ أخرى للمقاومة. حتى أقلُّ الناس ثقةً بالسلطة الفلسطينيَّة رأوا الهجمات المسلَّحةَ الأخيرةَ تغييرًا حقيقيًا في النهج.

ولكنْ رغم البطولة الحقيقيَّة التي تجسدتْ في «الأعين» الفلسطينيَّة، فإنَّني لم أرَ البداية - الصحوة، بل شعرتُ بالطفرة - الخديعة. إنَّها، في أحسن الأحوال، طفرةٌ، أو محاولةٌ يائسةٌ لتنجيد المقعد قبل الجلوس على طاولة التفاوض. وهي، في أسوإ الأحوال، خديعةٌ شريرةٌ تتلاعب بمشاعر الشعب، تمامًا كالقاتل الذي يُمْهل ضحيتَه فترةَ استراحة فيسترخي حذرُ هذا الأخير وتلين دفاعاتُه، لينقضَّ القاتلُ فجأةً وليتمَّ جريمتَه.

قبل حرب الخليج، أو «أم الهزائم،» رُفعت المعنوياتُ العربيَّةُ والفلسطينيَّةُ برافعات أجنبية ومحليَّة حتى لامست السماءَ. وحين انقشع الغبارُ تكشَّفت العوراتُ، وتبيَّن مدى الإمعان في الكذب والتلاعب حتى بالأحلام. فسقطت الروحُ المعنويةُ سقوطًا فاجعًا، وتسللت الهزيمةُ، وانتشر اليأسُ، وصعد كيسنجر باسمًا كمن كان يَعْرف مسبَّقًا متى سيُسدل الستارُ، وكيف سيُقتل البطلُ في المشهد الأخير. والنتيجة الأعظم لأم الهزائم تلك كانت وثيقةَ استسلامٍ وقَّعها في أوسلو المنتصرون من جهة، والطامحون إلى لعب دور حرّاسٍ لأولئك المنتصرين من جهة أخرى.

لم يكن الفلسطينيُّون، والعربُ عامةً، ليوافقوا على تلك المهزلة لولا هزيمةُ أحلامهم وتكسيرُ معنوياتهم دون رحمة. فمعنويَّاتُ الشعوب كلما ارتفعتْ زادت احتمالاتُ تحطُّمِها وتفتُّتِها عندما تَسْقط، ولاسيَّما حين تَسقط «كجلمود صخرٍ حطَّه السيلُ من علٍ.» فأحلامُ الشعوب، حين تطفو على سطح إنجازاتها، تَصْعد مع تصاعد الأخيرة بشكل طبيعيّ وسلس. أما عندما تُفْصل عن مائها وتُرْفع عن عمد فوق قمم الجبال فتفقد القدرةَ على التواصل أو التماسّ مع سطح الماء الجاري في العيون، فإنَّ مَنْ رَفَعَها سيتحكَّم عندها بمصيرها تمامًا. وعندما يأتي الوقتُ الملائمُ يُسْقِطها ذاك الذي رَفَعَها، لترتطمَ بعنفٍ على صخور الواقع التي لم تكن ظاهرةً من فوق، من السماء، فتتكسَّر.

إنَّ شعبًا ثائرًا لا يَرْضخ إلا لنفسه، لجزء منه، لقيادته إذا خانته ... وهم يدركون ذلك.

إذًا، «الأعين» تتكحَّل استعدادًا للاغتصاب الأخير، لا للفرح. والأب يجهِّز ابنتَه لجريمة البيع، دون عِلْمها، ليقبضَ فُتاتًا يسدّ رمقَه ويوقف عويله. كان الفلسطينيُّون قد بدأوا يرون النورَ يشعّ تمامًا كما شعَّ في الجنوب اللبنانيّ، بل أكثر. وأصبح النصرُ «صبرَ ساعة،» كما وعدهم القادةُ الذين «يُعدّون الجنازةَ وانتخابَ المقصلة وأحمدُ العربيُّ يَصْعد كي يرى حيفا» كما يقول محمود درويش. ما لم يقله المرتبطون هو أنَّ التاريخ لم يَشْهد انتصارَ شعبٍ دون قيادة، فما بالُكَمْ بشعبٍ تجمِّله قيادتُه لتبيعه في سوق النخاسة؟!

أيُّها الأبطال، أبطالُ عين عريك وعيون الحرامية ورفح ورام الله وخان يونس وبيت لحم وبلاطة وطولكرم... معذرة! فنحن جميعًا ننحني أمام عنفوانكم وإرادتكم الفذَّة؛ ولكنَّ أجراس العودة لن تُقْرَعَ هكذا، لأنَّ قيادتكم قطعت الحبلَ ودفنت الجرسَ. إنَّها تستجدي من الجلاّد أن يخفِّف ضربات سوطه قليلاً لتستجمعَ قواها وهيبتَها الموحلة، فتباشرَ في تسليم أو اعتقالِ المطلوبين الذين أعدَّ السيّد قائمةً بأسمائهم. تأكَّدوا أنَّ اسم كلِّ واحدٍ منكم موجود على القائمة. وعندما يأتي وقتُ إطعام الحرّاس وجبةً أدسمَ من المعتاد، ستُعتَقَلون أو تُسلَّمُ مخابئكم وتُقتَلون على مذبح «بناء الدولة.»

لن تتراكم بطولاتُكم لتفيضَ الأعينُ ويصعَدَ الحلمُ على قاعدة حقيقيةٍ مستدامة. لن نَقْرع أجراسَنا قبل تنظيفها من طبقة الصدإ

التي تَكْتم جَلْجَلَتها، قبل أن نجد فينا من يَحْمل رؤيانا فنحملَه ونصعَدَ. فمن «يفاوض» القتلة أثناء تمثيلهم بجثثنا... مَنْ يبيع لاجئينا مقابلَ بانتوستانات المافيا الفاسدة... مَنْ يَنْعتُ مقاومتَنا بالإرهاب ويَعْتقلُ مناضلينا لإرضاء أسياده الذين لا يَشْبعون... مَنْ يَلْعب بأحلامنا وآلامنا من أجل بضع وكالات تجاريّة لشركات إسرائيليّة وأمريكيّة... مَنْ يسجّل فيديو مرثيةً للمرحومة ليئا رابين ولا يَذْرف دمعةً ـ وإنْ عن طريق الخطإ ـ على ضحايا جباليا وطولكرم... مَنْ يَفقد الرؤيةَ ويحيط نفسَه بالمرتزقة ويقطع الصلةَ بشعبه وتطلّعاته... مَنْ يَدْعو إلى سلام الشجعان ولكنّه يحقّق سلامَ الخذلان، سلامَ القبور...

من يَفْعل ذلك كلّه لا يمكن أن يقودنا إلى نصر وحريّة.

أحبَّتنا، يا أنبلَ أبناء الأمّة، لا تَسْمحوا للحلم الزائف أن يرفعكم في الهواء. لا تَسْبحوا في السماء. لا تَدَعوا أحدًا يَسْرق أحلامَكُم الأصيلة. إنّكم تستحقّون قيادةً أفضلَ تساعدكم على تحقيق أحلامكم، لا تكسيرها.

القدس

موادّ الأعداد القادمة من الآداب

- مصادرات العقل العربيّ في القرن العشرين (ملفّ)
- من يموّل الثقافة العربيّة؟ (ملفّ)
- الأميركيّون العرب: تجارب وإبداعات (ملفّ)
- الحركات الإسلاميّة المغربيّة وقضايا الحداثة (ندوة)
- مقابلات: محمد السرغيني، الطاهر لبيب، لطفيّة الدليمي

الدكتور سماح إدريس المحترم،

الإخوة في هيئة تحرير مجلة الآداب المحترمون،

تحيّة فلسطين، تحيّة العروبة،

بمناسبة مرور خمسين عامًا على صدور مجلة الآداب اللبنانيّة، اسمحوا لي أن أتقدّم إليكم بكلمات التهنئة في يوبيلها الذهبيّ، وبالتقدير العالي لكلّ هذه المثابرة والاستمراريّة بهذا المنبر الكبير الذي قدّم أدباء عربيًا كبارًا، وأسّس للمشهد الثقافيّ العربيّ المعاصر، وواكب مظاهرَ الحداثة وتطوُّرَ الفكر العربيّ والنقد الأدبيّ. واستطاعت مجلة الآداب عبر مسيرتها الطويلة أن تحتلّ مركزَ الصدارة، وأن تقدِّمَ صورةً مضيئةً للفكر التنويريّ والأدب الإنسانيّ.

لقد كانت الآداب، ومازالت، في قلب المشهد الثقافيّ الذي يواكب فعلَ الانتفاضة الفلسطينيّة والمقاومة إلى جانب المناضلين الشرفاء. وهي منبر عربيّ قوميّ وعالميّ يمتاز بالدفاع عن قضايا الإنسان المعاصر، وبالجرأة في طرح القضايا الفكريّة والأدبيّة النقديّة. أضفْ أنّها تَمْتاز بتقديم الحوارات المشْبعة بالأفكار والأطروحات الجديدة. ولقد بلغتْ مجلة الآداب نموذجها المعاصر في متابعة النقاشات والجدل الثقافيّ. وهي لهذا كلّه ذاتُ مكانة عالية في قلب كلّ مثقّف عربيّ وعقله، لما تمثّله من حالة نهوض في المشهد الثقافيّ العربيّ.

ورغم كل الصعوبات التي يواجهها القائمون على إصدار مجلة الآداب، ورغم نضب الإمكانيّات، فإنّ ثقتنا كبيرة بالمجلّة وبالقائمين على استمرارها في الصدور. وإنّني أقرأ إرادةَ أسرة تحرير المجلة وتصميمَها على الاستمرار والتطوير وبلوغ الغاية المنشودة في تفعيل المشهد الثقافيّ العربيّ.

إنّني أحيّي جهودكم الطيّبة، وأقدّم التقديرَ والتهنئة للدكتور سماح إدريس والدكتور سهيل إدريس ولهيئة التحرير. كلّ المحبة لكم جميعًا من أجل ثقافة عربيّة تنويريّة تواكب قضايا أمتنا العربيّة، وتقدِّمُ صورةً مشرقةً للبنان العربيّ ولفلسطين وللعرب جميعًا.

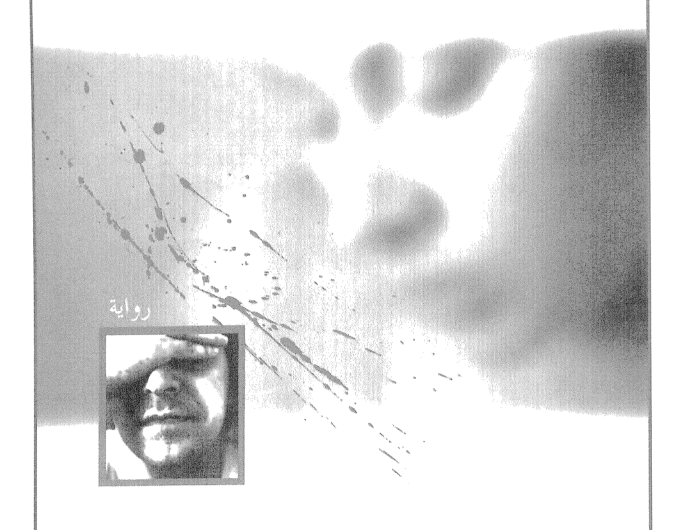
وتقبّلوا فائق المودّة والاحترام.

أخوكم د. جورج حبش
مؤسِّس حركة القوميّين العرب
والجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين

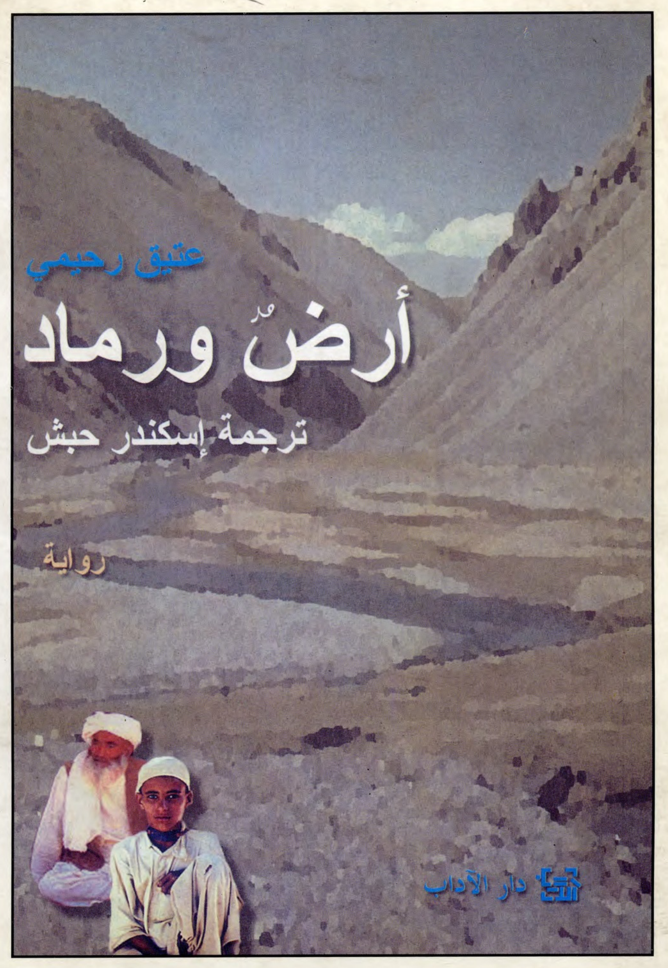
لويس سبولفيدا

مذكرات قاتل عاطفيّ

ترجمة اسكندر حبش



دار الآداب


عتيق رحيمي
أرضٌ ورماد
ترجمة إسكندر حبش
رواية
دار الآداب